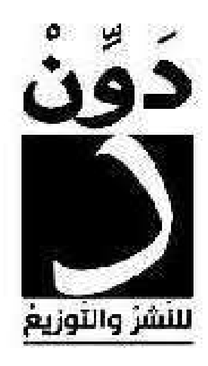

سامي ميشيل
رواية
جزيرة
المجد
الأعظم
دار دَوِّن
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

سامي ميشيل

جزيرة الجد الأعظم

روايـــة



إهداء إليها

أرهقتُكِ مع كتاباتي كثيرًا، ورغم ذلك

لم تبوحي لي بتعبك، دُمتِ لي مُعينًا،

ودافعًا سِحريًّا، ونجمة مُضيئة في ظلام لَيلي البَهيم.



«طال الليل واشتد ظلامه، وأصبح الطريق إلى النجوم المضيئة مليئًا بجثث اليائسين».

الصياد

الفصل الأول

الإسكندرية

وقف ليلأ برياء في مُنتصف مركبته الخشبية الصغيرة ذات المجدافين، وكانت تتموج كرسام شرع في طلاء لوحته بلا قواعد، ورائحة يود البحر تجتاح أنفه. نظر أمامه بدقة ورأى الظلام يُسيطر على البحر، وأمسك بشبكة الصيد، ووضع طرفها على منكبه، ولف حبلها الطويل على ساعده ثم ألقى بها، فطارت في الهواء بشكل دائري كشباك العنكبوت وسقطت على سطح البحر وغاصت في المياه. انتظر قليلاً والتقط سيجارة ماتوسيان ، وأشعلها من كلوب مثبت على حافة المركبة كان يهشم بضوئه حاجز الظلام. وملأ صدره بالدخان ونفثه، وسحب حبل الشبكة فوجدها ثقيلة، وأيقن كمية الأسماك التي تحملها في طياتها، وطفت الشبكة فوق سطح البحر، ونقلها إلى مركبته التي تتزين بلون لبني ممزوج بالأبيض الباهت. وفتح الشبكة وعاين ما فيها من أسماك متنوعة، وهي البربوني، والمياس، والدنيس، وسرطان كبير حاول الخروج من الشبكة وركض في كافة الاتجاهات. وضغط بأقدامه على الأسماك ولم يجد سبيلاً ليهرب منه. فتح الصياد صندوقًا خشبيًا في منتصف المركبة مليئًا بالثلج وأفرغ الأسماك، ورتب شبكته سريعًا وألقاها في المياه. وجلس على حافة المركب ينتظر نصيبه من البحر الذي يدعوه دائمًا بـ«الملك الطاهر»، لخلوه من الكبرياء، والشهوة، وصراع البشر الدائم الذي يميزهم عن بعضهم، كما أنه سبب رزقه، ويجدد روحه الرثة، ويبعث له بالأمل. وقف وجذب الحبل الطويل، واستمع لصوت يعرفه، نظر للسماء فكان القمر ثابتا يُداعب الأمواج ناحيته، والنجوم تلتف حوله وتعطيه رونقًا وجمالاً فوق جماله، كاد ينزل رأسه ويكمل عمله، لكنه اصطدم بطائرات حربية تجوب السماء بحثًا عن الدماء والتدمير.

تفرق بعدها ظلام الليل بقوة جراء قصف الطائرات للبيوت القريبة من شاطئ البحر، فانهارت فوق رؤوس سكانها، وارتفعت منها النيران مع ارتفاع صرخات واستنجاد الناس، ورأى من بعيد النساء يركضن من

منازلهن بقمصان النوم، ويحملن أطفالهن كالمجانين في الشوارع باتجاه المخابئ السرية المطموسة أسفل الأرض. لعن في باله الحرب وما تُحصله من أرواح، وأمسك المجدافين وقلبهما في المياه سريعًا حتى يصل للشاطئ، ومن فوقه امتلأت السماء بالطائرات وأصوات القصف العالية التي تصم الأذان، وتُفرغ القلوب من الدماء، وتدمر أي مادة تُعيق سبيلها. حينما اقترب من الشاطئ انتبه لقذيفة تنفجر عن بعد، فقفز إلى الماء وسبح مبتعدًا عنها، وارتفعت المياه واضطرمت النيران في المراكب الراسية، ووقعت العديد من الانفجارات. زادت دقات قلبه وتسرطن بداخله الخوف لما تخيل أسرته من ضحايا قصف الطائرات. وصل إلى الشاطئ وصعد على إطار سيارة قديم، وقفز من فوق سور خشبي قصير، ونظر فوقه بقلق وجسده يرتجف من ارتطام الهواء في ملابسه المبتلة. وركض كالخاطئ يوم القيامة لا يعبأ بشيء، لا بالنيران، ولا بجثث الناس في الشوارع التي يجري فيها، وكان يُفكر في أسرته، ونرجسية هتلر شديدة التعقيد. قيدته الأفكار والتساؤلات طوال الطريق، حتى وصل لبيته في حارة اليهود، وهدأ قلبه ووقف يلتقط أنفاسه لأن قصف الطائرات لم يمس حارته، تلك الحارة المظلمة الطويلة التي تراصت بيوتها ناحية اليمين واليسار تستند على بعضها كأنها تقاوم السقوط. وكانت البيوت طويلة ورفيعة ومكونة من طابقين، ولونها الأصفر الباهت يجعلها شبيهة بالمرضى، وخالية من الشرفات ولها شبابيك طويلة، وفي منتصف الحارة كانت لبعض البيوت القليلة مشربيات خشبية عتيقة، وبارزة للخارج وبُنية اللون ومزخرفة، وتستند على سواعد قوية من الخشب، ويعتليها مشاجب نحاس مُعلق فيها مصابيح زجاج تعمل بالكيروسين، ومطلية باللون الأزرق، وتضاء في بعض الأوقات لتنبلج أسفلها أرض الحارة غير الممهدة، والتي يتبعثر فيها الدبش الأبيض، ويختلف حجم كل دبشة عن غيرها، وكانت تنتهي الحارة ببيت كبير قليلاً عن باقي البيوت، يقف بعرضه شامخًا، ويمنع مرور الغرباء من الحارة، لأنه يفصلها عن باقي الحارات. واسترد الصياد طاقته وركض إلى مدخل بيته وانحرف يسارًا وطرق باب شقته، ووضع أذنه فعثر على الصمت البليغ خلف الباب، ودرى أنهما ليس

بالداخل، جذبه صوت صافرات الإنذار المزعج ودفعه للجري إلى المخبأ السري في الحارة الخلفية. كان المخبأ طويلًا ومستقيمًا وينحدر للأسفل كلما اقتربت من نهايته، ومليئًا بصخور تحدد من الجانبين، ولا يقدر شخص بالغ على الوقوف كاملاً لأن المسافة بين الأرض والسقف قصيرة، ولابد وأن يقوس الشخص ظهره وهو يسير، وفي منتصفه تثبتت مصابيح كيروسين جديدة. وجد الصياد داخله الكثير من أهالي منطقته رضعًا، وأطفالًا، وشيوخًا، وأزواجًا يحاولون تغطية زوجاتهم بملابسهم، وكانت العيون يغزوها الهرع والخذلان. فتش عن زوجته وابنه ودنا من نهاية المخبأ ولم يجدهما. خرج ونادى عليهما في الشارع بصوت عالٍ تقاطع معه صوت القصف العنيف. سب الحرب والدول التي أججت نيرانها، والفقد والألم، وتخيلاته التي لا تخلو أبداً من رؤية أسرته غارقة في بحر سخيف، خالٍ من السمك، مليء بالعواصف، ولا يُبالي لسطوة أحد، يخطف ويقتل، ويشمت في أعدائه ومحبيه، الاثنين على حد السواء، بحر تهجره الرمال ويهرب منه الشاطئ، بحر أحمر مليء بالدماء. ركض في الحارات المحيطة، وتملكه القنوط، ووقف يلتقط أنفاسه، والقصف ما زال مستمرًا في المناطق القريبة، لمسته فجأة أنامل من الخلف، التفت وأدام النظر لابنه وزوجته التي استندت عليه والمرض يغالبها، جذبها لصدره وجرى ناحية المخبأ وأجلسها في آخره، وقبل رأسها، وقال بلين:

- أين كنتِ؟، لا تبتعدي عن البيت.

والتفت لابنه ووبخه بصوت خفيض:

-لا تبتعد بها ثانية.

-فيما بعد نتكلم.

كان القلق يطعنه ويمسك بيد والدته ويشعر ببرودتها، ولاذ بنظراته بعيدًا عن أبيه، وصمت الثاني مراعاة للموقف، واحتضن زوجته، ولثم شعرها بقبلة.

***

مر الوقت عليهم مثل خمسة أفيال تربطهم سلاسل حديدية ويتحركون على رمال الصحراء ببط أسفل حرارة الشمس القاسية، والعرق ينغمس فيهم كالمسامير. أغمض الصياد عينيه وفتحها ووجد نفسه في مركبته بالبحر والشباك ملقاة بالمياه وحملها يزداد ويسحب الحبل الملفوف حول ساعده، ولما رفع رأسه إلى السماء أبصر القمر أسود، ومشقوقا من النصف، وكانت أمواج البحر عالية، جذب حبل الشبكة، فكان ثقيلا، مما دفعه للاقتراب من حافة المركب، ولمح شيئا يحيط به في القاع. واصطدم فجأة بموجة جسيمة تجرف المياه وتدنو منه، وأمسكت بقدمه ذراع سميكة خرجت من البحر فجأة وسحبته في غفلة، كتم أنفاسه وحاول التملص بحنكة والتمسك بخشب المركبة، لكن جسده انغمس في قاع البحر، فكان مليئا بالقواقع والصخور، والأسماك الصغيرة والنباتات البالية. حرقته عيناه، ورفع منكبيه وحرك قدمه ليعود إلى فوق فاصطدم في أخطبوط ضخم لونه وردي ويمتلك عيونا حمراء كبيرة، وله ثمانية أذرع، رفعهم إلى الأعلى ولفهم حول جسد الصياد واعتصره، فتح الصياد فمه وصرخ فاندرجت المياه في حلقه، وفتح الأخطبوط فمه وابتلعه، وأصدر صوتا هز قاع البحر. بمعدته انحصر الصياد في الظلام الدامس، واحتلت أنفه رائحة قذرة، ارتجف الأخطبوط وأخرجت معدته سائلا ساخنا سقط على الصياد وآلمه، حاول الخروج من معدته فلم يجد سبيلا. ولما ضاقت به الحيل، التقط سكينا من جيب سرواله القماش ووضعه في معدة الأخطبوط، ودفع نفسه للأسفل وصنع فتحة مناسبة استطاع النفاذ منها إلى البحر، نزف الأخطبوط دماء سوداء لزجة شوبت الرؤية في المياه، وهوى إلى قاع البحر، وسبح الصياد إلى السطح وملأ رئتيه بالاكسجين، وأبصرت عيناه مشاهد الدمار والخراب من قصف الطائرات للشاطئ والسفن الراسية، وبعد وقت غمرت المياه اليابسة وابتلعت كل شيء.

***

-الغارة خلصت.

استيقظ الصياد ودرى أنه كان يحلم بمشاهد سوداوية أصابته بالأرق، وكانت زوجته بجانبه نائمة، والهالات السوداء تحتل عينيها، وشعرها الأسود يغطي نصف وجهها. أيقظ ابنه، ووضع يد زوجته على منكبه ورفعها وساروا للشارع، ولامستهم خيوط شمس الشروق الرقيقة، والنسمات الباردة، ووصلوا إلى البيت، كان أمام مدخله حائط من الطوب بناه السكان منذ يومين لحمايتهم من شظايا قصف الطائرات، وغيرها من المواد الخطيرة التي تتطاير في الهواء أثناء الغارات، وعلى الناحية الأخرى من الحائط انزوت صخرة كبيرة يجلس عليها المارة في الشارع ليرتاحوا إن تطلب الأمر ويعاودون السير. دلف الصياد للمدخل وتقدمه ابنه ودفع باب البيت الخشبي الضخم الذي ينتهي من فوق بنصف دائرة، واقتربوا لليسار، والتقط ابنه من جيبه مفتاح شقتهم ودسه في الباب وفتحه ودخل الثلاثة يتتبعهم الحزن.

***

وضع زوجته على سرير قديم تغلغلت في سطحه دوائر سوداء، وسحب فوقها ملاءة خفيفة وقبّلها، وتذكر ليلة زفافهما في يوم صيفي حار، حينما انتهى الزفاف في منتصف الليل، فخلع بذلته ورفع زوجته وأغلق خلفهما باب الشقة، ثم اقترب بها لغرفة النوم وضربات قلبه تعلو وتهبط كلما اقترب من السرير حتى وضعها برفق عليه، وارتحل معها إلى أرض مزروعة بفواكه متنوعة ترويها لذة الألم. ثم اخترقا حواجز وأبعاد وأزمنة سحيقة التحمت فيها الأجساد وأنتجت أعدادًا غزيرة من الشعوب مثل أمطار الشتاء، وكانا يتناهدان، وصدراهما يرتفعان ويهبطان بالشهيق والزفير. وبعد دقائق انتهت الرحلة وعادا لغرفتهما وأعرب الجسدان عن الاغتباط والسرور، ونام الصياد على ظهره والعرق يغزوه، وتوسدت زوجته صدره، وتدثر الاثنان بصمت بالغ الهدوء والسكينة.

***

خرج من الغرفة وترك بداخلها أحلامه وذكرياته معًا، ودعا ابنه بصوت خفيض:

-مرعي.

جاء في خجل ينظر ناحية الأرض، تأمل وجهه وذقنه الخفيفة التي بدأت في الظهور، وبدنه الطويل ذا السبعة عشر عامًا، وسأله:

- خرجتما؟

رد بفم يتجرع الألم:

-أرادت استنشاق الهواء خارج جدران البيت، وتبدد رفضي أمام رغبتها لأنها لا تحتمل المرض.

-منذ أن عرفتها وهي تُفضل السير في الشوارع مع بداية الليل لتستمتع بالهواء، وحينما أنجبناك ابتعدت فترة عن تلك العادة، وعادت لها عندما بلغت عامك الأول، وكانت تصطحبك لتعشق الهواء مثلها. أعلم أنك لا تريد أن يزيد حزنها فكن حذرًا، واستجب لها ولكن بالقرب من البيت، ولا تبتعد كثيرًا لأن قصف الطائرات يبتلع طريقه، ونحن طريقه.

-حفظت هذه الكلمات، كفاك.

-نفذها ولا تقل كفاك.

-سأنام.

قالها بوجوم، وتركه وذهب إلى غرفته الصغيرة التي ترتكز في يمين الشقة وأغلق بابها، وماعت عيناه في دموع مقيدة من أغلال المفاهيم المغلوطة التي تقول أن الرجل لا يبكي مهما صفعته الأيام على وجهه، وإن بلغت الرغبة في البكاء مداها لا مانع من الرضوخ، ولكن في الظلام وعلى انفراد كي لا يراها الناس.

***

الفصل الثاني

مال الوقت إلى الظهر، وانتشرت الأقدام في الحواري والشوارع بعدما اطمأن الجميع أن الغارة انتهت، وامتلأت المقاهي بالعاطلين والمعلمين والتجار، ورجال المعلم «حميدو الجن»، وخرج الباعة من جحورهم يسحبون أطفالهم ويتجولون بعرباتهم الخشبية، بعضهم يبيع فوقها اللب والسوداني والذرة المقرمشة، وبعضهم يبيع التين الشوكي ويصل لذروة نشوته حينما تمتلئ يدهُ بالشوك كل يوم، وهناك آخرون يبيعون الخيار والطماطم والخضروات والفواكه، ويلتف حولهم المشترون من وقت لآخر، فيشبهون النمل المجتمع على بقايا الحشرات. اختلفت الأسعار كالعادة منذ بداية الحرب العالمية الثانية، وتفنن التجار في زيادة أسعار الخضروات كل أسبوع، ومع كثرة الغارات في الفترة الأخيرة قلت حركة البيع والشراء، مما دفعهم لتقليل سعر منتجاتهم رغمًا عنهم، ولكن بنسب قليلة، خاصة بعد حملة مقاطعة الشراء التي أمر بها المعلم حميدو الجن، وأذعن لها قاطنو حارة اليهود، والحواري المجاورة، ولم يقدر تاجر على معارضته أو معاتبته... مع اقتراب العصر تعالت أصوات الباعة أكثر، وزادت أقدام المشترين، ودبَّت روح الإسكندرية مِن جديد تخطو ناحية عجلة الحياة الشقية. واختلطت أصوات الباعة بصيحات الأطفال الصغار الذين يلعبون حولهم بالأحجار والأخشاب، والكلاب البلدي، ويتشاجرون، ويتصالحون، ولا يعطون بالاً لأحد. واستيقظ الصياد بعينين حمراوين، وأفرغ مثانته في الحمام، وجلس على كنبة قديمة مزركشة بأزهار باهتة تتوسط صالة بيته، وكان حزينًا على مركبته الدُنجِل التي تركها لمصير ملغز وقفز في المياه، وفكر في الكوابيس التي تزوره في الليل دون رجاء فيها من جوانحه. وبعد ساعة من التفكير سحب سبرتاية من فوق طاولة خشبية بجانبه، وثبت فوقها كنكة القهوة، ووضع فيها ملعقتي بن، وملعقة سكر، وذهب للمطبخ وجلب زجاجة ماء، وصب منها القليل في الكنكة، وأشعل السبرتاية بعود كبريت، وقلب القهوة بتأنٍ وهو منشغل بكوابيسه، ومركبته المفقودة.

-نظفي نفسك قبل ملامستي.

كلمات سحبته من شتات أفكاره، ودفعت أنظاره إلى شباك بيته المطل على منتصف حارة اليهود، فقام مترنحًا وفتحه ورأى المُعلم حميدو الجن بجسده البدين، وطوله المتوسط، وبشرته السوداء، وشاربه الذي قارب على الدخول لفمه، يدلف من أحد العمائر التي تمتلئ بالعاهرات والقوادين، والغضب يعتليه، وجلس في قهوته المواجهة لبيت الصياد، واجتمع معه رجاله بجلابيب بيضاء وسوداء، وانتظروا إشارته للشجار في أي لحظة، فحدثهم بصوت ملأ الحارة وضرب الجدران:

-أوباش.

ضحكوا بصوت عالٍ، وسأله أحد رجاله:

-أترغب يا مُعلم أن أنظفهم بنفسي؟

-دعهم للأجانب لعلهم يتعلمون منهم النظافة.

-الأجانب يعلمونهم الدهاء فقط يا معلم حميدو.

-لا تنسى أن دهاء العاهرات مطلوب يا «شندويلي»، خاصة في الليالي المُظلمة.

انفجر رجاله في الضحك، وصفق حميدو بيديه، وجاء صبي القهوة حسنين البالغ من العمر عشرين عامًا، بجسد بالٍ وأسنان مهشمة، ووضع أمام حميدو الشيشة ونسق فوقها الفحم، وقلبه بتأنٍ ثم انصرف. وأخذ حميدو من جيبه قطعة حشيش، وغرزها في الفحم وسحب أنفاسًا طويلة كي يهدأ. من كانت معه في السرير منذ لحظات يونانية الجنسية، وشقراء، وتمتلك عيونًا خضراء، بالإضافة لخبرة مديدة في عالم الجنس، ليست هي السبب الرئيسي في غضبه، ومنزل «بدرية التبع» أكبر قوادة في الإسكندرية قادر دومًا على إخراجه من أسوأ حالاته النفسية والجسدية، بدرية هي التي ربت الشيطان منذ أن طرد من السماء، ولم تقل له خسئت بعد وقوعه في الخطيئة. اهتمت به وأودعته في منزلها، وكانت توسوس

له بما سيوسوس به إلى المنهمكين في الشهوة، لتجلب أكبر عدد من فتيات الليل، والرجال الباحثين عنهم من كل الأجناس، ويزور بيوتها الكثيرة كل يوم المصري والعربي والإنجليزي، وجنسيات أخرى، ومع مرور السنين زاد مالها ومحبوها وروادها من كل مكان، وانتشرت البيوت التي فتحتها لتجارة البغاء في الإسكندرية مثل الذباب على الحلوى، وحصلت على الرخص القانونية لتسهيل عملها، وبسط طريقها المفروش بالورود الخبيثة، وزادت شهرتها وسطوتها وتأثيرها على المجتمع، ويُقال عنها أن الشيطان حينما بَلغ ضاجعها وأنجب منها جيشًا يساعده في الوسوسة وإعمار بيوت البغاء، لذا لا تقدر فتاة على الهرب من عالمها، ولا يقوى رجل على ليّ ذراعها، وتكثر معارفها من حاشية الملك كل يوم عن السابق، وغضب حميدو لم يكن من الفتاة، بل من غارات وحروب دول العالم الأول، ورغم أن هذه الحروب تسهل له تجارة الأفيون والأسلحة، إلا أنها تقلل من الإتاوات التي يحصل عليها من العمال والتجار، والأغنياء، فالإتاوات تمثل نصف دخله، وما وقع بالأمس والأيام الماضية قلل من أرباحه الشهرية، وجعل مزاجه سيئًا.

صوت كركرة الشيشة أرسى داخل صدره هدوءًا جسيمًا، وأنفاس الدخان جعلته يسبح في بحر من الخيال، بحر مليء بالأسماك الغالية، والفتيات الحسناوات، بحر مليء بمن يحبهم ويحبونه من أفراد عائلته، وخالٍ من الدماء التي أراقها، وملأ بها الحواري في خلافاته التي ترتفع بها النبابيت، وتتهشم العظام، ولا تنقطع صرخات النساء، وتتساقط جثث الرجال، ويهرول الناس خوفًا منها إلى بيوتهم.

-أرني رجولتك.

صوت غليظ انتزع حميدو من بحره العميق، نظر بعيون حمراء لمصدر الصوت فرأى عبدًا أسود عريضًا، بدنه طويل، حليق الرأس، ويمسك نبوتًا أسود سميكًا؛ تحفز رجال حميدو للهجوم عليه، لكنه أجلسهم وسار ناحيته، وربت على خده الأيمن، فظهر فرق الطول بينهما، وقال حميدو

بكل ثقة وصوت مرتفع:

-الجدعنة تقول إن الراجل يكون ابن أصول، ولولا الفتوات كان المجرمين بلعوا الستات.

فتحت الشبابيك وطلت منها النساء وهن يضعن البراقع على وجوههن، وأياديهن على صدورهن. ووقفت الكثير من عربات الحنطور في حارة اليهود وشاهد سائقوها ما يحدث، والكل يتساءل من ذا الذي يقدر على تحدي حميدو؟ وتسمر الصياد في شباكه يتابع بنظرات باهتة، ويتجرع القهوة في كوب زجاجي صغير.

أكمل حميدو كلامه:

-عد لأمك حتى لا أهشم صدرك.

لم يستمع الثاني لكلماته وسخر منه بحركات بذيئة مما استفز حميدو فقفز لفوق وارتفع عن الأرض المليئة بالدبش الأبيض وصاح:

-الله كبير.

ثم ضربه برأسه في صدره، فاستمع الجميع لصوت عظام العبد وهي تتهشم، وسقط قتيلاً على الأرض، انتشرت بعدها زغاريد النساء، وتهليل الرجال، وتبرع اثنان من حاشية حميدو ورفعوا جثة العبد ورموها أمام منزل بدرية التبع، وقال أحدهم بصوت جهوري:

-حميدو الجن ميهابش إلا الجن.

ومسح حميدو جبينه من العرق، وتجهم وجهه لأنه ليس راضيًا بما فعل، وجلس على الكرسي يكركر الشيشة ليهدأ، ولعن الحرب في باله.

***

الفصل الثالث

فجرًا، رسم النهار خطوطه في السماء، وخرج الصياد من منزله بقامته

الطويلة، وعيناه السوداوان، وشعره الناعم الطويل، ووجهه المستدير وبشرته القمحاوية، ومر أمام حميدو الذي ما زال جالسًا يكركر الشيشة بنهم ويمسح شاربه، وعيناه كانت تزداد احمرارًا من قلة النوم، وينتظر بشغف عودة رجاله بالإتاوات التي جمعوها من التجار، والعمال وبيوت المقتدرين في الحواري القريبة المسيطر عليها بقوة رأسه ونبوته، وقد كلفه ذلك شجارات خطيرة، ومناوشات استمرت لسنين بينه وبين الفتوات، أغلب هذه المناوشات انتهت والبعض منها مستمر، ومن وقت للآخر يأتي رجال غرباء ويتشاجرون مع رجاله، وبمجرد نزوله لأرض القتال تنتهي المعركة. ورغم عمره الذي دنا من الخمسين، ومعدته الكبيرة، إلا أنه حينما يتصارع ويضرب برأسه يدمر ما يقع أمامه. وحينما يسمع الناس جملته الشهيرة «الله كبير» يدركون حتمًا وقوع قتيل جديد. وقد أمسك حميدو بعصا الفتونة منذ عشرين عامًا، بعد مذبحة دامية وقعت في حارة اليهود مع فتوة الحارة السابق المعلم النقراشي، حيث كان حميدو ما زال يعمل في محلات السمك التابعة لعائلته، ويمر عليه الفتوة يوميًا ليأخذ إتاوته، إما سمكًا مشوي أو مالاً لا بأس به، فضرمت نيران الغل رأس حميدو، واحتل الكبرياء عقله، وبدد الغرور خوفه من النقراشي، فدبر له مكيدة لكن عمه أرسى عليه الهدوء، وجعله يتراجع في اللحظات الأخيرة، ويخضع لسطوة النقراشي. وفي أحد أيام الصيف الحارة مر النقراشي ليلاً بحنطوره الأسود، وأمر الحوذي بالتوقف أمام محل السمك، فدخل حميدو للحمام محاولاً كظم غيظه، واستمع من الخارج لصوته وهو يسأل عمه قائلاً:

-أين الولد الأسمر؟

ضحك عمه ليداري ما قيل، فخرج حميدو من الحمام مندفعًا بقوة، وضرب حصان الحنطور بسكينة كبيرة في قلبه، صرخ الحصان ورفع جسده لفوق وانقلب النقراشي على الأرض، واتسخ جلبابه الأبيض، ووقع طربوشه الأحمر في الطين، وانتصب والشرارة تتفجر من عينيه الخضراء، وصرخ في حميدو:

-تعالى يا ابن بيوت البغاء.

انقض عليه حميدو وضربه برأسه في صدره فتهشم، وسقط على الأرض، مرت الثواني ثقيلة على الكل حتى سُحب السماء توقفت، والحيوانات الضالة تجمدت، والجميع كتم الأنفاس، وحميدو كان فغر العينين لا يصدق فعلته، زادت الثواني وتحولت لدقائق ولم ينتصب النقراشي. جرى عليه أحد رجاله وقلبه على ظهره ووضع أذنه على صدره، وصرخ:

-مات المعلم.

تجمدت أوصال عائلة حميدو، ووجد عمه وأولاده أن العراك سيكون نجاتهم الوحيدة، فأمسكوا بالسكاكين والنبابيت، وانقض رجال النقراشي عليهم، واستمرت المعركة لمدة ساعة كاملة، تهشمت فيها كل دكاكين ومحلات الحارة، وقُتِل رجال كثيرون من حاشية القتيل، وحميدو الجن كان يضرب هو وأقاربه بكل قوة. وتعالت صرخات النساء والأطفال، واشترك في المعركة رجال حارة اليهود لأنهم سئموا من شر النقراشي الذي لم يَرحَم، ولم يستكن، ولم يعتق امرأة جميلة في الحارة إلا ووطئها، ثم يتحدث عنها، وعما فعله ليلة التقائهم. انتهى القتال وكان النصر حليف حميدو وعائلته ورجال حارته، وتبقى القليل من شياطين القتيل، فطاردهم الجن وأولاد عمه حتى وصلوا للكورنيش وقفزوا في البحر، وأطلق عليهم حميدو النيران من مسدس لوجر، وقتل ثلاثة منهم، وهرب الباقي.

وعاد «الجن» لحارته مُنتصرًا، وملوثًا بدماء الظلمة كما دعاهم أهالي المنطقة. ووضعت جثة النقراشي في جوال، وصعد بالجوال رجل من الحارة فوق منطقة عالية بقلعة قايتباي ليلاً، وألقى به في مياه البحر، انتقامًا لزوجته التي اغتصبها النقراشي، ثم فضحها وزج بها للجنون، فربطت حبلًا سميكًا حول عنقها وانتحرت تاركة أطفالها الصغار ينهشون الأرض جوعًا منذ عام ونصف... وأذعن الناس لحميدو فيما بعد، فلم يظلمهم أبدًا. وكان يتدرب دومًا على كظم غيظه واستخدام قوته في

بسط نفوذه على حارة اليهود والحارات المجاورة، لكنه اصطدم بحائل منعه من السيطرة الكاملة، وهو فتوات الحارات القريبة محبي النقراشي، فدبر لهم المكائد، وكانت الدماء تصل حد السماء، وأخضع ما استطاع إليه سبيلاً تحت كُرسي فتونته، وعاونه على ذلك رجاله الأشداء، ومعاملته الحسنة مع الناس.

***

انتبه حميدو إلى مرور الصياد من أمامه، فقال:

-الإتاوة يا حسام.

-ربك يسهل.

قام من جلسته، وسأله:

-هل توقف الناس عن شراء السمك؟ أم أنك لا تعمل؟

استنشق رائحة كحول تفارق فمه، ورد بتجهم:

-لا يا حميدو لم يتوقف الناس عن أكل السمك، وأنا ما زلت أعمل.

-أتراني امرأة إذًا؟

-المركبة غرقت بالأمس في البحر أثناء الغارة، وما تبقى من قروش ابتعت به دواء لزوجتي.

تأمله بغضب، ولم ينبس الصياد بكلمة، فدس الجن يدَه في ملابسه والتقط قطعة حشيش، ووضعها بفحم الشيشة ثم جلس وقال:

-مُر على سيد الحيتاني وخذ منه مركبة بِنجل جديدة، وأعلمه أنها تخصني، وسدد ثمنها بعد شفاء زوجتك.

- مشكلتي تخصني وأنا قادر على حلها، سلام.

-على راحتك، لا سلام.

***

تحركت عقارب الساعة ببطء شديد على الصياد، وهو يسير بأقدامه ويرتدي قميصًا أصفر، وبنطال قماش أسود، وحذاء أبيض ، ويتجه إلى حلقة السمك بالأنفوشي. الشمس كانت تسير فوقه حتى تصل لذروتها، والشوارع خالية إلا من السكارى الإنجليز أصحاب البشرة البيضاء والعيون الملونة والشعر الأصفر، والعاهرات اللواتي تضاجعن خلال الليل ويحملن نفس الملامح مع اختلاف طول الشعر، كانت تفوح من أفواههن رائحة الكحول، ويدخنّ بشراهة، ويتضاحكن بلا سبب، وملابسهن تكاد تنفجر فوق أجسادهن، ويحاولن طيلة الوقت إبراز عجائزهن. ومع بدايات الليل يكونّ شاغرات من الضيق، وحينما ترسم الشمس خطوط النهار يصبحن شاغرات من الفرحة، تسوقهن أجسادهن بلا وعي حتى يصلن لأماكن مبيتهن سواء بالفنادق أو بالبيوت، ويصعدن السلالم وهن يتراقصن على الأنغام الإنجليزية والأوروبية، وفي الليل يكررن أفعالهن بلا قنوط يحطم قلوبهن، وهكذا تمر عليهن الأيام والشهور والسنون. وكانت الإسكندرية ملاذًا لهن، لأن انفتاحها على دول العالم جعلها فرصة سانحة أمام الكل ليلتهمها، ويتغرغر بها، ويغرز أفكاره ومعتقداته وسمومه، خاصة وأن مع مطلع القرن العشرين كانت أعداد الأجانب تزداد في الإسكندرية بغزارة من الدول المختلفة مثل إيطاليا، وإنجلترا، ويهود أوروبا، والأرمن، واليونانيين، وغيرهم.

اشتدت رائحة يود البحر ودرى أنه يقترب من الكورنيش، وقطرات الندى التي يصنعها الفجر غطت الهواء. دلف من شارع جانبي ولفحه الهواء حينما سار بجانب البحر، نظر على البيوت المصفوفة ناحية اليسار وتأمل براعة بنائها، تنوعت ألوانها بين الأصفر والأبيض والبرتقالي القاتم، وتكونت من ثلاثة وأربعة طوابق كحد أقصى، وارتفعت فيها الشرفات ذات المساحة الواسعة على مسندين ينتهيان بزخارف وأشكال متنوعة، وكانت مداخلها واسعة ونظيفة ومشوبة بنور شحيح. رنا بنظره ناحية البحر الممتلئ بمراكب صيد تنوعت ألوانها بين الأبيض والأسود واللبني

والأخضر والأحمر، والأحجام الصغيرة والكبيرة، بعضها من نوع «الدنجل» ويتحرك بمجدافين، وبعضها يسير بالقماش، أو الشراع، ورغم شتى الألوان التي شاهدها إلا أن رؤيته ما زالت باهتة. جف حلقه وتألمت معدته لقلة ما فيها من طعام، وشعر بانخفاض ضغط الدم، وضم صوت ارتطام الموج بالصخور أذنه، وتوقفت عيناه السوداوان للحظات على زبد البحر، ولاحظ أن الأرض تتموج أسفله كالمراكب فوق المياه. دس يده في جيبه وأخرج قرش صاغ وناوله لرجل طاعن في السن وأصلع يجلس على صخرة كبيرة، قبل الرجل القرش ووضعه فوق جبينه ثم ألقاه في جيب قميصه، وفتح صندوقًا زجاجيًا صغيرًا وأخرج رغيفًا بداخله قطعة جبنة قريش وبيضة بلدي صغيرة، أخذه الصياد وقضمه بأسنانه الصفراء الباهتة وأنهاه، واستمر في سيره. وصل بعد ساعة لحلقة السمك الكبيرة في الأنفوشي، وتحرك ناحية اليمين، فضجت رائحة زفار السمك بأنفه. وشاهد السماكين منقسمين لفئات على شكل حلقات دائرية، ويجهزون المكان لعملية الشراء التي تبدأ من العاشرة صباحًا وتنتهي قبل غروب الشمس. وكان بعض الصيادين يعدون أموالهم التي حصلوا عليها، والسماكون يجادلون معهم في الأسعار والأوزان. فيما بعد بدأ السماكون في وضع لافتات دونوا عليها الأسعار التي غالبت بعضها. منهم كتب سعر الوئة عشرون قرشًا للسمك الدنيس، وغيرهم كتب خمسة وعشرين.

دلف لعمق حلقة السمك، وهو يعرف طريقه إلى أين، وكانت الحلقة تجتمع داخل مبنى كبير وضخم من طابق واحد. تابع بعينيه أنواع الأسماك الكثيرة من الدنيس، والباربوني، والجمبري، والمكرونة، والمياس، والترسة، والبوري، والعضاض، والكابوريا، التي وضعها السماكون فوق طاولات خشبية وزينوها بالثلج الكثير كي لا تتعفن، وتظل لامعة ونظيفة.

-حودة تومكس بنفسه هنا، رضاك علينا يارب، منور يا غالي.

قالها الحفناوي صاحب الخمسين عامًا، المالك لنصف طاولات حلقة السمك، بالإضافة إلى أنه يقوم بتصنيع مراكب الصيد وبيعها بالتقسيط

للصيادين في الإسكندرية، وحماد ورشيد، ومدن القناة.

-تسلم يا معلم.

-عينك تريد الحكي، لكن عقلك يمنعها، قص ما بداخلك حتى لا تحترق يا حسام.

-تركت المركب وقفزت في البحر أثناء الغارة الأخيرة.

أخرج الحفناوي قطعة قماش ومسح عرقه وفمه، وربت على بطنه الكبيرة، ثم تساءل وهو يتجرع كوبًا من الشاي:

-وما دخلي بذلك؟

-أريد مركبًا جديدًا، وسأسدد لك آخر قسط للمركب التي تركتها بالبحر، في أسرع وقت.

وضع كوب الشاي أمامه، وقطعة القماش في جيبه، وقال وعيناه العسليتان تجوب حلقة السمك:

-أنا أسهل على الصيادين صعوبة عملهم، ولكن بمقابل، أتعلم يا حودة؟

مد الحفناوي رأسه وأردف:

-لو بيدي الأمر لبعت هؤلاء الصيادين فوق الأسماك، لكني لن أجد بعدها من يجلب لي الأسماك من ثنايا البحر.

-هذا آخر ما لديك؟

-وحيات من خلق الشمس، وجعل السمك ياكل بعضه خلال السفر لن أستطيع مساعدتك إلا بعد تسديد آخر قسط.

-لا يوجد لك أقساط، سلام.

-سأنتظر منك القسط الأخير، ولا تجعل صلة قرابتك بحميدو الجن تغريك عن منحنيات الطريق الصحيح، ولا تنسى أن الحوادث تقع،

والسيارات تدهس كل يوم أولاد وسيدات، خاصة لو كانت سيدات مرضى مثل زوجتك، الله يشفيها.

هرب الصياد بنظره ناحية الأسماك، وعيناه كادت تجرفها الدموع لولا أنه منعها بأمر ملكي، وأمسك بكوب الشاي وتجرع القليل، وقال للحفناوي:

-الشاي ما زال ساخنًا.

وألقاه في وجهه، وأمسك بحديدة كانت على الأرض وضربه، سقط الحفناوي وصرخ بشدة واستنجد برجاله. وصاح فيه الصياد:

-أخطأت مرتين، عندما ظننت أنني أتوارى وراء حميدو، وحينما ذكرت زوجتي بسوء، والآن تدفع الثمن، وسأريك شياطيني التي أداريها حقنًا للدماء.

جرى الصياد بالحديدة وهشم واجهة دكان الحفناوي، وبعدها ضرب طاولاته الخشبية، وسقط السمك على الأرض واختلط بمجاري الحلقة، وهرب أغلب السماكين، وبقي رجال الحفناوي وتأهبوا بالسكاكين والعصيان. أخرج الصياد إشارة تحدٍ من أنفه، فوثب عليه اثنان، تراجع للخلف وانقض عليهما وضربهما فسقطا يصرخان. ركض ناحيته واحد ثالث بسكينة طويلة وكاد يفصل رأسه عن جسده، لكن الصياد تفاداه وهشم قدمه اليمنى بالحديدة. ثم أمسك بطاولة سمك صغيرة وألقاها على رجل معه مسدس. ظل الحفناوي يشاهد المعركة ويصرخ من الألم ويحفز رجاله للانقضاض على الصياد، لكن الثاني وقف كالأسد يحمي أمامه وخلفه، واستعان بأيام عمله مع الإنجليز، حينما كان يورد لهم كل ما يجنيه من أسماك في البحر ويحصل على مقابل يرضيه، وفي أحيان كثيرة كان يجلس في معسكراتهم، ويتدرب على الشجار والضرب والمعارك وطريقة الدفاع عن النفس، وتعلم استخدام الأسلحة بشكل احترافي، أمضى خمسة عشر عامًا تحت مظلتهم، لكن بعد مرض زوجته حذره شيخ الحارة من التعامل مع الإنجليز لأن أموالهم حرام وتجلب الأمراض واللعنات، فقرر الالتزام بالنصيحة بعد معاناة في التفكير، وقل

دخله أربعة أضعاف ما كان يتحصل عليه من الإنجليز.. انتبه الصياد إلا أنه تبقى رجلان، وضعا أسلحتهما البيضاء على الأرض وهربا، سبهم الحفناوي وبكى كالطفل، وهشم الصياد باقي طاولات السمك التابعة له. وكانت أصوات التكسير عالية وتجزع منها القلوب، والجميع يهرول بعيدًا غير قادر على مواجهة شياطين الصياد، ومن يقفون بالخارج لم يقدروا على الدخول أو النظر من قرب. وبعدما سادت الفوضى خرج منتصرًا، وقميصه ممزق، والعرق يكسوه، ونبضات قلبه سريعة.

***

جلس الصياد فوق صخرة على كورنيش البحر يقطب حواجبه وينصت لصوت الأمواج المختلط بصوت طيور النورس، التي احتل جسدها اللون الأبيض، وزين اللون الفضي أجنحتها. وكانت الطيور تمشط البحر وتلتقط الأسماك الصغيرة بالمنقار ثم تطير لمسافات بعيدة. استوت الشمس واشتد الحر، لكنه لم يعبأ لذلك، خنقه الضجر، وربط في قدمه مرساة صخرية وألقاها في مياه البحر كي يسقط ولا يعود. نفحات الهواء هدأت خاطره قليلاً، وحاول الإنعان للحياة الطبيعية مرة أخرى ويرسي فيها سفينته الممتلئة بالشياطين الهائجة، فهو لا يريد العودة للعمل مع الإنجليز، ولا يتمنى العودة كما كان، تمر عليه الليالي والشهور دون أن يدرك ماهيته. جسده اشتاق للكحوليات ولفتيات الليل، ولمنزل بدرية التبع، ويدفعه بقوة صارخًا فيه هيا، هيا، هيا. نظر للسماء الزرقاء الصافية برجاء وطلب منها الإذن ليوم واحد يعود فيه إلى حياته السابقة. وذهب لمنزل بدرية التبع في محطة الرمل، وكانت الساعة تقترب من الرابعة عصرًا، دلف إلى مدخل بيت مليء بالأعمدة الطويلة مُتآكلة الدهان، وصعد على سلالم صخرية واستنشقت أنفه رائحة عطنة بسبب الرطوبة العالية، وقد هدأ الحر داخل البيت. تسمر أمام باب شقة عريض وله شرّاعة من الزجاج يحميها حديد من الخارج، شهق وزفر، ثم طرق الباب، فتحت له امرأة في العقد الرابع من عمرها، وبيضاء ويتدلى اللحم الزائد من ساعديها، وترتدي ذهبًا كثيرًا في يديها، وكانت عيناها عسليتين، وتحمل من الماضي قصصًا وحكايات

مثيرة. قطبت حاجبيها لما رأته، وتقززت من قميصه الممزق، وقالت بضيق:

-خير يا حسام؟ أنت تعلم أنه لا عمار بيني وبين حميدو.

لم يجبها، فتركته ودلفت للداخل، سار خلفها، وتابعها وهي ترتدي جلبابًا فاتحًا يشهد للجسد الذي يعتليه بقلة الترهل، فيما عدا الساعدين.

-ليس لي علاقة.

قالها والتقط من جيبه سيجارة «ماتوسيان» وأشعلها بالكبريت وناولها، أخذتها وسألته:

-لماذا جئت؟

-الشوق يقتلني، ومنذ مرض زوجتي وابتعادي عن عملي المربح مع الإنجليز وأنا أتدهور جوعًا لكل شيء مضى.

عدلت شعرها الأسود الناعم المليء بالقليل من الخصلات البيضاء، وقالت وهي تجلس وتدعوه للجلوس:

-الإسكندرية أصبحت مؤلمة، هتلر يقصفها ليلاً بمعاونة الطيران الإيطالي، والإنجليز ينهشونها صباحًا، والأحكام العرفية تدهس الضعفاء كحوادث «الترام» كل يوم، والأثرياء لم يعد لهم مكان. حتى إضاءات الشوارع لم تعد تضفي بهجة لأنها شوهت باللون الأزرق.

-حتى تحجب رؤية الطائرات الألمانية للشوارع في الليل.

-اللعنة على الحرب يا حسام.

لم يعقب فأردفت:

-ماتت البهجة البسيطة في حياتنا، حتى المناسبات أصبحت تمر علينا مثل الأيام العادية، لا مثل الأيام السوداء، وكأننا فقدنا الزهو الداخلي ومعنى الاحتفال. ولم يعد أحد يبتاع ملابس جديدة وأطعمة ومسليات قبل العيد، ولا أعتقد أنه لقلة المال، بل لأن النفس فقدت بريقها. نحن

انحدرنا في طريق مُظلم ومكفهر، ورغم ما أجنيه من أموال لكنني فقدت سعادتي مثلما فقدتها الإسكندرية كلها.

-سيأتي يوم تزور فيه الشمس طريقنا المُظلم يا بدرية، لا تُحملي نفسك أكثر مما تحتمله.

-ولكن هذه الشمس لن تعيد ابنتي.

كان يتابع فمها ولسانها وهما يُخرجان الكلمات بتأنٍ، ويتأمل الغمازات المرصوصة على جانبي خديها، وعينيها التي تكتم دموعًا عميقة. قامت من كُرسيها الخشبي، واختفت في حجرة واسعة ومظلمة، وتحرك خلفها، وجاب الشقة ببطء وأبصر ما فيها من رونق، كانت منتصف الأرض مفروشة بكليم أسود، وكليم بني، وحصيرة من البلاستك مزركشة بالأزرق والأبيض، وتزينت الجدران باللون الأبيض الفاتح، حيث أضفى بهجة صغيرة على المكان، وفي الناحية اليمنى تثبت راديو كبير مربع الشكل، وبني اللون، وزره الأيسر مكسور فوق طاولة صغيرة، وبالسقف ارتفعت مروحة من الخشب في منتصفها مصباح كهربائي.

-جبتلك نبيت.

قالتها بدرية فجذبت عيونه إليها، التقط منها الزجاجة، وقبّل يدها في نَهم، ثم جلسا على الكنبة. تجرعا زجاجة النبيذ، ودار عقل بدرية التبع داخل أروقة الليالي المحرمة التي امتنعت عنها منذ سنين، وذلك رغم تهافت الكثير من المهمين عليها، ودخل الصياد في طور من الأحلام المُرهقة. واقترب منها ببطء فدفعته في صدره، اقترب أكثر وتلاصقا ببعضها، ثم انغمسا في غمرة سوداء، وأفرغ عظامه ولحمه، ومخه وعقله، وكاد يفقد مضخات قدراته داخل بدرية التي...، ونزلا إلى بحر مليء بالموانع والحواجز والمحرمات، والصخور التي تعيق حركة السفن والمراكب، وفيما بعد تغير هذا البحر إلى فضاء شاسع خالٍ من الكواكب والنجوم، انتصب فيه القمر شامخًا بلا خوف بعد تحرره من سطوة الشمس، ثم انفجر، وانتثر في الفضاء المظلم، وانطفأت نثراته، واختفت

في سواد الكون الشاسع... فرغ الصياد وتأكد من انتهاء طاقته فقام وارتدى ملابسه، ولثم بدرية من خدها الأيمن، وأثار عطرها جوانحه، فجاهد نفسه، ونزل من باب الشقة نادمًا.

***

الفصل الرابع

جاء الليل بردائه الأسود الكاحل وكسا البحر والمراكب والسفن الراسية، وارتفع الموج جراء ظهور القمر في السماء، وزادت كآبة الأحياء من الناس والحيوانات، والأسماك داخل المياه. كانت بعض شوارع الإسكندرية شبه خالية إلا من القليل بسبب التحذيرات التي وجهتها الحماية المدنية للسكان بسبب الغارات الألمانية الإيطالية، وقد أوجدت هذه الغارات زيادة في معدل الجريمة والشجار بين الناس، وجعلت من المناطق الهادئة منتدى عام للصوص والمجرمين، يجتمعون فيها ويتحرشون بالمارة لفظيًا وبدنيًا بلا داعٍ، وبلا حساب، وبلا رادع قوي. عَمَّ الخوف والفوضى، وأصبح الكثير يخشى ويلات الحرب ونيرانها التي لا تهدأ. ونتيجة للفوضى وقعت مشاجرات خطيرة في مناطق مختلفة بالإسكندرية، كان أخطرها التي وقعت بين زكريا ابن المعلم حميدو الجن وتاجر دمياطي جاء ليورد بعض الأخشاب إلى محلات الأثاث في محطة الرمل. كانت البداية حينما رأى التاجر زوجة زكريا تمر من أمام القهوة التي يجلس فيها، رماها بعينيه وتغزل في عجيزتها وخصرها الرشيق وعباءتها اللف، فخلعت شبشبها وألقته في وجهه وسبته، مما دفعه لضربها وصفعها على وجهها، ثم دفعها فسقطت على الأرض ونزفت من أنفها، حذره الناس من فعلته، فصاح:

-مبقاش إلا النسوان يا بلد النسوان.

اتجه ناحية كرسي القهوة الخشبي الذي كان يجلس عليه وأخذ عِمته البيضاء الناصعة، واستدار ليرحل فوجد يدًا غليظة تهشم أنفه، وقع على الأرض، ومسح دماءه ونظر بفزع فأبصر رجلًا أسمر متوسط الطول وضخمًا في الثلاثينيات من عمره، ويرتدي بنطال الصيد الأسود الواسع

ويمسك في يده سافوريا، وانقض عليه وأمسكه من تلابيبه وأوقفه وصفعه على وجهه عدة مرات. وجم الناس، ونضب تندرهم الدائم وقت المشاجرات؛ لأنهم يعرفون أن تلك المشاجرة ستنتهي بكارثة. ورفع زكريا التاجر بيد واحدة، وقطع يدهُ اليمنى بالسافوريا، سقطت يد التاجر على الأرض وانفجرت الدماء، وصرخ كالأطفال، رماه زكريا فسقط على وجهه وقبل أن يستدير، فصل زكريا رأسه عن جسده. هرب الناس من الحارة، وجاء رجال التاجر بالأسلحة البيضاء وهاجموا زكريا، فتشاجر معهم وساعده رجال والده، وخلال عشرين دقيقة كوم أتباع حميدو الجن، رجال التاجر جثثا فوق بعضها، وبعدها هشموا الدكاكين التي استلمت شحنات الخشب من التاجر الدمياطي، وتأخر أصحابها في الدفاع عن زوجة ابن المعلم. وقبل التاسعة مساءً جمع الرجال الجثث في جوالات من الخيش وحملوها في الحناطير، وهربوا عبر الحواري وأخفوا الجثث بمكان غير معلوم. وجاءت قوات من بلوك النظام الإنجليزي ووجدت الدماء على الأرض، وأكاذيب الناس بأن المشاجرة انتهت، فاغتاظ الضابط الإنجليزي الذي جاء على رأس القوات، واعتقل بعض الرجال عقابًا لسكان المنطقة على إكنان الحقيقة، وبعدها بأسبوع عرف ما حدث، فأصدر أمرًا بحبس زكريا، وسجنه ليتأدب.

وعلى المستوى العالمي، كانت الحرب العالمية الثانية تزداد اشتعالاً كنيران انتشرت في مخزن خشب كبير وسجنت عماله بالداخل وجعلتهم ينتظرون مصيرهم الأسود وهم يرتجفون من الخوف. فمنذ خمسة أشهر بالتحديد في شهر إبريل غزت ألمانيا النرويج والدانمارك لتأمين نفسها من الحصار الذي حاولت إنجلترا فرضه. وبعد شهر احتلت ألمانيا هولندا وبلجيكا وزجت بهما في نيران الحرب، وفي نفس الشهر غزت بريطانيا أيسلندا، وجرينلاند، وجزر فارو لتأمين نفسها. وفي يونيو قامت القوات الألمانية بغزو باريس عاصمة الجمال مما أصاب العالم بصدمة مباغتة، مثل لص سرق أجمل لوحة في العالم وأحرقها، وقد زادت هذه الأحداث من ضغينة العالم وجعلت يد الخير ترتجف، وكادت الأرض تفور ببراكينها لتقتل كل هؤلاء السفاحين لأنهم مزقوا ثيابها وجعلوها عارية، وأجبروها

على فتح فمها لترتوي بدماء الأبرياء.

***

دلف الصياد في صالة منزله الطويلة الضيقة التي ازدانت جدرانها باللون الأبيض الداكن من تكاثر الأتربة، ووصل إلى الحمام ودس جسده أسفل المياه، وتندر على حاله، وشكل الحمام، فكان السقف مليئًا بالتشققات، وتساقط الطلاء الأبيض من جدرانه الأربعة، وأصبح شكلها قبيحًا ولونها أسود. ارتعد من شكل الحمام، وتخيل مهاجمته من ثعابين رفيعة تخرج من هذه الشقوق لتلدغه، وتعود بخفة مثل الساحر. انتهى وأغلق الدّش العتيق الصدئ، وارتدى ملابسه الداخلية البيضاء المشوبة بالأصفر، وسروال قماش أسود، وفانلة حمراء خفيفة، ووقف أمام نصف مرآة تنشب أظافرها في الحائط لتحافظ على ما بقي منها، وهندم شعره وحلق ذقنه وتأمل وجهه المستدير وعينيه السوداء وكتفه العريض. وخرج من الحمام إلى غرفته، وجلس على ركبتيه وسحب من أسفل السرير صندوقًا خشبيًا، فتحه وأخذ بوصلة مستديرة ذهبية اللون، ومسدس «لوجر» وطلقات نارية، وخنجرًا، ودسهم في جيبه السري، وأغلقه بسوستة حديد. ودلف إلى المطبخ فوجد زوجته تعد له بيضًا بالجبن فوق «بابور» جاز، وترتدي جلبابًا أصفر يُظهر جسدها الذي فقد وزنه الزائد. تابع بعينيه شعرها الكستنائي الطويل الواصل حد ظهرها، وكانت فيه خصلات بيضاء تدل على وصولها للعقد الثالث، وكانت الهالات السوداء أسفل عينيها تزداد يومًا بعد يوم، دق قلبه وتذكر وقته مع بدرية التبع، واستدركها قائلًا:

-حبيبتي أريدك، ولا داعي للطعام، الحرب قتلت شهيتي.

تبسم وتركها، سارت وراءه ودخلا إلى غرفة نومهما، وجلسا على السرير، فرّ بعينيه إلى بلاط الغرفة وغمرت عينيه دموع جمة، لوت فمها ووضعت يدها فوق رأسه لتجعله ينظر لها، احتكت عيونهما ببعض وفتح فمه ليتكلم، فاشتمت رائحة كحول وأدركت ما وقع، فقالت بصوت هادئ ومتقطع:

-مالَك؟

-غُلبت.

مررت يدها على خدِّه الخشن، وسألته بلطف:

-بدرية التبع؟

فشل في الإنكار لأنها تفهمه سريعًا رغم مرضها الذي لم يجد له الأطباء علاجًا سوى أدوية غالية الثمن تبطئ توغله فقط، ولا تقضي على جذوره العميقة.

-أنا السبب.

قالتها بضيق وانفجرت عيونها في البكاء مثل سَدٌ انهار فجأة، فضمها لصدره الدافئ، وهدأها:

-الحرب السبب، أنتِ وضعتِ داخلي بذرة الصبر بعد أن كنت أعمل مع الإنجليز وأتقاضى أموالاً مُحرمة، وأتشاجر مع الجميع، أنتِ جعلتِ الهدوء والخوف يسكنان قلبي بعدما أنجبنا مرعي، وأيقنت تمامًا مدى دوري في الحفاظ عليكما. ليس لكِ دخل فيما أعانيه من قلة مال، وليس لكِ دخل في الحرب، أنا فقط أشعر بالعجز التام أمام طلباتكم البسيطة في الأكل والملابس، وحيلي باتت جافة وتنزوي في أرض جرداء.

-أنا سعيدة معك، ولا يهمني أن نأكل ثلاثة مرات في اليوم يكفينا مرتان، ولا تهمني الثياب الجديدة، يكفي أنك ابتعدت عن كل شيء سيئ من أجلي.

لم ينبس بكلمة، وأردفت:

-لا تحزن أرجوك يكفي وجودنا معًا.

كان يريد أن يصرخ ويقول: «حتى هذا لم يعد أكيد»، فالمرض يتوحش عليها، ويسلب جسدها رويدًا رويدًا، بلا رادع يصطدم به ويوقفه.

أرادت مواساته أكثر فاسترسلت:

-إن كنت تحبنا فعلاً عليك بالعمل والصبر، ولا تنسَ أنك قدوة لمرعي، وأرجوك لا تجعل الهم يهشم قلبك وعقلك، فالحياة تريد القوي العنيد، هذه كلماتك لي، أنسيتها؟

-لم أنسها.

-أحبك يا حسام.

قالتها بحنين فقبل رأسها معبرًا عن اشتياقه لها، وأمسك يديها برفق، وداعب خصلات شعرها، ووعدها بأنه سيتحلى بالصبر لأكبر فترة ممكنة، ثم نهض وتطلع بجوهرتيه على الطاولة الخشبية الصغيرة الموضوعة يمين السرير، واطمأن قلبه لأن أدوية زوجته موجودة. تبسم في وجهها وتبسمت له، وذهب للغرفة الثانية ليطمئن على مرعي، فتح بابها الخشبي العتيق بهدوء فأصدر صوتًا مزعجًا من مفصلاته، وقبل رأس ابنه النائم، وربت فوق شعره، وخرج من الغرفة، فنادته زوجته:

-خذ الأكل.

ضحك وأخذ منها الطعام، ونزل للشارع يجر بساعده شباك الصيد، ويضرب حصى الطريق بقدمه.

***

عند اقتراب الوقت من منتصف الليل كان الصياد واقفًا أمام بوابة دخول الميناء الشرقي الواسعة ويناول موظف الميناء ذي الجسد البالي والأسنان الصفراء تصاريح الصيد، فنظر فيها بعينين تغالب النوم وأعطاه دفتر الحضور والغياب، دون الصياد فيه اليوم والتاريخ، وناوله دفترًا ثانيًا وقع الموظف عليه، ولم يسأله الموظف عن عدم تسجيله للانصراف منذ ثلاثة أيام وقت وقوع الغارة. مشى فوق ممر خشبي داخل البحر ووجد «سيد الحيتاني» يقف بجسده البدين في انتظاره ويبتسم رغمًا عنه بفمه الواسع، وكان الصياد قد أخبر حميدو بحاجته للمركب بعدما عاد من منزل

بدرية التبع، واعتذر عن ما بدر منه... سأل الحيتاني:

-فلوس المركب؟

-المعلم حميدو تكفل بها، وسيقسم ثمنها على أقساط تدفعها كل شهر.

-طيب.

-حاجة ثانية؟

هز رأسه بالنفي، تركه الحيتاني وهو يتابعه بنظرات من الشماتة بسبب الحالة التي وصل إليها، بعدما كان ملكًا متوجًا مع الإنجليز، ولا يقدر شخص على محادثته، أو الاقتراب منه.

***

في البحر مواجهة لقلعة قايتباي انتصب بعضلاته البارزة وأشعل أربعة كلوبات وقسمهم على حواف مركبته الجديدة التي كانت تتموج. ثم أمسك بالشبكة ووضع طرفها على منكبه الأيمن، ولف خيطها حول ساعده ورماها بقوة فطارت بشكل دائري، وسقطت بالمياه تبحث عن سبيل يسهل للصياد حياته البسيطة، لحظات وجذب الحبل بسرعة فخرجت الشبكة فارغة. كرر نفس العملية مرات عديدة لكن أبى البحر مده بالسمك، حتى السماء كانت غير راضية عنه، فسمحت للطائرات الألمانية والإيطالية بالهجوم على شواطئ الإسكندرية ومناطقها المزدحمة بالسكان، وضجت السماء بصوت الطائرات الحربية، فنظر الصياد برعب لفوق، وبدأ القصف. لم تكتفِ الطائرات بقصف اليابس فقط، بل قامت برمي قذائفها على البحر والسفن والمراكب، وكانت ترتفع المياه بشدة لفوق بمجرد وقوع القذائف فيها. جدف بسرعة وقوة ليبتعد عن شياطين السماء لكنه صعق لأنه نسي قوانين الحماية المدنية التي تحتم طلاء الكلوبات باللون الأزرق، فرمى الكلوبات، وجدف ليبتعد، واضطرمت النيران حوله وزاد لهيبها اشتعالاً، وانفجرت سفن ضخمة قريبة منه، وأوشك قلبه على مفارقته، وانحصر تفكيره بين أزمتين، رغبته في عدم ترك المركبة الجديدة، ورغبته بالقفز

في الماء للنجاة بحياته، لم يستمر في هذه الحيرة طويلاً وقفز بالماء، اقشعر بدنه عندما غاص في المياه، وسبح بصعوبة بين بقايا المراكب والسفن التي تتدلى منها النيران، وزاد القصف وظل الصياد يسبح مبتعدًا عن الشاطئ وقلعة قايتباي، ودخل للعمق مبتعدًا عن لهيب الحرائق، ووصل لجزء مُظلم في البحر، التفت ونظر خلفه وشاهد البيوت والشاطئ وكل شيء يحترق ويطير منه الدخان للسماء، وكان الشاطئ أشبه بخط ذهبي مستقيم بسبب النيران، ورغم المسافة الكبيرة بينه وبين اليابس إلا أن أصوات الناس وهي تصرخ وصلت إليه، ورائحة الحرائق اختلطت مع رائحة يود البحر فألهبت أنفه.

-أنت، تعالى.

صوت انتزعه من هذا المشهد الفج، وكان مصدره سفينة كبيرة عليها شخص يرتدي ملابس الصيد وخلفه مجموعة من الرجال، ومد ذلك الرجل يدَه إلى الصياد، فناوله الصياد ساعده وصعد على سلم حديد، وتحركت السفينة مبتعدة عن الشاطئ... جلس الصياد على سطح السفينة في حالة صمت جنوني يتفحص مصير أسرته سجينة القصف العشوائي العاسف، ومركبته الجديدة التي خسرها، والمستقبل الأسود، وظل يسأل نفسه هل زيارة بدرية التبع كانت لعنة غير لعنة العمل مع الإنجليز؟... بعد ساعتين ابتعدت السفينة كثيرًا فهدأ صوت القصف واختفى الشاطئ بنيرانه الجسيمة وصراخ الناس، وجلس بجانب الصياد شخص يرتدي قبعة مُستديرة وقميصًا وبنطالًا ويدخن سيجارة بشراهة، فنعته شخص ثاني بالغباء، وقال:

-ألقِ بسيجارتك في الماء كي لا ترانا الطائرات.

ضحك في سخرية ولم ينفذ ما سمعه. واهتزت المياه فجأة، وانتفض الصياد ورأى الظلام يلتهم البحر، واستمع لصوت طائرة تُحلق فوق السفينة، فقفز في المياه، وانفجرت السفينة جراء قصف الطائرة لها ومات طاقمها. جنح إلى مواصلة السباحة، وابتعد عن السفينة التي تحولت

لرماد، وكانت الرياح قوية والأمواج عالية، وصوت البحر مخيف خاصة مع سيطرة الظلام على كل شيء، ولولا ضوء القمر الذي رسم له خيطًا يعاونه، لغرق. لم يعبأ بشيء سوى السباحة وبسرعة كبيرة، لا يعلم أين يتجه؟ لكنه يريد أن يعود للشاطئ مرة أخرى حتى ولو مات بعد وصوله، فيكفيه أن يُدفن في اليابسة، بدلاً من نفوق جثته بالبحر لتأكلها الأسماك.

***

لا يدري منذ متى وهو يسبح؟، ولولا قوة ساعديه والتدريبات التي تمرن عليها أثناء عمله مع الإنجليز في البحر قبل انطلاق الحرب العالمية الثانية، لغرق. دقات قلبه تزداد، طاقته أوشكت على النفاد، معدته تصرخ وتطلب الطعام، والظلام يَقل تدريجيًا، وانبثق ضوء شحيح من الشمس، وبعد ساعة داعبت الشمس السماء في ليونة وكأنها تخرج من البحر الذي أضمرها ليلاً ليظهر القمر، وقلت كفاءة أذنه بسبب صوت اصطدام يديه بالماء. وبعد وقت زادت الحرارة، واحتلت الشمس مكانها المعتاد بعد أن سلمها الظلام مفاتيح الكون.

«طاقتي انتهت آن لي الاستسلام، سأموت من فرط الجهد، سأوقف ساعديَ عن الحركة».

رددها الصياد داخله، واتخذ قراره، فأوقف يديه عن الحركة، وقبل غرقه في عمق البحر، لمح مجموعة صخور أمامه تشبه بُساطًا مربعًا، فتحمس وعاد مرة أخرى للسباحة حتى أدركها. كانت صخوزا ذات عدد كبير، وتتميز بلونين نصفها الشفلي أسود، والنصف العلوي فضي، وأحجامها تنوعت بين الصغيرة والمتوسطة والكبيرة. صعد على سطحها بصعوبة من الماء، ونام على ظهره بقلب مُلتاع وجسد فقد الإحساس. نام لمدة لم يعلمها، واستيقظ لأن أشعة الشمس صفعت وجهه بعنف، فتح عينيه السوداوين ووجد الرؤية ضبابية، مسح عينيه فحرقته لأن أصابعه مليئة بملح البحر الجاف، والظمأ والجوع وأشعة الشمس يعذبانه بسوط من الجلد الثقيل. اقترب من حافة الصخور ونظر للبحر، فكان فاتحًا يتميز

باللون الأزرق الخفيف، وترى من سطحه الرمال والصخور والشعب المرجانية، والأسماك بدقة شديدة كأنك تسبح داخله. استند على جذعه وشعر بعظامه تصرخ من فرط الإرهاق، وقرر أن ينزل للبحر، أخذ نفسًا طويلًا وقفز، وأحدث صوت ارتطام قوي. غاص للعمق وهو فغر العينين ويعاني من الإحساس بالحرق من أملاح البحر، واستمر ووصل للقاع، هدأ حركته وزرع القاع بعينيه بحثًا عن غايته، ومنقذته، ومُجددة طاقته، حتى وجدها تسير بهدوء ورياء ولا تخشى الفواجع. كانت سمكة «مياس» لها عين سوداء، وجسم فضي يتميز سطحه من الذيل لبداية فمها باللون الذهبي الخفيف، ثبت في مكانه، وأخرج من جيبه السري الخنجر، وتأمل السمكة وهي تسير بعيدة عنه بخطوات، اقتربت، فانتظر، اقتربت أكثر، فأخذ وضعيته المناسبة، وحينما جاءت الفرصة انقض عليها بالخنجر لكنها هربت. صعد إلى السطح ليلتقط أنفاسه، وسب السمكة بقنوط. قرصه الجوع أكثر من العطش، فالتقط نفسًا عميق ونزل للقاع مرة أخرى، وانتظر بالخنجر فريسته، مرت حوله أسماك ملونة صغيرة تتنوع بين البرتقالي والأصفر والأزرق، وبعضهم جمع بين لونين. ولمح سمكة «مياس» تسير ناحيته، وحجمها كان كبيرًا مما يسهل عليه اصطيادها، استعد ووقف ثابتًا وبمجرد مرورها ضربها بالخنجر، خرجت منها دماء قليلة لوثت المياه، وصعد بها إلى الصخور، ورماها ليرتاح من الإرهاق. بعد وقت استرد جزءًا من طاقته وأمسك بالسمكة، كانت بطول ذراع إنسان بالغ، سحب منها الخنجر، ثم جلس القرفصاء، وفتح معدتها وأخرج أمعاءها المليئة بأسماك صغيرة، وفصل رأسها عن جسدها، وداعب صوت تنظيفها معدته، وتوجه للبحر وغسلها جيدًا، وقطعها بالخنجر لأجزاء صغيرة، وأكلها بنهم رغم ما استنشقه من زفار، وذلك لأن الجوع ورائحة يود البحر وصوت الأمواج زجوا به ليلتهمها. بعدما قضم آخر قطعة من السمكة، ألقى بعظامها في البحر، ودس جسده داخل صخرة ضخمة ومجوفة للداخل، لتظلل عليه من ضوء الشمس، وتأمل الصخور وحاول معرفة أين هو الآن؟ دس يديه في جيبه السري وفتح السوستة وأمسك بالبوصلة، فوجدها مليئة بالمياه، ومؤشرها لا يتحرك، وضعها بجيبه، وسار لحافة الصخور ومدّ نظره للأمام،

ووضع يديه فوق عينيه ليحجب ضوء الشمس ويستطيع الرؤية، حاول الوصول لأي شيء، لكن البحر ألجمه وحاوطه من جميع الاتجاهات. جلس محبطًا، يائس، تائه، تضربه ظنون الموت، وسواد القدر، ويفكر مليًا في الزيارة الملعونة لبيت بدرية التبع التي تسببت في كل ذلك، وقال في نفسه: «هل أحاسب على خطيئة زنا صغيرة كهذه؟ ولا يُحاسَب هتلر على ضحايا حربه، والقتلى الذين غمروا الشوارع؟ وسقوط باريس ودهسها من الأقدام النازية؟ إذًا لماذا لا يحاسب هتلر أيضًا ويضيع في بحر واسع لا يعلم بدايته من نهايته؟ لماذا لا يحاسب الطيارون الألمان والإيطاليين على أفعالهم، والجثث التي يخلفونها كل يوم بلا فؤاد يحنو ولو للحظة؟ لماذا لا يحاسب الفقراء على فقرهم؟ والجهلاء على جهلهم؟ وسفاحو الحروب على ضحاياهم من الجنود الشباب، والأعداء في الجهات المُعادية؟ والفتوات القادرون على إشعال حروب الحواري التي تنتهي دومًا بالكوارث؟ بعيدًا عن كل ذلك لماذا أنا بالنهاية هنا محاط بالبحر بلا طعام ولا مأوى؟ وما الذنب الذي ارتكبته ليُزَجّ بي إلى حافة الموت؟ حتى من يعيشون في ورع لم ترحمهم نيران الطائرات وزنادقة الحرب، وغليان دول العالم التي سيطر الشيطان على عقلها، وجعل شعوبها ترغب في السيطرة على الكون بلا رادع أو مُحاسب، لماذا زُرت بيت بدرية من الأساس؟»... أوقف عقله من الأسئلة لأنه شعر بألم شديد يتغلغل في رأسه.

مال الوقت إلى الظهر وزادت حدة الحرارة، وعَمِدَت الشمس فوق الصخرة المجوفة، وتفصد جسده الكثير من العرق، وانتصب وسار على الصخور وتألم من تلامس قدمه بها، وبحث عن حذائه فلم يجده، ولما اقترب من حافة الصخور تذكر قصة سمعها في بدايات عقده الثاني ولم ينم بسببها لأيام، لما حكى جده أنه في أحد فصول الشتاء كان يصطاد مع مجموعة من الصيادين الآخرين، واشتد عليهم البحر وهاج فجأة، فزادت الأمواج وارتفعت، وتشاجرت السحب مع بعضها وكان صوتها شبيهًا بالانفجارات، وأمطرت فوق رؤوسهم أنهارًا غزيرة. ولزم الأمر الاحتماء بصخور البحر حتى لا تتهشم المراكب، ومن حسن حظهم أنها كانت

موجودة بجانبهم، فاقتربوا بمراكبهم وصعدوا عليها وربطوا مراكبهم في الصخور بحبال سميكة. وفيما هم جالسون وجدوا صخرة ضخمة ومجوفة للداخل بها رجل عجوز لا يرتدي ملابس وذقنه تغطي معدته وعضوه الذكري وصولاً لقدمه، وشعره طويل للغاية ويمتاز باللون الأبيض مثل ذقنه، ووجهه مستدير وأبيض براق، وداخل تجويف الصخرة كانت معهُ معزة كبيرة وعصا يستند عليها، تراجع الصيادون للوراء، وكان أشجعهم جد الصياد فسأله:

-مَن أنت؟

قطب الرجل حاجبيه ورد بصوت جهوري:

-اسمي فارس، أعيش فوق هذه الصخور منذ عشرة أعوام.

-كيف؟

-بمعاونة خالقي، وخالق البحر وسمكه، والسماء وطيورها، واليابس والدابين عليه.

ودار بينهم حوار طويل علم منه الصيادون في النهاية أنه ترك الحياة ويعيش هنا وحده مع معزته وعصاه، ولا يعرف شيئًا عن الأديان، لكنه يصلي دائمًا بجملة واحدة وهي «خشبتي ومعزتي ويا رب قبلي صلاتي»، وأكد لهم أنه يجد الأسماك تندفع ناحيته من البحر بمجرد قولها. لم يصدقه الصيادون، وشرعوا في الحديث معه عن الله وخلقه للكون وأسس الصلاة، وقد هدأ البحر خلال ذلك، وتصالحت شحب السماء، فتحرك الصيادون ودعوه ليذهب معهم، فرفض قائلاً:

-خشبتي ومعزتي ويا رب قبلي صلاتي.

أيقنوا أنه مجذوب، وتركوه، وبعدما ابتعدوا عنه بقليل، وجدوه ينادي عليهم فالتفتوا ليروا مشهدًا غريبًا، كان الرجل يسير على الماء كأنها أرض صلبة، أو طريق بسيط مُمهد للسير عليه، وحدثهم قائلاً:

-يا إخوانا لقد نسيت طريقة الصلاة اللي قلتم لي عليها.

فقال له جد الصياد:

-كن على ما أنت عليه، لأنك طاهر.

ثم تركوه وذهبوا، وانتشرت هذه القصة في جميع أركان الإسكندرية، ولم تخلُ قهوة أو تجمع صيادين أو حلقة سمك إلا بالحديث عنها، حتى إن بعض الصحف نشرتها في صفحاتها الأولى على لسان جد الصياد.

***

فكر طويلاً بعد انتهاء عقله من مراجعة تفاصيل الحكاية وشعوره بالخوف الكبير وقتها، وأيقن أنه لو ظل هنا سيموت من قلة المياه ولن يصبح مثل هذا الرجل، ولابد وأن يسبح حتى يجد مفرًا أو يموت، لذا اتخذ قراره النهائي ونزل إلى الماء وسبح... انتهى النهار وحل الليل وما زال يسبح، وحينما كانت تنتهي طاقته يهتدي إلى أي صخرة يجدها في طريقه لبعض من الوقت ثم يعود ويستمر في طريقه المجهول، وزاد ظلام البحر البهيم من خوفه، لكنه ثابر. وكانت كل ثانية تمر عليه ببطء لأنه يبذل جهدًا كبيرًا، ومعدته خاوية. وأثناء سبحاته ليلاً رأى على ضوء القمر قرشًا يقترب من بعيد وخلفه مجموعة أخرى تتبعه بسرعة كبيرة، فسبحَ وصعد فوق صخرة ضخمة وكاد القرش يقضم قدمه اليمنى فرفعها، وكان الوقت قد اقترب من الشروق، فقرر أن يريح بدنه ويهدأ... سبح ليوم ثانٍ في البحر وهو يخشى أن يصطدم بقرش يلتهمه، وكرر خلال ذلك اليوم نفس أفعاله في اليوم السابق، يصطاد سمكة ويأكلها، ثم يرتاح فوق الصخور ويعود بعدها للمياه، ولكن هذا اليوم الوضع اختلف، فلم يعد هناك صخور يستريح عليها، وكان الوقت قد اقترب من الليل، وتدهورت فُرص النجاة، وتغلغل فيه اليأس وطعن طاقته الجسدية، فقرر الاستمرار في السباحة حتى تتوقف عضلاته عن الحركة، وراح يجاهد طويلاً سقوط ساعديه، وبعد وقت قصير وجد عمق المياه يقل أسفله وقاع البحر يقترب، تحمس قليلاً واستمر ولاحظ أن القاع يقترب أكثر، فدرى أنه يدنو

من جزيرة قريبة أمامه مباشرة على بعد صغير، وقال في نفسه أن السماء ألقت له بفرصة من ذهب ولا بد وأن يقتنصها، لذا جاهد، وضرب بيديه الماء في حماس، وبلغ شاطئ الجزيرة، وألقى بجسده فوق الرمال وهو يلهث كالكلاب، ولما رفع عينيه إلى فوق اصطدمت بسور ضخم، وطويل للغاية، ويصل حد السماء، ولم يقدر على المقاومة، ففقد وعيّه واندثرت رأسه في الرمال الناعمة.

***

الفصل الخامس

-افتحوا بوابة السور فالموت أهون من السّجن.

-اتركونا نعيش أحرارًا بلا حديد يقيدنا وبلا سور يسجنا.

-العنف أو فتح البوابات لا بديل.

قام الصياد مُستندًا بجذعه على الرمال، وداعبته شمس الصباح الرقيقة، والهواء المحمل برائحة اليود، وصوت الأمواج حينما تدنو ببطء من الشاطئ، وجالت عيناه حوله فرأى الفراغ يكتنفه، والرمال منثورة عليها أعشاب خضراء بالية، والكثير من جوز الهند المحطم والسليم، فجمع وعيه، وألقى بشتات أفكاره في البحر، وحاول التركيز على ما سمعه منذ لحظات قليلة. التف وأعطى ظهره للبحر، واصطدم بسور عالٍ من الحجارة المكتظة داخل بعضها، ولونه رمادي قاتم، وفي منتصفه بوابة حديد ضخمة. «ما هذا السور الكبير»؟ سؤال جال في عقله منذ أن وصل لهذه الجزيرة، وما جعل الأمر أكثر غرابة الأصوات العالية التي تخرج من وراء السور، وازديادها مع الوقت، ثم انطلقت فجأة صرخات مدوية، واختلط صوت الصرخات المدوية بأصوات أطفال، ورجال، وأحصنة، فوضع يديه على أذنه وتراجع للخلف، ونظر للسماء وبحث عن الغارات أو الطائرات الألمانية، ولم يجدها، وشعر بأن هناك حربًا شرسة داخل هذه الأسوار يهتز لها الكون، وكادت تُسقط الكواكب.

-افتحوا البوابة وإلا جعلنا العنف كالهواء.

رددت هذه الجملة مجموعة كبيرة من الأصوات، فتشجع الصياد لفهم ما يقع، وكانت دافعًا ليقترب من السور، انغمست قدمه في الرمال وأصيب بالقشعريرة، وسار ناحية يمين السور ولم ينبس بكلمة واحدة، واستمع لصوت احتكاك حديد ببعضه، وانفتحت بوابة السور الضخمة على مصراعيها، وهرول منها مجموعة رجال يركبون أحصنة بيضاء لها شعر طويل ومُضفَّر، ويرتدون سراويل قصيرة من القماش في الجزء السفلي، أما العلوي فكانوا عراة، وأثداؤهم مشدودة، وسواعدهم مزروعة بالعضلات، ومعهم سيوف طويلة يضعونها في أحزمة من الجلد تلتف حول أجسادهم. شاهدهم الصياد ووقف كمسمار ينتظر المطرقة لتدخله في مكانه الدائم. نظروا إليه بغضب، فتراجع إلى البحر، فحاوطوه بالأحصنة في شكل دائري، كالبحر المحيط بتلك الجزيرة، وأمسكوا به وساقوه للداخل مثل شاة تقدم للإله، ولفوا الحديد حول جذعه وساعديه، وسطر الوجوم على وجهه خطوطًا مكروبة، وحدث نفسه: «هل وقعتُ أسيرًا في مستعمرة إنجليزية أو ألمانية؟ ولكن هؤلاء الرجال لا يرتدون ملابس الجيش الألماني أو الإنجليزي، ولا يتسلحون بالبنادق، بل بسيوف طويلة تلمع في ضوء الشمس؟». أغلقت بوابة السور فنظر خلفه وتمنى لو كانت التهمته القروش، وفي الداخل كانت الأرض مليئة بخشب وحديد ودماء، وكان هناك أشخاص كثيرون يهربون ويصرخون ويلاحقهم رجال أشداء فوق أحصنة يضربونهم بعصيان خشبية ثقيلة، وتلاصقت بأرض الجزيرة أشجار يافعة سقطت وتقطعت، أمسك سكان الجزيرة بفروعها وحاولوا صد طغيان الرجال الأشداء. وسار الصياد مقهوزًا ومدفوعًا من الخلف على طريق واسع يتكون من حصى صغيرة لامعة، ويحدُه ناحية اليمين نهر طويل وعميق، يمكن رؤية ناحيته المقابلة بسلاسة لقلة عرضه، ومياهه كانت داكنة ومليئة بالجثث، وبجانب النهر ارتفعت لمسافة الخمسة الأمتار أبراج خشبية يقف فيها رجال أشداء ويقبضون بأياديهم على أقواس وسهام ويوجهونها للأسفل. وفي منتصف الطريق اختفى سكان الجزيرة، ودخلوا إلى بيوت مصنوعة من الخشب، ومكونة من طابق

واحد، ومطلية باللون الأبيض، وترتفع عن الأرض بمسافة بسيطة، وتنتهي بسقف هرمي، وكان لكل بيت نافذة واحدة مربعة الشكل وينسدل عليها من الداخل ستارة بيضاء، وأغلق سكان الجزيرة أبوابهم بخوف، ووضعوا أشياءً ثقيلة خلف الأبواب لمنع الرجال الأشداء من الدخول إليهم، وانتبه الصياد لذلك، واستنكر ما يراه، خاصة لأنه رأى رجلًا ضخمًا يجذب امرأة من شعرها ويصيح فيها: لا خروج خارج الأسوار. وفي ناحية اليسار سقط شاب ملابسه مقطعة وملوثة بالدماء فركض ناحيته ثلاثة رجال بأحصنتهم ولكزوه في صدره ورأسه، فمات، وانفجرت أصوات فقيرة من خلف الصياد، قالت بغضب:

- اتركونا لنرى بهاء ما خلف السور.

لم تبلَغ هذه الجملة مداها حتى ركض بعض الرجال باتجاه مصدرها وانهالوا ضربًا على قائليها، وأراد الصياد الإفلات مِن قبضة مَن يمسكونه فضربته عصا خشبية على رأسه وجسدِه، فقال بنبرة حادة:

-مَن أنت أيها الحقير لتضربني، وتسوقني كالخراف؟

-لا تتحدث وإلا قطعت لسانك الحقير.

قالها رجل أسود البشرة، حليق الشعر والذقن، وغليظ الصوت، فتعجب الصياد، واستفسر بعقله كيف يكون هذا المكان معسكرًا أو مستعمرة ومن فيها يتحدثون العربية؟؟؟... فقد الصياد قدرته على الفهم والاستيعاب، وكان بمثابة سمكة تاهت أثناء سفرها من بحر لآخر، ثم وجدت نفسها في حيز سطحه مليء بالصيادين وشباكهم العريضة، وقاعه استحوذت عليه أسماك القرش الضخمة. ظل حائرًا ضائعًا والرجال يدفعونه بقوة. ولما زادت مساحة الطريق أكثر اختفت البيوت الخشبية، وفي ناحية اليسار كان هناك مجموعة من السكان يجرون ويحملون أطفالهم وخلفهم حلقة من الرجال يضربونهم ويقولون لهم شتائم غريبة لم يسمعها الصياد قط: «لستم أبناء الجد الأعظم... الجد الأعظم بريء منكم... الملك يلعنكم... السماء سترسل عليكم روح الجد الأعظم ليقتلكم ويلتهم دماء أولادكم»...

والأغرب من هذه الشتائم أن السكان كانوا يبكون بشدة ويصرخون وعيونهم بها رعب جسيم:

-الجد الأعظم يحبنا.. هو خلقنا وليس نحن.. نحن عبيده المخلصون.

سألهم بصوت خفيض، وباطن قدمه الحافي يحتك بحصى الطريق، ويصيبه بالألم:

-هل أنتم إنجليز؟ ألمان؟ جنسكم إيه؟ قرود؟

نهره صاحب الصوت الغليظ باستعجاب:

-إنقليز؟ وألمن؟ تتندر علينا أيها الحقير ولا تعرف مَن نحن؟

-نطقك للكلمتين يعني أنكم كائنات من خارج الكوكب ولا تعرفون شيئًا عن الحرب العالمية.

تعجب رجل منهم كانت له بشرة بيضاء وعين خضراء قائلاً:

-أي حرب تقصد؟

لم يجبه وتساءل بداخله من هؤلاء المخابيل؟... ظلوا يسيرون وقدمه تحتك بالحصى والرمال والطين، واقتربوا من مبنى من الحجارة له طابق ولونه أصفر داكن، وفي مقدمته عمود خشب طويل وسميك ينتهي بلافتة بيضاء مكتوب عليها بالأسود «سجن الجزيرة»، وأشار صاحب الصوت الغليظ بيديه لرجل كان يقف في برج خشبي بجانب العمود، فحياه بحركة غريبة ثم جذب حبلاً سميك فانفتحت بوابة المَبنى، ودفعوا الصياد للداخل ونزلوا من الأحصنة، وكانت أرضية السجن صخرية، والسقف أسود ومليء بالحصى والزلط، والجدران ينغمس فيها عشرون قطعة من الخشب فوقها أوعية تُستخدم لإنارة السجن، وكان المكان مقسم إلى ثلاثين حجرة صغيرة مجوفة للداخل على شكل نصف دائرة، ولكل حجرة باب من أعمدة الحديد ونافذة مربعة وصغيرة ترتفع لفوق وعليها حديد يمنع النفاذ منها. وضعوه في حجرة منهم بها مياه ذات رائحة عفنة،

وأغلقوا عليه بقفل حديد عتيق. ورموه بنظرات احتقار، وشماتة، وذهبوا ناحية باقي الحجرات وتمموا على المساجين الذين نحلت النحافة أجسادهم، وكانوا حليقي الشعر والذقن، ويرتدون ملابس مهترئة من القماش، والوهن والوسن ينبثقان من عيونهم. وبعد مدة قليلة جلب الرجال الأشداء مساجين جُددًا ووزعوهم على الحجرات بالتساوي، وصاح رجل قصير يرتدي ثوبًا قرمزيًا يهابه مَن حوله:

-الحجرات شاغرة، قسموا الباقي على الحجرات السُفلية للسجن.

وخرج من بوابة السجن... في الحجرة عرف الصياد أن حياته انتهت، وجلس على الأرض الصخرية المليئة بالمياه وابتلت ملابسه، وكان جوفه يَلِح، يتألم، ويطلب المياه، وأمام إلحاحه الشديد كطفل صغير لم يتحمل، فمرر يده على الماء واغترف منه وذاقه بإصبعه، فكان مالحًا وكريهًا، لكن لا خيار ثانيًا، سد أنفه وملأ يده بالماء وتجرعه، وكرر نفس الفعل مرتين، وفي الثالثة اهتزت الحجرة وارتفعت المياه وهبطت وتتابع ذلك بزئير ذئب قوي.

***

كانت حارة اليهود كئيبة وصامتة، وبيوتها ما زالت تتمايل على بعضها ببطء، على مقطوعة موسيقية جارفة للسعادة، والمشاجب النحاسية الصدئة تتدلى منها المصابيح المَطلية باللون الأزرق، وتشبه جثث المجرمين المعاقبين بالشنق، ونسمات الهواء الباردة تطاير في الهواء، وتداعب ابن الصياد الذي كنس الحارة بمعاونة أصدقائه، تمهيدًا لوضع سرادق عزاء والده واستقبال المعزين، ثم رش القليل من الماء لطرد العفر والأتربة، وهو صامد يمنع عينيه من البكاء لأنه رجل والرجال لا يبكون كما يعتقد. وقد مر أربعة أيام على اختفاء «حودة تومكس» ولم يظهر، ومع كثرة جثث الغارة الأخيرة استسلمت زوجته إلى فكرة وفاته أثناء الغارة، والتهام البحر لجثته. وقد أشار عليها شيخ الحارة الحاج مجدي السبعاوي بضرورة أخذ عزائه، قائلاً بحزن: لازم نكرمه، مش كفاية مكرمنهوش

بالدفن.

-عندك حق.

لم يساعدها بدنها على الصراخ أو البكاء، فطاقتها تستنزف يومًا بعد يوم، والأدوية أصبحت غير قادرة على تسكين آلامها. أرسلت ابنها اليوم لتأجير سرادق العزاء وبعض الكراسي من فراشة الحاج عبد الغفار، والذي رفض أخذ أية أموال تكريمًا لـ«حودة تومكس» لأنه كان «جدع مع الكل» كما قال. وتكرر الأمر مع الست أم فتحي التي تقطن معهم في الحارة وتبيع الشاي والسكر داخل منزلها في الدور الأرضي، وأصبح كل شيء جاهز لاستقبال المعزين، وحل الليل بردائه الأسود يحمل الحزن، والهم، والسّباب للإنجليز والألمان، حيث لم يخلُ بيت أو حارة من عزاء نتيجة صراعاتهم الخبيثة. وكان السرادق لونه أسود، والإضاءة فيه ضعيفة وباهتة، بسبب تعليمات الحماية المدنية بضرورة طلاء المصابيح باللون الأزرق فلا تراها الطائرات، وقد اعترض الحاج زكريا صاحب المخبز الإفرنجي على هذا القرار في أحد الأيام بصوت عالٍ: «قال يعني اللون الأزرق هيمنع الغارات، ما الشوارع بتضرب كل يوم ومبيكنش فيها مصباح واحد».

وجاء القليل من أسرة الصياد، وأسرة زوجته يقدمون واجب العزاء، والكثير من جيران الحارات والأماكن المحيطة، وقسموا أنفسهم، النساء في بيت «تومكس»، والرجال بالشارع، وامتلأت الحارة بزحام شديد جعل حميدو الجن يغتاظ لأن القهوة أغلقت أبوابها لاحترام العزاء، لكنه لم يعترض، وقدم واجبه ثم انصرف بهدوء في حيرة بين الحزن وافتقاد الشيشة بالحشيش. وقدم مرعي الشاي للناس، وما زالت عيناه صامدتين، ويتأمله الجميع بقامته الطويلة الرفيعة، وشعره الناعم، وعيونه السوداء، ووجهه المستدير، ويؤكدون داخلهم أن الصياد حي.

في بيت الصياد جلست زوجته طوال الوقت فوق الكنبة المزركشة

وارتدت ثوبًا أسود واسعًا يغطي جسدها كله، ووضعت على شعرها طرحة من نفس اللون، واضمحلت في صمت طويل صاحبهُ لومها لنفسها، وللطائرات، وللبحر، وللإسكندرية كلها، حاولت النساء اللاتي يجلسن بجانبها إخراجها من هذه الحالة، وفشلوا.. «ياريتها كانت صوتت، وسمعت الناس، كانت بقت أحسن»، هكذا علقت أم سعيد البالغة من العمر سبعين عامًا على حال زوجة الصياد، ولوت فمها، وبصقت في الأرض، وضايقت النساء من طريقتها، ورائحة عرقها الكريهة، وظلت أم سعيد تتحدث بصوت خفيض طوال العزاء مع خطيبة ابنها، عن المرحوم، ومشاجراته القديمة في حارة اليهود، وعمله البطال والنجس مع الإنجليز، ونهايته السوداء، وأكدت لها أن أسرة الصياد ستمر بفترة ضنك، وفقر مدقع، لأن المال الحرام لا يدوم، وأموال الإنجليز حرام، وتجلب التعاسة، وانتبهت خالة «حودة» لكلام أم سعيد، فرمقتها بنظرات حادة، فامتنعت أم سعيد عما تقوله، وأنبتت وجه الحزن المصطنع وصمتت... مر الوقت بطيئًا على أسرة الصياد، سريعًا على المعزين، ومع اقتراب الوقت من التاسعة مساءً جاء المعلم الحفناوي، ومعه رجاله يمسكون النبابيت والأسلحة البيضاء، وصاح في منتصف الحارة:

-اللي راح راح يا حارة.

كان ينوي ضرب المعزين وطرد ابن الصياد وزوجته لولا تدخل حميدو، الذي أخبره أنه يتعدى على منطقته وأهل حتته، واجتمع الرجال من كل ناحية، وهرب المعزون من الحارة، وأغلقت النساء عليهن باب شقة الصياد، ووقف رجال حميدو، في مواجهة رجال الحفناوي، كل فريق ينتظر إشارة البداية.

-فضها سيرة يا معلم حفناوي، والقسط الأخير سيكون عندك غدًا.

-القسط الأخير، وأسرة «تومكس» خارج الإسكندرية كلها.

-أنا أحدد مَن يبقى، ومَن يرحل.

مسح الحفناوي شاربه الخفيف، وقال بكبرياء:

-أنت تشعل الفتنة بين الرجال، ومأمور القسم لن يرضى بهذا، ولا تنسى أنك تسببت ذات يوم في مقتل والد الصياد.

كان مرعي يتابع من مكانه في صمت، ويرفض الهرب، وأمسك بكرسي خشب، وهشمه والتقط منه خشبة طويلة استعدادًا لأي معركة تقع بين الطرفين، وحينما استمع لكلمات الحفناوي زاد سكوته وكانت عيناه فغرة.

-دع الماضي للماضي، واترك نبش القبور للسارقين يا حفناوي.

-وحق مَن جعل نُبيبه يضرب الماء فينشق لنصفين، لن أترك حقي.

تدخل السعداوي بقامته الضخمة وهو أحد رجال الحفناوي وقال لحميدو الجن:

-لا تراوغ.

-الله كبير

قالها حميدو بصوت جهوري هز الحارة، وقفز في الهواء، وضرب السعداوي في صدره بجبينه، فسقط على الأرض قتيلاً، تراجع رجال الحفناوي بخوف للوراء وهم مشدوهون من قوة حميدو، فهم دائمًا يسمعون عنها لكنهم عاينوها هذه المرة بأنفسهم، ودق قلب مرعي، وتأهب رجال حميدو للانقضاض عليهم، وأيقن الحفناوي أنه ينجرف إلى معركة بها فائز واحد، فقال وهو يرجع للوراء وكاد يسقط:

-الأيام بيننا يا حميدو.

-مستنيك، ولا تنسى جثة السعداوي.

أخذ رجاله الجثة، وهربوا ينظرون حولهم في قلق.... من بعيد كان يقف تاجر يهودي قصير القامة، ذو شعر أصفر، وعينين خضراوين وبشرة بيضاء، ويرتدي نظارة طبية، وبذلة رصاصية، وخاتمًا ذهبيًا في يده اليسرى، ويتابع المشاجرة بين الفريقين بشغف، ويبتسم من وقت لآخر

بثقة واطمئنان، وبعدما انتهت المشاجرة، وقف أمام بيت الصياد يحرك يده فوق ذقنه، ويفكر بمكر في أمر هام، لا تأجيل فيه.

***

الفصل السادس

داخل الحجرة الضيقة نام الصياد لأنه مجهد، وصوت الزئير القوي يأتيه كل فترة مع نسمات الهواء الرطبة، وكان مسجى كالجريح فوق مياه الحجرة القذرة، وأطرافه ترتعد. وفي الحجرات المجاورة حبس رجال أعمارهم بين الثلاثينيات والأربعينيات، يرتدون أثوابًا طويلة من القماش البرتقالي، ويلبسون في أقدامهم قباقيب خشب تنتهي بجلد أسود يثبت أقدمهم، واعتلاهم الوجوم، والضجر ربطهم بحديد مشتعل، وقرعوا على الأبواب الحديدية بحجارة صغيرة فضية جلبوها من الأرض، ونددوا بالعنف والضرب والقتل، وصرخوا:

-أخرجونا بحق الجد الأعظم.

رددوها بلا ملل، وسمعهم الصياد، فاستيقظ، وتحسس أرض الحجرة الصخرية وهو لا يشعر بذراعه الأيمن لأنه نام عليه، تسند على الحائط المقابل وفتح عينيه ليفهم ماهية هذه الأصوات، فشاهد أصحابها مكدودين على أمرهم مثله، لكن حسده طالهم، فهم على الأقل سكان هذه الجزيرة، أما هو غريب، تائه، سجنه البحر وحده، وعندما أراد الإفراج عنه رماه هنا كما يرمى القروش والحيتان بعد موتهم، والجثث بعد نفوقها، فهو «الملك الطاهر» كما يسميه دائمًا، ملك لا يرضى أن تلوث أملاكه جثث الموتى، والفقراء، والضعفاء. وتذكر أيامه الخوالي بالإسكندرية، فلم يكن يهاب أحدًا، ومهما وقع من مشاجرات وعداوات مكانته محفوظة، ربما لصلة قرابته بحميدو الجن، وربما لقلبه الذي لا يعرف الخوف، ويجعله يضرب بيد من صخر.

ومشاجرته مع الحفناوي كانت ستتكرر كثيرًا لأنه اعتاد على ذلك، ولكن منذ أن وطئت قدمه رمال هذه الجزيرة، أصبح يخشى أي شيء وكل

شيء، ويتمنى العودة للإسكندرية.... وجاء الليل على الجزيرة كئيبًا يجذب ناحيته الطاقة الإيجابية، ويبعث بطاقة سلبية إلى أوصال الجزيرة بسكانها، وأشجارها، وحيواناتها. وزادت الرياح، وارتفع صوت ارتطامها بالأشجار، وتحول الطقس من الحار إلى البارد، وفي الحجرات المجاورة صمت الرجال وأبطلوا قرع الأبواب. بعضهم جلس في المياه الموجودة في جميع الحجرات، ومنهم مَن ظل واقفًا يرنو بنظرات حزينة إلى الخارج مُتمنيًا الإفراج عنه، إلا حجرة واحدة انخرطت منها دماء كثيرة، جعلت الصياد ينظر لها بقلق، فرأى بها رجلًا مشقوق الرأس، ومخه يتدلى خارج جمجمته مثل لسان يسقط من فم صاحبه، كان سيسأل كيف مات؟ فقاطعه صوت غليظ جاء من بوابة السجن:

-تأكدوا من غلق البوابة الرئيسية، والبوابات الصغيرة الأخرى.

بعدما قيلت هذه الجملة، انفجرت السماء، وترجرجت الجزيرة كلها، وتخبط الرجال في حجراتهم وسقطوا، ووضعوا أياديهم على أذنهم من قوة الصوت، وتطايرت سحب السماء، وسقطت على فضاء الجزيرة، وكانت عبارة عن قطع ثلجية بيضاء كبيرة ومتوسطة، وانتصب الصياد بجذعه بعدما سقط جراء الهزة العنيفة، وهو لا يعي ما جرى، لكنه يدرك أن الدواهي لا تأتي فرادى، ونظر من نافذة الحجرة، ومد رأسه للأمام، ولمح من السماء جزءًا كان لونه أحمر داكنًا، وكأن السماء امتلأت بالدماء، وهرول فجأة رجل من أمام البوابة وكان يمتطي حصانًا، ويمسك بسيف طويل، وقال بصوت جهوري:

-يا حراس أغلقوا بوابة السجن، وأي بوابة تجدونها أمامكم، ولا تتركون فردًا يُقتل في وجودكم.

جاء ثلاثة حراس بعدما أنهى الرجل كلماته، وتسلق واحد منهم البرج الخشبي، وجذب الحبل الطويل السميك وأغلق بوابة السجن... في الداخل كان «تومكس» يستمع لصوت احتكاك غلق البوابة بالمجرى الحديدي الذي تسير فيها، وسبح المكان في ظلام دامس تخلله القليل من ضوء القمر

الذي تدلى من نوافذ الحجرات. وأحس الصياد في الظلام أنه غريق في محيط ضخم، محيط يرتجف من الخوف، ويطمس أسماكه في عمق مياهه، وتتساقط قوته على الكائنات البحرية التي تعيش فيه، محيط فقد السيطرة والقدرة، ويجاهد كي لا يكون باليًا وضعيفًا، وتحركه الأمواج يمينًا ويسارًا، وتهاجره الأسماك في رحلات طويلة، ويتناوب القمر ليلاً والشمس نهارًا على خنقه، محيط خُرِقَت قواعده وتحول لعجوز مريض يفرض ذراعيه على الصخور، والأحجار، والشعب المرجانية، ويعلم أنه مهما حدث لن يتركوه لضعفهم مُتناهي الصِغر... جذب صوت الزئير العالي انتباه الصياد للسجن، ثم اختفى، واستمع بعدها لرجلين يتحدثان بجانبه في الظلام، كان أحدهما يقول بصوت أنثوي خفيض:

-سيرسلوننا إلى «الجراكو».

-سيقتلوننا أولاً، بعدها يرسلون أجسادنا إليه.

-«جراكو»؟

سألهما الصياد، فنهره صاحب الصوت الأنثوي:

-أخفض صوتك أيها الغريب، وإلا جلبوه هنا والتهمنا أحياء.

اهتزت أرض السجن، واختفى الرجلان، وتراجع الصياد للوراء، ووجد شيئًا يمر من أمام نافذة الحجرة، ويحجب عنه ضوء القمر، فوقف على صخرة كبيرة كانت أسفله ليرى بوضوح، وتحجرت عيناه وفتح فمه عن آخره، لما أبصر كائنًا ضخمًا يصل طوله لمتر ونصف، وعرضه إلى أربعة أمتار، وله ثمانية أرجل، وخمسة عيون، وجسده أسود ومليء بالشوك المدبب، ويسير بشكل دائري، وبسرعة رهيبة، ودنا من حراس وقفوا أمامه في شجاعة، وأطلقوا عليه أسهمًا مشتعلة بالنار، أصابه سهمان وتفادى الباقي، فجرى ناحيته حارس طويل، وزج بحقيبة مصنوعة من الجلد ومليئة بسائل أصفر تجاه السهمين، فاضطرمت النيران في جسده، لكنه أكمل حركته السريعة، ودهس أربعة حراس، بجسده الضخم، وحاول إطفاء النيران فزادت أكثر وأحرقته مثل الهشيم، ووقع على الأرض

وأصدر صوت صراخ عالٍ. وظهر جمع غفير من الحراس، وأصابوه بسهام مشتعلة فاحترق كله، وألقوا عليه كميات مهولة من زيوت خضراء، فاحترق وخرجت منه رائحة لحم مشوي، هدأ الحراس قليلاً واستراحوا، وبقي الصياد يتابع وعيناه فغرة عن آخرها، ولا يصدق ما يراه. وانفتحت معدة هذا الكائن ببطء، وخرجت منها كائنات بأحجام مختلفة، كبيرة، وصغيرة، أجسادهم مليئة باللحم، ولونهم أحمر، ولهم أذرع طويلة، ورؤوس مستديرة وضخمة، وطول أكبرهم يصل إلى نصف متر، وعرضه متر ونصف، ولهم أربعة أقدام طويلة ونحيفة، وشعر خشن يغطي أجسادهم، وذيولاً تنتهي بمثلث أسود داكن، صرخ الصياد بصوت عالٍ في الحراس:

-انتبهوا، هناك كائنات تتجه ناحيتكم.

فهجمت عليهم هذه الكائنات وأكلت لحمهم بنهم، حاول الحراس قتلهم بالسيوف لكن سرعة الكائنات غلبتهم، وتفوقوا عليهم، أخذ الحراس يصرخون ويتألمون، وهؤلاء الشياطين الصغار يلتهمونهم، ويمضغون عظامهم التي أصدرت صوتًا عاليًا وصل لأذن الصياد، فتراجع للوراء وسقط، واستدار وضرب الباب الحديدي بقدمه ليفتحه، وحاول من معه تهدئته ليخفض صوته، لأنهم لم يروا ما يحدث في الخارج، فلم يقدروا عليه، وتهاوى الصياد ووقع على الأرض، ورأى صورة زوجته وابنه ترسم على جدار الحجرة الأمامي، واهتزت الأرض بشدة للمرة الثالثة، وظهر كائن ضخم ثانٍ شبيه بالذي احترق، فضربته أسهم مشتعلة غفيرة جاءت من الأبراج الخشبية الموجودة بكثرة حول السجن، والأراضي المجاورة وسور الجزيرة، وأغرقوه بالزيوت الخضراء، أكلته النيران بسرعة قبل أن يقتل عدد الحراس الباقين، وتراجع ذلك الكائن للوراء، وسقط على حائط السجن، وهشم جزءًا كبيرًا منه، ومات عشرة مساجين دهسًا من جسده الضخم الأسود، وكان الصياد يعلم ماذا سيحدث، وصرخ في المساجين:

-خلوا بالكم.

فُتِحت معدة الكائن، وخرجت منها الكائنات الصغيرة والكبيرة، وجرت، واستطاعت الكائنات الصغيرة منهم الدخول للحجرات عبر الحديد، وساعدها على ذلك جسدها اللين الذي يتشكل بسرعة، وراحوا يلتهمون المساجين، استعد الصياد وفتح جيبه السري وأخذ الخنجر وتأهب، جاء إليه كائن منهم وقفز عليه، فتفاداه، وطعنه بالخنجر، فنزف دماءً سوداء داكنة، وفتح فمه، وبانت أسنانه حادة وصغيرة وتشبه المثلثات، ولسانه طويل ونحيف، وعيناه مُستديرتان وسوداوان داكنتان، وله رائحة كريهة، وأصدر صوتًا يشبه فحيح الثعابين، أبعده الصياد عنه، واصطدم بواحد ثانٍ يقفز على ظهره، ويلف أقدامه الأربعة عليه، ويعتصره، ويحاول وضع لسانه على وجهِه، فجرى للخلف وصدم الكائن في الحائط، وبعدها سدد له طعنة في رأسه المستديرة، وتأكد أنه مات، وأبعده بقدمه... قُتل أغلب المساجين، ومَن تبقى استطاع قتل الكائنات عن طريق ضربهم على رأسهم بالصخور، ووجد الصياد فرصة سانحة للهرب من حجرته لأن الكائن الضخم هشم الحجرات القريبة منه، وصنع فتحة صغيرة يستطيع النفاذ منها، فأدخل جسده فيها ودفع نفسه للأمام، لكن الفتحة كانت ضيقة قليلاً وانحصر فيها، وانتبه لكائن يقترب ويستعد للقفز عليه، فدفع جسده بقوة وخرج من الفتحة، ولف نفسه ناحية البوابة وركض، واصطدم بكائن ضخم ثالث، يفصله عنه ثلاثة أمتار فقط، تراجع وأطلق قدميه عكس اتجاه البوابة، وكان يستمع لصوت الكائن يجري وراءه، ولم يجد مفرًا سوى القفز في النهر الطويل القريب منه، وسبح بسرعة فلم يتتبعه الكائن الضخم... واستمر في سباحته لوقت طويل، وشاهد بيوتًا كثيرة من الخشب تصطف على حافة النهر من الجانبين، وحولها أشجار وحشائش ونباتات، وطيور تحلق في السماء بذعر، وكانت البيوت خالية إلا من الأثاث فقط.... ووصل وهو يلهث كالكلب لنهاية النهر وخرج منه وسار على أقدامه حافيًا، واقترب من جبل شاهق وضخم تغطيه النباتات والحشائش الخضراء، وكان يقف الكثير من السكان حوله، وعند بداياته وهم يرتدون أثوابًا طويلة بألوان مختلفة، وأقدامهم خالية من القباقيب الخشب، وتنوعوا بين سيدات وأطفال، ورجال وشيوخ، وكان الهلع يخطف قلوبهم.. وصرخت

سيدة لفتت انتباه الصياد:

-زوجي في الحرس وسيقتل، وابني الصغير اختفى، الويل للجد الأعظم لأنه تركنا فريسة زهيدة في يد كائنات الظلام، الويل للملك، الويل للجميع.

أنهت كلماتها ولم يهتم بها السكان، لأنهم مشغولون بمتابعة المعركة المستمرة من بعيد. ولم يز الصياد تفاصيلها جيدًا، فصعد على أول الجبل ودقق عينيه، ولاحظ اختفاء الحراس عند بوابة السور، وظهورهم بأعداد غفيرة على الأبراج الخشبية، فكانوا يضربون الكائنات الضخمة، والكبيرة، والصغيرة بالأسهم المشتعلة، ويصبون عليها الزيوت الخضراء الحارقة، وكان لهذه الطريقة مفعول سحري صد جزءًا جسيمًا من هجوم الكائنات. قُتِل الكائن الثالث ذو الحجم الضخم، وسقط على منتصف النهر، ومن شدة ضخامته، فشل النهر في استيعاب جسده بالكامل، وتطاير ماؤه العذب خارج مجراه. وأحكم الحراس السيطرة بعد وقت طويل، ووجد الصياد رجالًا بأعداد ضخمة أذهلته يهرولون باتجاه البوابة، وكانوا يرتدون دروعًا من الحديد، ويمسكون سيوفًا طويلة وحادة، واصطدموا بالكائنات الكبيرة والصغيرة، وقطعوا أطرافها فكانت تتلوى وتصرخ، وتموت... واستمرت الأبراج في ضربهم بالأسهم المشتعلة وإلقاء الزيوت، وكان نور القمر شحيحًا وضعيفًا، أمام نور الحرائق والنيران التي التهمت الكائنات ومناطق من الجزيرة. ورفع الصياد عينيه للسماء فكان شكلها غير مألوف، ولونها أحمر، وفي منتصفها لون أزرق خفيف، بالإضافة لموجات قوية من اللون الأسود تظهر على شكل دائرة تتسع، وتتسع، ثم تضيق، وقد اختفت السحب، واختفى القمر فجأة مع النجوم، وأصبحت رؤيتهم مستحيلة، وبمرور الوقت كانت السماء تهتز بقوة، وتصدر صوت انفجار عنيف، قوته اقتلعت الأشجار من الأرض، ودمرت بعض البيوت، وطارت كميات كبيرة من مياه البحر، ودخلت إلى الجزيرة فأغرقت أجزاء منها، وفتح الحارس صاحب الصوت الغليظ البوابة الرئيسية للسور، وحينما تراجعت مياه البحر بعد الانفجار سحبت معها الكثير من الكائنات، وما تبقى تكفل به الحراس.

واستمرت الأسهم النارية في عملها، والتهمت الكائنات وحولتها لرماد، وارتفع عدد القتلى من الحراس، وارتفعت لدى الأحياء منهم روح القتال، وأغلقت البوابة الرئيسية. وأذعنت الجزيرة كلها للدماء، والتراب، والقتلى من الحراس، والسكان، وتدمر عدد لا بأس به من البيوت، وسقطت نصف الأبراج الخشبية بحراسها، واستحال توقف الصراخ والخوف والاضطراب، إلا بانتهاء المعركة. ولاح سخام القدر أمام عيون الصياد، وزج به بقوة ليرتمي في أحضان عشيقته من بني القنوط، وطالبته بالانتحار ليتسنى لها الزواج منه، وينجبان معاتيه ومجاذيب يزيدون الأمور بلاء فوق بلاء، وسواد فوق سواد.... وتوقفت أصوات المعركة العالية وأعلن الحراس سيطرتهم على الهجوم الضاري، وتداعت طاقة الصياد، وجلس بمؤخرته على بداية الجبل، وأغلق عينيه في ثبات كأنه يستمع لأغنية حارة في ليلة شتوية غابرة، ليلة تفرق فيها الأحبة بعد موت محبوباتهم، وتشاجرت فيها السحب، وتطاير البحر بقوة من مكانه فأغرق الإسكندرية، ومرت الأسماك في الشوارع والبيوت، وطرقت الأبواب بعنف، ومن فتح لها التهمته بأسنانها الصغيرة، ومن لم يفتح سبته بشتائم بذيئة وتوعدت بقتله، ليلة خشيت فيها الشمس من الظهور وقت الفجر، واختبأت داخل الأرض، فطردها دود الموتى، فقررت الرجوع إلى السماء، نادمة على هروبها، وواجهت بقايا الليلة الشتوية الخانقة ببسالة، وتسربلت بالعظمة، وطردت البقايا، وأعادت البحر لمكانه، وحررت القيود.

-انتهى الهجوم الغاشم، تفرقوا وعودوا لبيوتكم.

قالها حارس قصير القامة، بصوت أجش، وجسده مليء بالدماء والجروح، وعينيا تجاهد الوسن، وكررها أكثر من مرة لينصرف الناس، ومسح الصياد وجهه، وعاد من شروده في الليلة الشتوية وغرق الإسكندرية، ورنا بنظره حوله، وكان الناس ينزلون من الجبل، ويسيرون ناحية بيوتهم، وتوقف الصراخ الذي انشقت له حناجر السيدات والفتيات والأطفال، وحل مكانه النحيب الطويل على الجثث الغارقة في الدماء، والبيوت المدمرة، والمعالم المهمة في الجزيرة التي طفا عليها الخراب، ووجد شخص يدفعه من

الخلف بحزم قائلاً:

-تحرك، لعرضك على ابن الملك، قبل إرسالك إلى «الجراكو»

نظر إليه الصياد بعينين زائغتين، وتذكر ملامحه حينما كان يقف في السجن ويتمم على الحجرات وما فيها، واستسلم لكلماته بخنوع.

***

الفصل السابع

مع زيادة الغارات في الإسكندرية، توسعت عمليات انتشال جثث الموتى والمصابين من أسفل المباني المهدمة، خاصة في كرموز ومحطة الرمل وبعض المناطق الأخرى، وتزايدت المستشفيات المتنقلة في الشوارع، وظلت حالة الطوارئ حائل يمنع الناس من تذكر ماضيهم السعيد في الإسكندرية، قبل بداية الحرب، وبدأت نسب كبيرة من السكان في مهاجرة الإسكندرية، والسفر للمحافظات البعيدة عن نيران الحرب، واكتظت محطة القطار بأعداد غفيرة، خاصة بعد الغارة الأخيرة التي استمرت لأربعة ساعات، وطالت أجزاء كبيرة من البر والبحر، وهدمت المباني، وحرقت السفن، وأرسلت «تومكس» إلى جزيرة لا يعرف فيها الفرق بين قدمه وعقله. وفي ظل الأعداد الغفيرة للمسافرين جاء عدد لا بأس به من الباعة المتجولين، وراحوا يجرون عربات خشبية فوقها البطاطا، والذرة المشوي، واللب والفول السوداني، والفطير الفلاحي المغشوش المصنوع من الزيت بدلاً من السمن، واستطاعوا جمع أموال شحيحة من المسافرين، ولكنها تكفي لغرض البقاء على قيد الحياة. وقَل عدد المتجولين في الشوارع إلى النصف بعد السابعة مساءً، بسبب شيوع الجريمة، واغتصاب المراهقات، وقتل العاهرات، وأصبح الجنس أسهل العملات طلبًا. وانتشر في بيوت البغاء الرجال الأشداء الذين يحمون العاهرات في المنازل أو في الشوارع، وكانت حينما تخرج الواحدة وتقابل رجلاً يشتهيها في المناطق الخالية ليلاً، كان يختبئ حاميها في شارع قريب ويتابعها من بعيد، فإن تطلب الأمر وتعرضت للخطر يتدخل، وإن لم يحدث يجلس ويتابعها بلذة.

وفي حارة اليهود جاءت قوات من القسم طلبت حضور المعلم حميدو الجن، لمقابلة المأمور، فارتدى حميدو ملابسه وذهب إلى القسم في حنطور يسوقه حوذي في العشرينيات، ويعمل تحت مظلة حميدو. ووصل حميدو للقسم، وقابل المأمور الذي أعرب عن استيائه من الأحداث الأخيرة، وكثرة المشاجرات التي تقع، ويُقتل فيها الرجال، مثل العبد الأسود، والسعداوي، والتاجر الدمياطي، واستنكر حميدو اتهامه قائلاً:

-محدش اشتكى.

فرد عليه المأمور بثقة وهو يدخن سيجارة، وعينه مليئة بالضيق:

-مافيش حد يقدر يشتكي.

راوغ حميدو، فألحقه المأمور بتحذير، بأنه في حالة وقوع أي مشاجرات جديدة سيعطي عصا الفتونة لشخص آخر جدير بالثقة. حياه الجن وخرج وهو يتبسم بسخرية، ويحاول تصور من ذا الذي يقدر على أخذ عصا الفتونة منه؟ ثم ركب حنطوره وذهب... وفي حارة اليهود اجتمع مع رجاله على القهوة، وأمرهم بتهدئة الأوضاع مع الناس في الفترة القادمة، وطلب من أحد رجاله أن يستقبل خروج ابنه زكريا من السجن، ويسافر معه إلى القاهرة لبعض الشهور، حتى تهدأ الأوضاع، وينسى الناس ما وقع مع التاجر الدمياطي، وناوله حفنة ضخمة من الأموال، وتفرق بعدها رجال حميدو كي يتفقوا مع صبيانهم على تقليل حدة الخلافات، وتهدئة علاقاتهم المضطربة لفترة. وجلس حميدو في القهوة يكركر الشيشة، ويتابع السيدات أثناء سيرهن، وهن يرتدين الملايات اللف السوداء، وتظهر تقسيماتهن بدقة وكبرياء صارخ، فكر في الاستحواذ عليهن، لكن قواعد الفتونة التي وضعها تجذبه ناحية العقل والصواب وتمنعه من ملامسة النساء، عدا العاهرات. وأعطى بالاً طويل لتهديد المأمور الصريح الذي اختلف عن المرات السابقة، وتخطى كل الحدود، وانبلجت من نبرته لهجة تحدٍ، وأوامر لا يمكن اختراقها. وفرغ حميدو من كركرة الشيشة، وجاء له «تعريفة» مرهقًا ويحمل الأسماك التي طلبها من محل عمه، فأدخله

حميدو إلى القهوة، وضم طاولتين من الخشب لونهما لبني لبعضهما، ثم أخذ الأسماك الملفوفة بورق جرائد ووضعها، واستنشق رائحة الطعام باستمتاع.

-هل تريد شيئًا يا معلم؟

-توكل.

ذهب «تعريفة» وعيناه تنهشان الأسماك، وأزال حميدو الجرائد وألقاها في الأرض، وظهرت صينية مستديرة بها جمبري، وكابوريا، وأرز، وطحينة، وجلس وأكل بنهم. وكانت القهوة خالية إلا من حسنين الصبي الذي كان يختلس نظرات سريعة للأكل من بعيد أثناء غسيله للأكواب، وهندمتها في صندوق خشبي عريض يتكون من عشرة رفوف. وجاء أمام القهوة التاجر اليهودي الذي كان يشاهد خناقة حميدو والحفناوي من بعيد، وسحب كرسيًا خارج القهوة، ومسحه ليجلس عليه في بذلة رصاصية اللون، وطلب فنجال قهوة من حسنين، فأعدها سريعًا بفرح وناولها له، وحياه:

-منور يا خواجة «أدين».

تبسم «أدين» من أسفل نظارته الطبية، وتجرع القليل من القهوة. وتأمله حميدو من الداخل، وهو يفصل اللحم عن عظام الكابوريا، ويضع فوقها الليمون ويتناولها بتركيز، وبعدما أنهى طعامه، دلف ناحية حوض صغير في ركن القهوة الأيمن، وغسل يديه بصابونة صغيرة، ثم أمر حسنين:

-لا تقدم له شيء في المرة القادمة، وإلا قطعت رأسك.

ارتعد حسنين وهز رأسه، وأردف حميدو:

-جهز لي الشيشة.

خرج وسحب كرسيًا ليجلس بجانب التاجر اليهودي، وسأله:

-ماذا تريد؟

- مشروع مهم يستفيد منه أهالي الحارة اليهود، والمصريون.

وضع حسنين الشيشة أمام حميدو، وهيأ له الفحم المشتعل، وأمسك حميدو «اللّي» وسحب نفسًا، واستفسر بدهشة:

-مشروع في هذه الأيام السوداء؟

-التجارة لا تتوقف مهما بلغت الحرب مداها، وهتلر لن يستمر.

-خسئت أيها اليهودي، هتلر غزا أغلب أوروبا، ودهس فرنسا بأقدامه، ويحرق اليهود بأعداد رهيبة، وخلال وقت قريب سيدخل الإسكندرية، ليحرقها، ويهشم قلعة قايتباي، وعمود السواري، وتماثيل الزعماء، وحينما سيأتي للقهوة لن يجد سوى رأسي في انتظاره.

تجهم وجه التاجر، وحاول عدم استدراك نفسه في منطقة محظورة لا يستطيع فيها السيطرة على مشاعره، خاصة حينما يتذكر مشاهد حرق اليهود التي تنشرها الصحف العالمية، وقال بنبرة هادئة:

-صدقني هتلر سيسقط قريبًا.

-المهم، ماذا تريد مني؟

عدل بذلته، وأشار ناحية بيت الصياد:

-أريد شراء هذا البيت كله.

ضحك حميدو بصوت عال، وشد أنفاسًا قوية من الشيشة، فاحمر الفحم، واحترق، وارتفعت منه النيران، فأكمل التاجر:

-سأدفع ما تريده.

-وسكان البيت أين أضعهم؟ في مؤخرة الحرب مثلاً؟

-لا يا معلم حميدو، يرحلون بالذوق، ولن يستطيعون رفض أوامرك، التي تمر فوق رؤوس الكل.

-البيت به شقة أقاربي، لن أستطيع ترحيلهم إلى مكان آخر، ولابد وأن تتذكر جيدًا أيها التاجر أنك تريد مساعدة أهالي الحارة في أيامهم السوداء، وليس العكس.

دس التاجر يده في جيب بذلته، وأخرج حزمة كبيرة من الجنيهات، ووضعها على طاولة بجانبهما، فأمسك حميدو بالحزمة وأردف:

-ضعهم في مؤخرة الحرب.

انتصب ونفض التراب عن جلبابه الأسود الأنيق، وقال وهو يعطي ظهره للتاجر:

-سلام يا خواجة «أدين».

-سلام، ولكن لا تنسى تحذير المأمور يا معلم حميدو.

وقف حميدو بظهره ولم يلتفت، وقطب حاجبيه، وألقاها بصوت عال:

-أنت، والمأمور، والحرب، لن تصمدوا أمام قوة رأسي.

اغتاظ التاجر، وضرب كرسي حميدو بقدمه، ثم سار بعيدًا عن القهوة وقال بصوت منخفض:

-سأضعك داخل مؤخرة الحرب.

***

انساب معها برقة إلى الشارع دون أن يشعر، وتأبط ذراعها الأيمن بأريحية، وطمأنه دفؤها بأن الأمور على ما يرام، وقَبّل يدها الصغيرة وسألها:

-إلى أين؟

خرجت كلماته بتأنٍ مُحكم، فأجابت وهي تتابع السير:

-إلى البحر الحي.

الفارات عن يمينه، وتحذير والده بعدم ذهابهما بعيدًا، عن يساره، ورغبتها الدائمة في الابتعاد عن اليابس ما دامت الفرصة سانحة تتوسط الطرفين بعناد شديد، لكنه تكبل أسيزًا، ورفض صدره مقاومتها... أسرعت في سيرها وهي تجذبه، لأنها ترغب في تجديد طاقتها من «البحر الحي» كما تسميه، وتثقل روحها من الثبات الطويل أسفل النجوم، التي ترتفع في السماء بلا ملل، وتتأنق ببهاء عظيم، وتترك بصمتها في الفضاء الفسيح، فتنير ظلامه البهيم... خرجا من حارة اليهود، وسارا لمسافة طويلة حتى داعبهما هواء البحر المليء باليود، ولامسهما القمر بخفة وهو يحاول تبديد الظلام الشديد، الذي غلب مصابيح الجاز المصفوفة على جانبي الطريق، ولا تنيره لأنها مطلية باللون الأزرق.

-هنا.

أشارت إلى صخرة تحتمل جلوس شخصين عليها، فأمسك بيديها ومر معها من فوق رصيف صخري، يفصل شاطئ البحر عن الطريق، وجلسا على الصخرة أمام البحر يستنشقان اليود، وكانت هناك رائحة ذرة مشوي تفوح في الأجواء، وحولهما بعض السفن القديمة، ومراكب «دِنجل» جديدة، ومشردون ينامون فيها، والمشقة تظهر على وجوههم وأجسادهم، وملابسهم الفتسخة.

-النجوم تخبرني بأن أباك على قيد الحياة، وينازع الموت في مشاجرة عنيفة، كمشاجرات حميدو الجن، وأنا أصدقها فهي التي أخبرتني بموعد ولادتك، وموعد وفاة أمي.

-أمي أنتِ مريضة وتحتاجين للراحة، يا ليتني أستطيع جعلك سعيدة.

ضمته إليها وقبلت شعره الأسود، وقالت:

-أحبك منذ اللحظة الأولى، أحبك أكثر من والدك يا مرعي، لأن روحك انبثقت من روحي، لكن تأنيب الضمير يزج بي إلى الحزن الشديد.

صمتت، وخلعت الطرحة السوداء التي تغطي بها شعرها الكستنائي

الطويل، وأردفت:

-تأنيب الضمير يؤكد لي أنني السبب في مو.. في اختفاء والدك.

-لماذا؟ أنتِ لم تدفعيه إلى بيت بدرية، أو ترك عمله مع الإنجليز.

- بدرية؟

-قابلتها بالأمس وقصت لي أن المرحوم زارها منذ عدة أيام، وكانت تتيقن أنه لن يراها مجددًا، ففهمت مغزاها.

-اشتري لنا كوزين ذرة.

-طيب.

بحث بأنفه عن رائحة الذرة واقترب من مصدرها، فوجد شابًا صغيرًا في السن، تنام بجانبه سيدة مسنة، ويضع أمامه مربعًا من الحديد فوقه أربعة أكواز من الذرة، وأسفلهم فحم مشتعل، ناوله مرعي مليمًا وأخذ الكوزين، وهواء البحر يلفح وجهه، وعاد من نفس طريقه بين السفن القديمة، وكانت أمه تتأمله من بعيد وهو يحمل الكوزين، بطوله البارز، وذقنه التي لم يتوغل الشعر في كل جوانبها مثل أرض بور، أعطاها كوز الذرة ووقف أمامها يأكل، وينظر للبحر.

-الذرة حلوة، مثل الذي كان يبتاعه والدك لي، قبل زواجنا.

تبسم رغمًا عنه، وسألها بعقل يُجاهد الغموض:

-حينما جاء الحفناوي ليتشاجر معنا أثناء عزاء والدي، قال لحميدو: «لا تنسى أنك تسببت في مقتل والد الصياد»، وقفت حينها متحيرًا يا أمي، هل حميدو قتل جدي حقًا؟

قضمت جزءًا صغيرًا من الذرة، وفكرت طويلاً، وأمام إلحاح عينيه القوية أجابت:

- مشكلة قديمة.

-احكي لي، وإلا أخذت الذرة منك.

تبسمت، وقالت:

-تزوجت والدك في الثامنة عشرة من عمري، بعد أن رأى والدي أنني أستطيع تحمل المسئولية، حيث تقدم لي والدك، وكان يزيدني بستة سنوات، وجاء بوالده الشيخ عبد الجليل وخطبني، وبعد سنة تزوجنا في بيته بحارة اليهود، وبعد سنة أخرى أنجبناك، وكان يعيش معنا والده في الحجرة التي تنام أنت فيها. كانت السنوات تمضي سريعًا ووالدك حنون علي، لم يضربني يومًا، وكان أقصى حد يصل له شجارنا أن يتركني ويذهب إلى البحر، ثم يعود ويجلب لي ذرة لنأكله ونتصالح. وخلال هذه السنوات كانت مكانة جدك تزداد في الحارة بين الناس بسبب دعمه المعنوي للجميع، وحلوله الحكيمة لمشاكل البيوت السرية بين الأزواج والأقارب، وفي هذه الفترة كان حميدو سيطر على عصا الفتونة، ومفعمًا حيوية وشبابًا، وعنيفًا مع الذي يخطئ أو يقصر. وكان جدك يدعمه لأنه عادل بين الكل، ويتوسم فيه خيرًا عارمًا، وفي يوم علم أن حميدو يتاجر في الأفيون، ويضعه بمخزن قديم خلف بيتنا، فذهب ونصحه بأن يبتعد عن الأفيون لأنه طريق مُظلم، فقال له: «لو متاجرتش في الأفيون هتاجر في أعراض الناس، تختار أنهي يا شيخنا؟». تركه جدك وذهب حزينًا. بعدها بأيام، أثناء ليلة شتوية ممطرة جاءت قوات من قسم الشرطة برئاسة المأمور، وفتحت مخزن الأفيون، وأخذت ما فيه، حينها غضب حميدو بشدة، وثار كالبركان يهشم ويكسر بيوت أعدائه وأملاكهم، وفي صباح اليوم التالي، استيقظت أنا ووالدك لنجد الدماء تملأ الشقة، وجدك يجلس في منتصف الصالة ومقتولاً بسكينة، وباب الشقة مكسور. مات جدك وشيعت جنازته وحضرها عدد لم يكن يتخيله والدك أبدًا، والحزن خيم على حارتنا والحارات المجاورة، وكان والدك يستعد للانتقام من حميدو لأنه كان يعرف أن جدك حذره، وبعدها جاءت قوات الشرطة إلى مخزنه. لكن حميدو فاجأ والدك وجاء لنا في البيت وجلس معه في غرفتك، وأقسم له قائلاً:

-لم يكن لي يد في مقتل أبيك يا حسام، مَن قتله صبي من رجال المعلم النقراشي الذي كان يمسك بعصا الفتونة قبلي، للإيقاع بيني وبين أهل الحارة، وليوهم الناس أنني قتلته فيكرهني الجميع، وهذا الصبي هو مَن أبلغ عن مَخزن الأفيون، ولسوء حظ أبيك، أن هذا الصبي كان موجود في القهوة حينما حدثني والدك عن المخزن، وضرورة الابتعاد عن الأفيون، ولكن اطمئن، فحق والدك لم يضِع، فالصبي ذهب لبيت بدرية بأموال كثيرة، وشرب الخمر، وجامع الفتيات، وسار إلى الحارة التي كان يعيش بها المعلم النقراشي، وقص بصوت عال ما فعله، ورجالي علموا، وتكفلوا بالأمر، وهو مرمي في مخزني ينتظر الموت بأمرك يا حسام.

صدقه والدك وقتها لأن حميدو لم يكن يكذب ولا يخشاه، ولن يضطر للكذب حتى يبرئ نفسه. بالإضافة إلى أن حميدو كان متزوجًا من ابنة عم والدك «حميدة» وهناك صلة قرابة، فصدقه، ورضي بقضاء الله. صمتت بعد أن حكت هذه القصة التي تقلب عليها الآلام، ووضعت كوز الذرة على الرمال وأوقفت عقلها عن تذكر الأحداث التي تلت ذلك، وقالت لمرعي:

- نمشي؟

-آسف.

تبسمت وأمسكت بيديه، وعادا إلى الحارة، والظلام كان يشتد أكثر لاقتراب الوقت من منتصف الليل، والحارة خالية من أي كائن حي. وفتح مرعي باب البيت الخشبي المستدير، ومد يده لوالدته فسبقته، وقبل دخوله وراءها وجد يدًا تسحبه من الخلف، وتسدد له ضربة بالنبوت، فتفاداها بخفة، وأغلق الباب الخشبي على أمه، التي صرخت واستنجدت بالناس، ووجد مرعي أمامه ثلاثة رجال يمسكون نبابيت سوداء ينغمس في منتصفها مسامير طويلة لتهشيم الرأس، فدس يده في جيبه وأخرج مطواة قرن غزال خشبها بني قاتم، وعليها هلالان وخمسة نجوم، ونصلها حاد، وفي منتصفها دائرة حديد، وضع فيها إصبعه الأوسط، وفتحها فأصدرت صوتًا عاليًا، وأخذ وضع الاستعداد، وصرخات «سماح» أمه تزداد

من الداخل، تقدم إليه أحد الرجال وضرب بنبوته في الهواء، فتحرك مرعي في خفة، ومرر المطواة على يده، وسقط النبوت وانسكبت دماؤه بغزارة، وأمسك مرعي النبوت من الأرض، واقترب من الرجلين، ضربه الأول فصد الضربة بالنبوت، والتف ثم ضربه بقدمه في عجيزته بقوة فوقع على دبش الأرض الأبيض، ونزفت رأسه حينما ارتطمت بالدبش، ووقف مرعي في مواجهة الرجل الثالث، الذي كان أشدهم ولديه بطن كبيرة وجبينه به ثلاث علامات لمشاجرات قديمة، وبداية من الرقبة حتى ساعده الأيمن آثر لحريق مُهيب تقشعر له الأبدان، رفع نبوته وضرب مرعي في حركة مباغتة، وأصاب ساعده فوقع على الأرض، استند مرعي على حائط قذر يتبول عليه الناس بجانبه ووقف، وحينما لم يجد مفرًا إلا الهرب، مد قدميه بالطاقة وركض، فلحقه الرجل وهو يسبه بشتائم بذيئة. ظل مرعي يجري وينظر خلفه حتى تلعثم واصطدم في عمود إنارة وسقط، ووجد الرجل يقف أمامه ويمسك بمطواة ويجذبه من شعره الناعم، وأوقفه ورفع المطواة عاليًا ليضعها في قلبه.

-الله كبير.

قالها حميدو الذي ظهر فجأة من العدم وضرب الرجل برأسه من الخلف، فمات على الفور وانفجرت الدماء من رأسه، ولوثت دبش الأرض الأبيض، وحمل حميدو، مرعي على منكبيه وسار به إلى بيته.

***

الفصل الثامن

صعد الصياد على الجبل الضخم الجالس بشموخ في آخر الجزيرة عبر طريق ممهد، ومحاط بسور خشب يصل إلى نصف متر من الجانبين، ومن الخلف يدفعه حارس قوي البنيان، اعتمد في سيره على ضوء القمر الذي كان يزداد كلما صعدا أكثر. وعادت السماء لشكلها الطبيعي وفيها القليل من السحب، والقمر ثابت يداعب الجزيرة، ويهدأ عويل سكانها الذي قَل بمرور الوقت. وبدأ الحراس في ترتيب خطوطهم الرئيسية، وتأكدوا من

سلامة السور العظيم المحيط بالجزيرة، وأحصوا عدد الموتى والأبراج الخشبية والبيوت وكل شيء تحطم، ودونوا هذه البيانات بريشة طويلة على ورق بردي أصفر مربع الشكل، وكان الحزن يغالبهم. ويتجرعون الألم.
أما الصياد فكانت لديه مشكلة في التنفس، والعرق يملأ جسده، وكلما صعد مسافة يستند على السور الخشبي ليرتاح قليلاً فيجد يد الحارس تدفعه للأمام، ولولا طاقته التي خُرقت لناوله عدة لكمات تهشم جمجمته العريضة، قَل الأكسجين قليلاً قبل وصولهما لقمة الجبل، وكانت قدمه تنزف دمًا لاحتكاكها بأرض الجبل الخشنة، وشعر أن روحه تتدلى منه لتنسكب على الجبل مثل مياه الأمطار الغزيرة، فوقف ورفع رأسه ناحية السماء، وفتح فمه ليستنشق الهواء، فضربه الحارس بيد سيفه الحديدية، وسقط، وكاد يتكور وينحدر للأسفل، لكن الحارس أمسكه، وقال:

-تحرك وإلا قتلتك.

-يا ابن الهرمة.

-تحرك.

عينه السوداء كانت مشوبة بغشاء أبيض يقلل رؤيته، وقلبه يخفق بقوة، وجسده يطلب الراحة، فأمسك بحجر وقذفه في وجه الحارس، لكن الثاني تفاداه بخفة وضربه بقدمه من الخلف، وأيقن الصياد أنه لا مفر من ذلك الإرهاق الشديد إلا بالوصول للقمة... على قمة الجبل كان الهواء رطبًا ويداعب عرق الصياد بيد خفيفة، واقتربا الاثنان من بيت طويل وضخم جدًا له واجهة كتب عليها بخط أبيض منمق «البيت العظيم» ويتكون من ثلاثة طوابق، ومصنوع من الخشب، ومطلي باللون الذهبي الغامق. وله ثلاثة أبواب من الخشب السميك لونهم ذهبي، وكان أكبرهم الباب الأوسط، (والأبواب) مزخرفة بعدة أشكال تنوعت بين الشمس، والقمر، والنجوم، وفي منتصف كل باب مقبض حديد على شكل يد، وكانت الأبواب تنتهي بنصف دائرة من فوق. وكانت هناك عشرة شرفات واسعة في الطابق الثالث، تستقيم كل شرفة على عمودين خشب ضخمين، واحد في اليمين

والثاني باليسار، وأسفل هذه الشرفات في الطابق الثاني كانت توجد خمس نوافذ مفتوحة، ومربعة الشكل ومزخرفة بالنجوم، ومثبت فوق كل نافذة قطعة عريضة من الخشب تحمي مَن يقف فيها من ضوء الشمس.
وكان البيت يرتفع عن الأرض بحوالي ثلاثين مترًا، وينتهي من فوق بسقف مثلث من الخشب، وعلى السقف تثبت عمود خشبي سميك ينتهي بعلم أحمر مصنوع من القماش ويحركه الهواء. والتف حول البيت عشرة أبراج خشبية ترتفع عن الأرض بمقدار عشرة أمتار، ويقف في كل برج ثلاثة حراس يمسكون آقواسًا وأسهمًا في آياديهم، ويوجهونها ناحية أي شخص يقترب من البيت. وأمام أبواب البيت تفرق عدد كبير من الحراس الذين يحملون السيوف والرماح ويقفون للحماية. ولما رأى الحراس، الصياد ويدفعه حارس من الخلف، اقترب منهم حارس بدين يظهر عليه كبر السن، وتحدث مع الحارس القوي بصوت خفيض، ثم أشار إلى ثلاثة ليأخذوا الصياد والحارس إلى الداخل. واقترب الصياد من البيت بعدها بخطوات بطيئة، مُحاط بالحراس، وصعد على خمسة درجات من الخشب تفصل البيت عن قمة الجبل، ثم فتح حارس الباب الأوسط بيديه، وأصدر صوتًا ينم عن شدة ثقل الباب، ودخل الجميع. في البيت كان الهواء مفعمًا برائحة ورد مُنعشة تحمس الفؤاد على الحب والسكينة، وحينما استنشقها هدأ قليلاً، وسار مع الحراس في بهو واسع أرضيته مصنوعة من خشب بُني، ومقسم إلى مربعات صغيرة، وكان هناك أثاث قليل يتكون من ستة كراسي خشب، وطاولتين بنفس الحجم في مكانين مختلفين، وبجانب كل الجدران انزرعت أوعية من الفخار بها ورود حمراء، وفوق الورد بمسافة كبيرة خرج من كل جدار مسند خشبي مربع موضوع عليه وعاء فخار مستدير، به زيت غامق، وينتهي بفتيل سميك مشتعل بنار رقيقة، تضيء المكان ويتراقص ظلها على الأرض. وفي نهاية البهو كانت هناك بوابة كبيرة من الحديد، مد حارس يده وسحب مقبضها فانفتحت للداخل، ودخل الصياد والحراس وانعطفوا ناحية اليمين في ممر واسع، ثم إلى اليسار، ودخلوا في حجرة لها سقف عالٍ وخالية من النوافذ والأثاث ومفعمة برائحة طيبة، وزجوا به فسقط على الأرض، وخرجوا وأغلقوا بابًا

خشب عتيق وقويّ خلفهم. حاول النداء عليهم فخرجت كلماته مبعثرة ليس لها فائدة أو غاية. نام بظهره والتدهور يحملق فيه بتركيز، والموت يحلق فوق رأسه وينتظر خروج الروح بفارغ الصبر. وسقط الصياد فجأة في بئر أسود فيه أبقار ضخمة اكتنفته، وبللت حلقه باللبن حتى لا يموت. وبعدها بدقائق فتح الباب ووضع للصياد وعاء مليء بالماء، ووعاء آخر فيه لحم وقطع من الخبز الشمسي الأبيض السميك، اشتمت أنفه رائحة الطعام الشهية، فاستيقظ وزحف كالأطفال لأنه لم يقدر على الوقوف، والتقط وعاء الماء ويداه ترتعش، وتجرعه ببطء، وكان الماء يسقط عليه، وبعدما أنهاه، أمسك العيش والتهمه مع اللحم الطازج اللذيذ، ارتوى حلقه، وارتضت معدته، وهدأ الصداع الذي كان يزلزل رأسه لانخفاض ضغط الدم. اتضحت الرؤية قليلاً، وانفتح الباب للمرة الثانية، ودلف منه شخص يرتدي ثوبًا ذهبيًا مصنوعًا من الحرير، وفوق الثوب سترة قرمزية خفيفة، وفي رأسه تاج فضي في منتصفه حجر أزرق يلمع جراء انعكاس نيران أوعية الحجرة عليه، واقترب حارس من الصياد، ورفعه ليقف أمام هذا الشخص الذي حدثه باستحقار.

-ملامحك غريبة، من أين أتيت؟

مسح عينيه ووجهه، ورد بحشرجة:

-الإسكندرية.

نظر الحراس لبعضهم وتخللتهم الحيرة، فسأله ذو السترة القرمزية بتعالٍ:

- أنت مجنون؟ ما هي الإسكندرية؟

ثم أشار للحراس فخرجوا، وسقط الصياد على الأرض، وأردف:

-تحدث وإلا قطعت رأسك.

-أتيت من الإسكندرية.

فتح الصياد عينيه بصعوبة ورأى محدثه، كانت بشرته بيضاء، وعيناه عسليتين، ومتوسط الطول، وجسده مليئًا بالعضلات، ويظهر من ملامحه أنه في العقد الثالث من عمره.

-لماذا جئت، وفيما تطمح مِن جزيرة الجد الأعظم؟

-تحطمت مركبتي، وسبحت ليومين أو أكثر في البحر، ووجدت نفسي على شاطئ الجزيرة.

- لا تراوغ.

- لا أخشاك، جئت من الإسكندرية لأن سفينتي تحطمت، هذه الحقيقة.

اغتاظ من هذه الكلمات، فقال للحراس في الخارج:

-أرسلوه حيًا إلى «الجراكو»، ولكن اقطعوا قدميه أولاً.

كان الصياد فغر العينين ويسمع ما يقال بانتباه، ودنا صاحب الرداء القرمزي من الباب وودعه بسخرية:

- جئت من الإسكندرية، أو كنت سمكة تحولت لإنسان، لم يعد لهذا منفعة.

وقبل أن يذهب جاء حارس يلهث، وقال له بأدب:

-أيها المُعظم الصغير، قضينا على الكائنات التي سيطرت على الجزيرة، ولكن هناك مشكلة، جزء من الكائنات هرب إلى منطقة الأرض الزراعية، واختبأوا داخل الطين، حاولنا قتلهم أو السيطرة عليهم، لكن الأمر استحال.

-أستطيع قتلهم دون عناء أيها المُعظم.

كان ذلك صوت الصياد، فنظر له الحراس، والمُعظم قال:

-لا تماطل.

استند على الأرض ووقف، وفتح جيبه السري في سرواله القماش الممزق، وأخرج مسدسه «اللوجر»، واستعرضه:

-هذا السلاح يقدر على قتل أي شيء، يقدر على قتل السيف نفسه، أو الجراكو الذي صم صراخه آذاني.

أخذ المُعظم المسدس وتأمله وعلامات الدهشة تستهل عقله وعينيه بسبب تفاصيله الغريبة التي لم يرَها من قبل، وكان لونه فضيًا ومسورته أقصر من يده الخشبية، وتنتهي بجزء صغير يرتفع إلى فوق. ومدون على المسدس من الخلف بعض الكلمات الإنجليزية الصغيرة. انتهى المعظم من معاينته، وقال:

-أرني كيف يعمل؟

-به مشكلة صغيرة.

-أنك كاذب صحيح؟

-المسدس لن يعمل لأنه ابتل بالمياه.

قطب المُعظم حاجبيه، ووضع يدهُ على منكب الصياد، وقال بصوت منخفض حتى لا يسمعه الحراس:

-وكيف تساعدني به ما دام لا يعمل؟

-أستطيع صناعة الكثير، وتدريب الجنود عليه.

- جنود؟

- مَن يقفون حولك.

-يدعون حراسًا وليسوا جنودًا، وأنت كاذب.

التفت إلى حراسه وأردف:

-هيئوا الغريب بإتقان، ولتجعلوه أجمل من أجمل عروس ستزف لزوجها

هذه الأيام، وبعدها ضعوه في غرفة الكاهن، وخلال يومين ترسلوهما معًا إلى «الجراكو» بعد تصديق جلالة الملك على الفرمان الرسمي.

تبسم للصياد وأخذ المسدس واسترسل:

-هذا ذكرى جميلة منك، وداعًا.

سار المعظم بعيدًا عن الصياد وتحرك إلى الناحية الأخرى وخلفه جزء من الحراس، ودفع الصياد ثلاثة حراس بالقوة إلى حجرة مجاورة، أبى الحركة، فجذبوه بعنف، لكن أوصاله الشديدة وقفت حائلًا يمنعهم، فرفعه حارس على ظهره وأدخله إلى حجرة رائحتها منعشة، وبها حوض استحمام ومنشفة بيضاء. وأغلق الحراس الباب ووضعوا الصياد في الحوض، وقد أذعن لهم، ولم ينبس بكلمة اعتراض، رغبة في تطهير جسده. خلع حارس قصير ملابسه المهترئة، وأوقفه بلباسه الداخلي الأبيض، وأمسك الحارس بدلو مليء بالماء وأغرقه، ونظفه من الاتساخ بقطعة من لوفة صفراء خشنة، ألمت الصياد واقتطفت جزءًا من شعر جسده، وحل عليه الوجوم، لا جدال، ولا نقاش، ولا شيء سوى التفكير في زوجته وابنه والبحر الغادر، والمركبتين اللتين تركهما خوفًا من الغارات. ورأى «تومكس» والده يشاور له من بعيد بقلق، ثم أغدق عليه بخمسة أسماك فضية ضخمة بلا عيون، ويلمعون في فضاء شاسع خال من المجرات، وخلف والده وقفت والدته بظهر مقوس، ورنت إليه بعين غرقت في الدموع، وفؤاد يشتاق إلى احتضانه. مدت ساقيها لتقترب منه، لكن منعتها سلسلة حديدية كان عليها ثعابين نحيفة، لونها أبيض وعلى ظهورها نقاط حمراء صغيرة، انتزع والده السلسلة عن والدته لتتحرر وتذهب إليه، فثارت الثعابين، واخترق صوت فحيحها الزمان والمكان، فاهتزت الصورة أمام الصياد، وتدلى والداه في بحر أبيض مليء بدلافين تضحك بصوت عالٍ، وتسبح في البحر بفرحة عارمة. ووجد فجأة سدًا ضخمًا يمنعه من رؤية والديه، وهما يجلسان على ظهر دولفين كبير، وحاولت والدته العودة له مرة أخرى لكنها فشلت، فبكى بشدة كالأطفال... وكان الحارس ما زال يزيل عنه الاتساخ، ويغسل جسده من وقت لآخر

بالماء، وتجمد الصياد وتلعثم في مياه الحوض وكاد يسقط لولا أن الحارس لحقه. وعاد لخيالاته ثانية، ورأى نفسه صغيرًا وعاريًا ويقف في حمام بيته بحارة اليهود، ووالدته تنظفه من الصابون وتقول:

-كف عن الحركة لننتهي، أبوك سيأتي الآن بكحك العيد.

-المياه سُخنة.

-استحمل.

تبدل المشهد، وشاهد نفسه يقف ويحلق ذقنه وسماح زوجته تغسل ملابسه وتختلس النظرات له، والخجل يظهر على عينيها، فقال لها أثناء غسيل وجهه بالماء:

-لازلتِ تخجلين مني؟

-أنا حامل.

-حقيقي؟

اختفى من المشهد بعد جُملتها، وظهر ابنه مرعي حينما كان صغيرًا، وسماح تقوم بغسل رأسه بالماء لتزيل عنها الصابون، وكان مرعي يضحك فقالت له بعصبية:

-اثبت.

-لا.

انفجر مصباح الحمام الكهربائي وتطايرت أجزاؤه الصغيرة في الهواء واختفت الإضاءة، فانتفض الصياد وسمع أصواتًا كثيرة مبهمة، دقق فيها بعقله فأيقن أنها له ولزوجته وابنه في وقت واحد، واختفت الأصوات بعد ثوان، وظهر صوت انغلاق باب شقة، وعادت إضاءة الحمام من جديد وظهر المصباح الكهربائي يلمع، ويحارب الظلام بسوط ثقيل من الجلد. وسار إلى الحمام الصياد ومعه فتاة بدينة، في بداية عقدها الثاني شعرها طويل يصل إلى منتصف جسدها، وعيناها مُغريتان ترغب في قطفهما،

وانغمس الاثنان في رحلة طويلة، حيث كان يحلق فوقهما اللون الأحمر الداكن، وبعد وقت سألته:

-أين سماح ومرعي؟

-عند أمها.

ثم عادا لرحلتهما مرة ثانية.

***

-تحرك أيها الغريب لترتدي ملابس جديدة.

اختفت الأحاديث، والشخصيات، والذكريات الكثيفة، ووجد الصياد الحارس يخرجه من حوض الاستحمام ويجفف جسده بالمنشفة، ثم أعطاه سروالا قصيزا وسترة من القماش، ارتداهما وعيناه كانت تحاول استرجاع الأحداث التي رواها فؤاده الكئيب، لكن الأمر لم ينجح.

***

في بهو الطابق الثاني للبيت العظيم، كانت النيران تتلاعب في الأوعية المليئة بالزيت وتصنع ظلالاً مستديرة لونها قاتم، وتنساب بسهولة على الأرض الخشبية، وكانت رائحة البهو هادئة، ويختلط بها يود البحر الذي يرنو من الخمس النوافذ المفتوحة على مصراعيها، ولم يكن هناك ورد بجانب كل حائط مثل الطابق الأول، بل سيوفًا ودروعًا لها بريق خاص وزعت على الجدران. وتحركت في البهو قدم رقيقة ترتدي حذاءً من الجلد، فأصدرت الأرض صوتًا غير مزعج، ثم جلست صاحبة القدم على كرسي خشبي أمام نافذة من الخمسة، ونظرت منها فرأت الموج والبحر يضمرهم الظلام، لكن الموج أبى الاختفاء، فكان صوته عاليًا، وينادي ويقول أن الظلام أخفى شكله، لكن لم يستطع كتمان صوته. والوجوم كان له مفعول سيئ على وجهها المليء ببعض التجاعيد أسفل العينين، وفي منتصف جبينها، نظرًا لاقترابها من العام الثالث بعد الخمسين. حاولت أن تلوذ بخيالها وتسافر عبر البحر على سطح مركبة صخرية ثم تعود ومعها

حل لما حدث اليوم في الجزيرة، فعصفت بها الرياح ووضعت مركبتها في طريق ينتهي بدوامة سريعة، تستطيع التهام قارة كاملة. تأملت ملابسها المصنوعة من الحرير، والرداء القرمزي الذي يظهر قسمات جسدها القريب من السمنة، والخاتم الذهبي الذي آخذته من والدها يوم زفافها على ملك الجزيرة، وكانت سعيدة به وترتديه حتى الآن في يدها اليسرى. وشعرت أنها لا تستحق شيئًا، ولن تستحق أي شيء لو لم تقضِ على مشاكل الجزيرة في الفترة الأخيرة، والتي تفاقمت كثيرًا نتيجة لازدياد رغبة السكان في الخروج بعيدًا، عن السور الذي يفصل الجزيرة عن العالم، ويكتشفون البحر وما فيه، ويدركون ماهية الأشياء... استمعت إلى صوت أقدام ثقيلة تقترب منها، فرنت بنظرها ناحية مصدر الصوت ثم عادت للبحر.

-أعتذر عن تأخيري يا جلالة الملكة.

-حدثيني بما تحملينه.

قالتها ونظرت إلى الفتاة التي تكلمها، وكانت ترتدي سترة طويلة من القماش تصل إلى أسفل ركبتها، وفوقها جلد أسود بداية من منكبها حتى معدتها، ويلتف حول جسدها جلد سميك ينتهي من اليمين بغمد به سيف، وكان شعرها قصيرًا وبنيًا وتُفرقه خصلات صفراء من منتصفه، وبشرتها تقترب من السمار بقليل. وبدأت في الحديث بصوت حاد قائلة:

-اليوم بدأ بغضب كبير من السكان، وطالبوا بالخروج من الجزيرة لاكتشاف البحر، حاول الحراس تهدئة الوضع، ولكن وجدوا بعض السكان يستخدمون السيوف والخناجر ويهجمون عليهم، فوقع شجار عنيف بين الطرفين.

قامت الملكة من كُرسيها، واتجهت ناحية طاولة كان فوقها وعاء مليء بالتبغ وبجانبه غليون خشبي مزخرف، ومجموعة مصفوفة من العيدان الخشبية البيضاء، آمسكت الغليون ودست فيه القليل من التبغ، والتقطت عوذًا واقتربت من وعاء مشتعل بالنار وضعت فيه العود، فاشتعل وقربته

من التبغ، وسحبت أنفاسًا بسيطة، وأخرجتها من فمها، وقالت:

-أكملي يا تاليا، فالأمر بات جازمًا بالشر السحيق.

-سيطر الحراس على الوضع، وسادت فوضى شديدة في بعض أركان الجزيرة.

-وماذا عن الغرباء الذين هربوا في سفينة ضخمة قبل هجوم الكائنات بلحظات؟

نكست رأسها ناحية الأرض، وزادت ضربات قلبها وهي تقول:

-هربوا.

ضحكت، وضرب الهواء شعرها الطويل فتطاير، وألقت بالتبغ المتفحم من النافذة ثم وضعت تبغًا جديد وأشعلته.

-تعلمين يا تاليا؟ لا أرتاح أنا والملك منذ فترة، وشعرنا بقوى كائنات الظلام تُحلق فوق الجزيرة، ولكني مندهشة ماذا كان يريد هؤلاء الهاربين من الجزيرة وسكانها؟ ومن أين أتوا؟ من قاع البحر مثلاً؟ وما الفائدة التي وصلوا لها؟، الأمر مترابط ببعضه، ولا يستعصي فهمه، غرباء يعيشون بيننا لفترة دون أن نكتشف، وبعدها يثور السكان ويقع الهجوم العنيف، وتدمر الجزيرة بلا ثمن.

- لدي معلومة مهمة تفك شفرة ما وقع.

أخرجت دخانًا من فمها وسألتها:

-ما هي يا تاليا؟

-استطاع الحراس القبض على عجوز تابع لهؤلاء الغرباء، قبل أن يهرب معهم في السفينة الكبيرة التي كانت تنتظرهم على مسافة من الشاطئ.

-جيد للغاية، من السهل استجوابه ومعرفة أهدافه الطاغية.

-بالفعل بدأ الحراس في ذلك ولكنه متشدد، وباله طويل، ورغم أن الورع

يظهر عليه إلا أنه قوي اللسان، ويمتلك ذكاء شديدًا يمكنه من أن يلوذ إلى سبل تفيض بالاتساع.

وضعت الملكة الغليون فوق الطاولة، ووقفت في النافذة تستنشق اليود المحبب إلى قلبها، وقالت:

-إن صمد عقله في الهروب من الإجابات، لن يصمد جسده من العذاب المبرح. اذهبي الآن يا تاليا وتابعي، وأخبريني بالحصاد سريعًا في أي وقت، ولا تخبري أعضاء منظمة «اليد المطهرة» بحصادك الكئيب إلا بإذني.

-أمرك.

وضعت يدها اليمنى على صدرها تحية للملكة، وانصرفت تضرب الأرض بقدمها الثقيلة، وكانت الملكة تنظر لها في إعجاب بحماسها، وقدرتها على جلب الأخبار وسردها. زاد الهواء الذي يأتي من البحر فجأة، وكانت الملكة تلمح كائنات ضخمة تتحرك في البحر أسفل ضوء القمر الضعيف الذي ينعكس على سطحه، وشعرت بالخوف، وأغلقت النوافذ، ثم خرجت من البهو وأغلقت البوابة الحديدية الكبيرة التي تفصله عن حجرة الطعام، تحسبًا لأي هجوم أو خطر قد يأتي.

***

في الممر الواسع الذي تقع فيه حجرات النوم الخاصة بالملك وأسرته، سار شخص طويل ومتوسط الوزن، ويرتدي ثوبًا ثقيلًا يغطي جسده بالكامل، وفوقه سترة حربية من الجلد بلا أكمام، وحذاء من الجلد، وشعره أسود، ويضمر نفسه من حائط للثاني ليتخفى، ووصل لحجرة دون على بابها الخشبي رقم عشرة، وأسفل الرقم كُتب بالذهب «المعظمة الصغيرة، ابنة الملك». فتح بابها ودلف ثم أغلقه، كانت الحجرة واسعة وتسبح في الظلام، وبها مصدر إضاءة وحيد على الحائط الأمامي. تحرك وحذاؤه المصنوع من الجلد يحدث صوت احتكاك خفيف، ووقف أمام سرير في منتصف المكان، تنام عليه فتاة في العشرينيات، وجهها صافٍ وأبيض، وشعرها مضفر، وترتدي قميص نوم قصير وشفاف يظهر أجزاء من

جسدها المتناسق، شعر أن هناك قوة تدفعه لذبحها ثم انتهاكها بعنف، مرر يديه على شعرها ووجهها ثم لامس معدتها، فتحت الفتاة عينيها وتراجعت للخلف وسارت فيها رجفة، فقال:

-اهدئي، تزدادين جمالاً، وجسدك يزداد تفاخرًا بما يضمه من فواكه.

-ماذا تريد؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

اعتدلت بعدما قالتها، وقامت من السرير وارتدت سترة لتغطي بدنها.

-أريدك أن تسكني نجومي، وعن وصولي لهنا فلا تنسي أنني ضابط في القوات الملكية، وضباط القوات لا يستطيعون كتمان حبهم للجمال، وأنتِ جميلة.

-اتفقنا على ألا تأتي إلى هنا بالأمس، لماذا لا تنفذ رغبتي؟

-عطرك، ورائحة شعرك، والحب، جميعهم يدفعونني ناحيتك.

اغتاظت واحمرت عيناها، وقالت:

-يدفعونك ناحيتي؟ لكنك لا تعلم حقًا ماذا يمكن أن يدفعه حب أبي لي إذا علم بعلاقتنا التي طالت، ولا أرى لها نهاية سعيدة.

-لا توجد نهايات سعيدة.

-أنت تهزي، ورائحة الخيانة لا تفارقك.

جذب يديها وقبلها، فتراجعت للوراء واصطدمت في الحائط وحاولت الابتعاد عنه، لكنه انهال عليها تقبيلًا في الرأس والفم، واستنشق عطرها المميز، ورائحة شعرها الطيبة، أغلقت عينيها وكانت تدفعه للأمام وهي غاضبة لكن عضلاته تصدت لها، خلع سترتها وألقى بها فطارت في الهواء، ولكن فجأة استمع لصوت أقدام تقترب من الباب، فابتعد عنها وهرب إلى أسفل السرير. فتح الباب ودلفت منه أقدام الملكة البيضاء وقالت لابنتها:

-أنتِ بخير؟

هزت رأسها في صمت والخوف يعتليها.

-وجهك خائف، وضربات قلبك تتسارع، في ماذا تفكرين؟

جلست على سريرها وبكت، فاقتربت منها الملكة، ومسحت شعرها بيدها، وأردفت:

-لا تبكين، الجزيرة ستعود مثل السابق، وما بدأ سيزول.

-سيزول حقًا؟

-نعم أيتها المعظمة الصغيرة.

قطع حديثهما صوت باب يغلق أسفل السرير، فمالت الملكة بجسدها ونظرت، ووجدت باب الخندق المخصص للحالات الطارئة مفتوح.

-هل كان معكِ أحد؟

هزت الفتاة رأسها بالنفي، فضحكت الملكة بخبث، وقبلتها من خدها، وذهبت إلى الباب وقبل خروجها قالت:

-لا تنسي موعد فطور الصباح كعادتك.

-لن أنساه يا أمي.

خرجت الملكة، ومسحت الفتاة عينيها من الدموع، وتفاقم اضطرابها الداخلي لأن عيون والدتها ستقول الكثير خلال الأيام المقبلة.

***

سارت الملكة في ممر الحجرات، وأنهته وقبل أن تغير مسارها لاحظت على الأرض شارة حمراء خاصة بضباط القوات الملكية، ومدون عليها اسم «الغازل»، فتحجرت عيناها وكادت تنفجر من الغضب، وأخذتها ووضعتها في ملابسها وانصرفت منزعجة.

***

قل نشاط الأمواج فوق سطح البحر، وظهرت الشمس في السماء يمتطيها الشجن، وانبعث ضوؤها على البحر، فلمعت مياهه المليئة بأعشاب وقواقع وكائنات ضخمة تنغمس في القاع، وعلى الرمال فبانت أكثر بياضًا، وعلى سور الجزيرة فظهر شاهق الطول، ولونه الرمادي يُغالب الشمس، وسطحه عريض وبه مجرى واسع يسمح بسير ثلاثة أشخاص بجانب بعضهم، وكانت هناك رسومات على السور لشخص يمسك سيفًا ويرفعه لفوق، ويحتك بالشمس، وخلفه مخلوقات تشبه البشر، وظهرها مقوس، والشر يتطاير من عيونها. وقد وقف على سطح السور حراس وضباط من القوات الملكية متفرقين، وبينهم مسافات مختلفة، وكان الهواء قويًا ويجرف الرمال، فتتهاوى في المياه الزرقاء، ويحرك الأعشاب الخضراء التي غطت جزءًا كبيرًا من الشاطئ، فتطير وتسقط على مجموعة صخور، سطحها فضي ويتناثر عليها لون أبيض مثل جوز الهند، ومن الأسفل لونها أسود داكن. وبعد مسافة من رمال الشاطئ ارتفعت قليلاً عن سطح البحر جزيرة صغيرة للغاية مليئة بأشجار يافعة، لكنها محطمة، وسقط بعضها في المياه كأن حربًا خطيرة وقعت، أو رياح عاتية دبت في أوصالها. وخلف الأشجار المحطمة كانت تجري الكائنات السريعة التي تشبه العناكب، وفجأة توقفت وأكلت بعضها بعنف، فضجت الجزيرة الصغيرة بأصوات صراخهم، وتصارعهم على قتل وأكل بعض. وعلى السور وقفت مجموعة حراس يتابعون ما يقع في الجزيرة الصغيرة بعيون متحجرة، وحيرة تتجدد بمزاولة العمل في هذا المكان، وكان صوت صراخ الكائنات يضربهم برصاص في أذانهم، ويغتصب طمأنينتهم، ويؤكد لهم أن الموت قريب لا جدال، ولا هرب، ولا منفذ سوى الاشتباك مع هذه الشياطين الصغيرة للتحرر، أو للمصاف مع الجد الأعظم إلى اللانهاية.

وسط الحراس وقف ضابط يدون ما شاهده ليلاً، وما يراه الآن بريشة على ورقة بردي مستطيلة وحوافها متقطعة. وكانت الكائنات في الجزيرة الصغيرة تأكل بعضها وتتطاير دماؤها السوداء على الرمال، حتى ماتت كلها وتبقى اثنان فقط. تصارعا ففصل واحد منهما رأس الثاني، ثم أكلها وصرخ كأن الصراع لم ينتهِ، وقفز بعدها في البحر فلوثه بالدماء. وبعدما

أنهى الضابط ما يدونه، وضع الورقة في جيب سترته، ومسح حبات عرق استوت على جبينه، ووضع سيفه في الغمد، ونزل على سلم خشبي يرتفع من الأرض حتى السور، ليصعد عليه الحراس والضباط، وركب حصانه الأبيض وانطلق إلى البيت العظيم.

***

في حجرة الطعام توسطت المكان مائدة خشبية مليئة ببعض الشقوق الصغيرة، وضعت عليها الخادمات أوعية فخار، بها جبن ناشف عليه قطع طماطم صغيرة، وبيض مسلوق، وخبز شمسي يصعد منه البخار، والكثير من الخيار، والفلفل الأخضر، والخس، وشرائح لحم بقري خفيفة، وقوارير مصنوعة من الخزف، عليها زخارف لونها كاكي ومليئة بنبيذ تفوح رائحته في الأرجاء، وغلايين للتدخين، ووعاء تبغ، وعيدان خشبية، وأربع مناشف من القطن. انتهت الخادمات من تجهيز مائدة الإفطار للملك وأسرته، وذهبوا إلى المطبخ لتجهيز طعام الغداء، وبقيت واحدة لمساعدة الملك إن احتاج شيئًا، كانت بدينة وبيضاء، وشعرها غجري، وترتدي ثوبًا أبيض واسعًا يغطيها بالكامل، وتجز على شفتيها وتمرر لسانها على فمها وهي تقف على مسافة قريبة من المائدة... حضر الملك، وخلفه بعض الضباط والحراس، فأشار لهم دون أن ينبس بكلمة، فذهبوا، ودلف ناحية المائدة بتاجه الذهبي الأنيق، وكان جسده طويلًا وبدينًا، وله معدة كبيرة حينما يتحرك تتدلى منه كأنها ستسقط، وشعره أبيض ومهندم، وذقنه قصيرة وكثيفة. جلس على المائدة يتفرس الطعام بسرعة ليتأكد أنه كامل، ووقفت خلفه الخادمة البدينة، واستنشقت عطره المميز، وحاولت جذب نظره، فلم يعرها أدنى انتباه. دخلت الملكة برداء فضفاض فاتح يصل إلى أسفل ركبتها، ورأسها تزدان بالتاج الفضي، وكانت تجاعيد وجهها تزداد، وعيناها حمراوان لقلة النوم، وجلست بجانبه، ثم تلا ذلك دخول المعظم الصغير، وشقيقته التي كانت تقطب حاجبيها وتهرب من نظرات الملكة، وجلسوا جميعهم على الطاولة.

-فلنشكر الجد الأعظم على هذه النعمة قبل الأكل، ونطلب صلاحه يحل

وسطنا الآن، ويطهرنا من كل دنس، ومن كائنات الظلام الدامية.

قالها الملك وأغلق عينيه، ورفع يده إلى السماء، وبعدها أكلوا، والملكة تتابع ابنتها بتكهن، والمعظم الصغير يتابع الخادمة بغضب لأنها اقتربت أكثر من اللازم منهم، وعيونها تفضحها وتسرد قصة فظاظتها في تقديم نفسها للملك، رغم أنها متزوجة منذ ثلاثة سنوات. انفتح باب الحجرة، ودلف منها الضابط الذي كان يتابع الكائنات فوق السور، ووقف عند الباب، فقال له الملك وهو يلتهم بيضة:

-اقترب وقص سريعًا ما وصلت إليه.

-أزال الحراس جثث الكائنات من الجزيرة، وألقوا بها في البحر، ومددنا السكان بالأدوات اللازمة لإعادة ترميم وبناء بيوتهم، واستدعينا كل الحراس والضباط من الإجازات، وجميعهم في وضع الاستعداد.

نظر الملك لقارورة نبيذ، فأسرعت الخادمة وصبت له القليل في كوب فخار، تجرعه وتساءل:

-وماذا عن الكائنات التي سيطرت على الأرض الزراعية؟ وهل هناك كائنات في مناطق أخرى؟

-نحاول طردهم، وعن المناطق الأخرى فهناك عدد كبير داخل البحر، وهاجمونا في الربع الأخير من الليل وحاولوا اختراق السور، أطلقنا الأسهم المشتعلة، وألقينا عليهم الزيوت الخضراء الحارقة، وأجزاء ضخمة من الحجارة، فمات جزء منهم، والباقي هرب إلى البحر، وساعدنا في التغلب عليهم شدة ارتفاع السور واستحالة تسلقه.

-وماذا إن اقتحمت الأسوار؟

-سنبذل...

وقف الملك وقاطعه بحدة:

-لا تقل لي سنبذل قصارى جهدنا لأنكم ستكونون موتى ويدفع السكان

الثمن، وتسمى جزيرتنا بـ«جزيرة الفقد»، الزوجات تفقد الرجال، والأطفال يفقدون الآباء، وأنا أفقدكم، لا بد من وضع خطة حازمة وإلا قطعت رؤوسكم.

-أمرك يا جلالة الملك.

-إن لم تأتِني اليوم بحل سيقطع الجد الأعظم رقبتنا.

لم يأكل المعظم، ولا ابنة الملك، أما زوجته فكانت تتابع الحديث وهي تغلق جزءًا من عينيها، وتضع قطع الطماطم بهدوء في فمها، ثم تدخلت في الحوار:

-وماذا عن العجوز؟

-يرفض الكلام، ويطلب الطعام، ويحدث الحائط، ولا يذعن لنا يا جلالة الملكة.

وضعت الملكة ساعدها على منكب المعظم، وقالت بخبث:

-قم بواجبك أيها المعظم.

فنظر إلى الملك، وسأله:

-هل تسمح لي يا جلالة الملك باستخدام طريقتي؟

ضحك وتردد صدى صوته في المكان، وقال:

-لك كل الصلاحيات يا بني، ولكن لا تقتله.

-سأذيقه طعم الموت دون أن يلمسه، ولكن أحتاج بأن اجتمع مع رؤساء الدواوين أولاً.

هز الملك رأسه بالموافقة، واستأذن المعظم منه وذهب مع الضابط. وانصرفت شقيقته بعدما قبلت رأس والدها، إلى حجرتها. وأمر الملك الخادمة بالخروج من الحجرة، وأخذ غليونًا ووضع فيه تبغًا وأشعله بعود من وعاء مشتعل، وناوله للملكة، وأشعل واحدًا له، وجذبها من يدها ليقفا

في النافذة التي تطل على البحر، وقال:

-وقت المراسم، وطلاء السور العظيم يقتربان، والأمور تتعقد.

أخرجت دخانًا تكور فوق رأسها، وتأملت وجهه الأبيض، وشكت في حديثه بكلماتها:

-تخشى من؟ أخاك، أم من فقد العظمة لشخص ثانٍ؟

مرر يده على شفتيها واقترب منها:

-لا خوف من أخي لأنه لا يريد الجزيرة، الخوف من الثاني المجهول.

-لا وريث ثانيًا للكرسي سوى المُعظم.

راح ليضع تبغًا في غليونه، فأردفت:

-لن نسمح بهذا حتى ولو سقطت الشمس على الجزيرة، واختفى القمر، وأصحبت النساء ثكالى.

لم يسمعها بسبب صوت الموج الذي ارتفع فجأة، وعاد إليها ثانية بقوله:

-ما السبيل؟

-أنت مررت بنفس الظروف وقت حكم والدك، واستطعت غلق الأفواه.

-الوقت مختلف، وأنا الآن أقترب من عقدي السادس، ولكني لدي ثقة كبيرة في المُعظم، وإنه سيحفظ كرسي الحكم، ولن يزول عهد الجد الأعظم.

مسحت بيدها على شعر رأسه الأبيض بسخرية، والغضب يعتليها بسبب كلامه، ووضعت الغليون على طرف النافذة، وهمت لتمشي، أمسك بها وألصقها بالجدار وقبلها من فمها، وخلع جزءًا من ردائها، دفعته في صدره، وعدلت رداءها، وذهبت وقدماها تصدران صوت احتكاك عاليًا بالأرض، وظل وحيدًا يدخن الغليون أمام النافذة، ويتابع الكائنات الغريبة التي

تتحرك أسفل مياه البحر.

***

الفصل التاسع

ازدادت رطوبة الجو، وانتصف النهار، وكان صِبيان المقاهي يرشون المياه في الشوارع، والحارات، اعتقادًا أن ذلك يقلل من حدة الحرارة. ومَرت السيدات أمام المقاهي وهن يرتدين الملايات اللف، والبراقيع السوداء الخفيفة التي تداري الوجه، ويحملون اللحوم الحمراء، والأسماك، والدواجن، والخضروات في أوراق الكرافت البنية، وكانت رائحة هذه الأطعمة تداعب رواد المقاهي، وتدفعهم، فيتغزلون بأعينهم في السيدات، من أقدامهن التي يرتدين فيها الشباشب الزنوبة الذهبية، التي تنتهي بحواف بيضاء قبل النعل بمسافة بسيطة، وتصدر أصوات طقطقة عالية، وصولاً للعجائز، والمناطق العلوية للجسد، وما تحمله من أوزان خفيفة أو ثقيلة، والشعور المختفية أسفل الطرح السوداء، وتتدلى منها خصلات صغيرة، لها مفعول سحري على قلوب العاشقين.

وكانت الغارات انقطعت خلال الثلاثة الأيام الماضية، وهدأت الأجواء في الإسكندرية ومدن القناة. وعالميًا كانت الحرب مُشتعلة، خاصة بعد سيطرة ألمانيا على بلدان مهمة، ومهاجمتها لبريطانيا، وقصف لندن في السابع من سبتمبر، وتبعه سيطرة قوية للسلاح الجوي الألماني على بريطانيا، وقصفه لمناطق حيوية، مما قتل عددًا ضخمًا من المدنيين البريطانيين أسفل المباني المهدمة، ومن نيران الغارات الغاشمة. وفي مصر فشلت القوات البريطانية في السيطرة على الجرائم التي تقع ضد الجنود الإنجليز لسرقتهم، أو اغتصاب المجندات الإنجليز في الأزقة ليلاً وقتلهم بعدها. وقد ارتفعت أسعار المنتجات الأولية بشكل موسع وأذعن الناس للغلاء فلم يكن لديهم خيار آخر يلوذون إليه، ومع هجرة عدد لا بأس به من سكان

الإسكندرية خوفًا من الغارات، طلبت بعض المصانع والمحلات عمالًا بأجور غير مُرضية، لكنها توفي باحتياجات الجسد من طعام وشراب ودخان.

***

في إحدى الحارات الضيقة الموازية بالعرض لحارة اليهود كان هناك زحام كبير من السائرين، ورائحة العرق قاسية وتثير الضغينة، ويُخلق في الهواء صوت أم كلثوم من راديو أنيق، وضع فوق كرسي خشبي داخل دكان عطارة تكتظ مقدمته بعشرة جوالات تنوعت بأصناف عديدة، مثل الكركريه، والتمر المجفف، والشيح، والأحجار السوداء التي تستخدمها النساء في تنظيف أقدامهن، والفحم، والتوابل كالفلفل الأسود، والكمون، والقرفة، وجوزة الطيب، والحبهان المطحون. وكانت رائحة الدكان عبارة عن خليط من هذه الأشياء، وتصيب المار أمام الدكان بهيجان في العين والأنف. في الدكان وقف صبي لا يتعدى الأربعة عشر عامًا، يرتدي جلبابًا قصيرًا يصل إلى فوق ركبته، ويبيع اللب، والفول السوداني، والذرة المقرمشة، في قراطيس من أوراق الجرائد التي ابتاعها من كشك للصحف بثمن بخس، وخلفه التاجر اليهودي «أدين» ينزوي بمكتب صغير يناسب حجم الدكان، ويضع الأموال التي يجنيها صبيه في درج المكتب والغضب يعتليه، ويطمح في بيع الإسكندرية كلها لزيادة دخله، وأمامه الراديو ما زال يتغنى بصوت كوكب الشرق، وفوق رأسه تسمر برواز من الخشب، زجاجه يلمع، وبداخله صورة بالأبيض والأسود لرجل يرتدي بذلة واسعة، ورابطة عنق، ولديه نصف شارب ويقف «أدين» بجانبه، حينما كان في العاشرة من عمره. وخارج الدكان بقليل رصت على الأرض سبرتايات، وشيش طويلة وقصيرة، وسجائر مصرية وأجنبية، وكان مدون على كل منتج سعر بيعه.

وأدار «أدين» وجهه للصبي وقال:

-الفطار.

رد بصوت رفيع يشبه صوت المفصلات المزعج:

-جاي.

ثوان وجاء الحاج عزيز الخشن، وصعد خمسة درجات صخرية ووضع على الكرسي صينية مستديرة بها فول وفلافل وبطاطس وطحينة وليمون مخلل، وحيا «أدين» بابتسامة زهيدة:

- لا مؤاخذة، كان هناك زحام على المطعم فتأخر عوني ابني في تحضير الطعام لك، فقررت جلبه بنفسي يا خواجة «أدين».

كان يفصل بين أمواله ويقسمها لفئات من الصغيرة للكبيرة في الدرج، وقال له دون أن يلتفت:

- شكرًا.

انصرف عزيز واختفت ابتسامته، وقرر أنه لن يرسل طعامه لهذا التاجر المتغطرس لأنه لم يقدره بكلمة، أو ابتسامة بسيطة. اهتزت الأجواء بالتوتر، وتعلقت عيون التاجر الخضراء بالرأس المفترسة التي جاءت له، وقل عدد المارة في الحارة، ودخل العاملون إلى دكاكينهم يتابعون بصمت، والنساء وقفن في المشربيات المزخرفة، والمنقوشة، ويضعن البراقيع على وجوههن وينظرن بخوف، ورفع حميدو نبوته وهوى على واجهة دكان «أدين» فتهشمت، وهرب الصبي وسقطت القراطيس والأموال على الأرض، ووقف التاجر اليهودي بكبرياء لا يخشى عيون حميدو الحمراء، وزعق حميدو:

-عائلة الصياد تخصني، ألم أخبرك؟

نزل على الدرجات الصخرية، وقال:

-وما دخلي بهما؟

-تحدثني على القهوة، وبعدها بساعتين تزج بأشباه نساء على مرعي ليقتلوه، والآن تنكر وتتبرأ مثل الحية التي تبرأت من غواية آدم وحواء؟

خلع رابطة عنقه الحمراء، وفتح قميصه من فوق ليتنفس جيدًا، وقال:

-ما دليلك؟

-نبوتي الذي سأضعه في قلبك.

-لا أخشى رأسك ونبوتك ورجالك، ولا أخشى أحدًا، وأنت تفهمني يا معلم حميدو.

دري حميدو أنه يقصد بذلك علاقته القوية بمأمور القسم، فرفع نبوته لفوق وهوى به على مكتبه، وطارت الأموال في كل ناحية، وصاح:

-تعالوا وخذوا أموال اليهودي، واصرفوها على الخمر والنساء لأنها حرام.

جرى أربعة شحاذين كانوا يفترشون زاوية الحارة اليسرى، وأخذوا الأموال، وضحك حميدو بصوت عالٍ.

- ما وقع كان مدبرًا من شخص تعرفه، ويدي لم تمس مرعي ولا غيره.

-لا تهزي، نبوتي المرة الثالثة سيكون في .....

-دعنا نجلس، وسأثبت كلامي.

-وإن لم تثبت؟

-أترك لك هذا الدكان.

-والإسكندرية كلها.

-لنجلس.

التفت حميدو للناس وقال:

-خلصنا، كل حي يروح لحاله.

جلسا بعيدًا عن الدكان لأن أنف حميدو لا تتحمل رائحة التوابل، وأشعل «أدين» سيجارة وقدمها لحميدو، فرفض وطلب شيشة، أشار لصبي القهوة ليجلب الشيشة، وتنهد ثم قال:

-علاقتي بالمأمور يا معلم حميدو مثل الشيشة والفحم، وأي شيء أريده

يقدره بالمال، ولا أرفض، لذا الزج بأشباه النساء ليست طريقتي، وأنا هنا منذ سنين وأنت تعرفني، ولم أتأخر عليك يومًا في إتاوة.

-صحيح.

وضع الصبي الشيشة أمام حميدو ورتب الفحم المشتعل على بعضه وناوله «اللّيّ» وانصرف، شد حميدو أنفاسًا طويلة، وكان «أدين» ينتظره، وقال وهو يراه يخرج الدخان من أنفه بتلذذ:

-الحفناوي من مصلحته التضييق على مرعي ووالدته، ولا تنسى الشجار العنيف الذي وقع بينه وبين «تومكس» في الأنفوشي بحلقة السمك، ووصلت أخباره إلى الإسكندرية كلها، ووطئ بعدها العار ظهر الحفناوي.

-صحيح.

-لذا فأنا لدي عندك حق على ما فعلته اليوم، أنا أريد شقة الصياد بالفعل لتحويلها إلى دكان عطارة، لكن لن يصل الأمر إلى قتل ابنه، فالدماء إن طالت التجارة تتحول إلى خراب، خراب فقط.

-كلامك منمق ورائع، ولا تُعيبه شوائب، أو تُعكره رياح مؤذية، ولكن خاطري يكذبك، وإن ثبت صدق ذلك لن أترك رأسك سليمة، سواء أنت أو والدتك القعيدة التي تعيش معها في محطة الرمل.

تبسم «أدين» بخبث، واهتز داخليًا لأول مرة منذ وجود حميدو، لكنه أخفى ذلك وقال:

-مركبة تجارتي بعيدة عن ما حدث لمرعي، وتأكد أنها لا ترسو أبدًا على شواطئ تُغطيها الدماء.

-ما زلت أصر أن كلامك المنمق هذا، سبب ما تملكه من أموال، سلام.

***

وصل حميدو لحارة اليهود ووقف أمام بيت الصياد وقال:

-مرعي، يا مرعي.

سمع صوت باب يفتح ويغلق، ودخل مرعي من بوابة البيت، وعبر الحائط الطوب، فأمسكه حميدو من ذراعه وسحبه ليجلسا على القهوة.
تأمل حميدو جبين مرعي الوارم بعد اصطدامه بالعمود أثناء شجاره الأخير، وقال:

-أنت راجل حقيقي.

-شكرًا.

-أعتذر عن تأخيري أثناء المشاجرة، كنت في بيت بدرية لمساعدة فتياتها على فهم بعض المعاني الصعبة، حتى لا ينقطعن عن الذهاب إلى المدرسة.

ضحك حميدو، وتبسم مرعي قليلاً.

-مدرسة البغاء بكل تأكيد يا ولدي.

انفجر في الضحك، وتابعه مرعي بوجوم شديد، فأردف:

-أثبت أنك رجل حقيقي، وأنا لن أترككما بدون حراسة.

اندفع مرعي في الرد:

-لا نريد حراسة منك، تحرسنا وأنت قاتل جدي؟

قطب حميدو حاجبيه، وضرب بقدمه كرسيًا، كانت عليه أكواب فارغة يرتبها حسنين الصبي، فسقطت وأصدرت صوتًا مزعجًا انتزع قلب سماح، التي كانت تتابع حديثهما من خلف النافذة المغلقة بخوف شديد، وشعر مرعي بالخوف من ملامح حميدو الجامدة، وضخامته، وسمار بشرته، وصاح فيه:

-مقتلتهوش، ولا عمري قتلت شخص دون وجه حق. أنت الآن عليك عاتق توفير المال والعلاج لأمك، وتسديد القسط الأخير للحفناوي، وعليك بالعمل، فلن يساعدك أحد، ولا حتى حميدو قاتل جدك.

هرب مرعي بنظراته بعيدًا، ولم يرد عليه.

-أعطيك فرصة للعمل في محلات الأسماك التابعة لعائلتي وبيومية مُرضية.

-أتكفل بوالدتي وبنفسي، ووجدت عملًا مُرضيًا.

-أنت غبي وعنيد مثل والدك.

وقف مرعي بعصبية وقال:

-لا تتحدث عنه بهذه الطريقة، هو الآن في السماء، وذِكره بالسوء لن ينفعه.

-حسنًا، سأتركك كيفما تشاء، ولكن لا تنس علاج أمك، وقسط الحفناوي، وإتاوتي الشهرية ما دمت رجلًا وتكتنف نفسك، ومراعاة مني لصلة قرابتنا، رجب السحاوي سيحرسكما من الليل حتى الصباح.

تركه مرعي وانصرف إلى بيته ويداه ترتعشان، وانصرف الثاني ويضرب بقدمه طوب الأرض، فيتطاير ويصطدم بجدران البيوت التي سقطت أجزاءٌ منها بعد تبول الباعة الجائلين عليها.

***

انتظرت سماح دخول ابنها بعد حديثه مع حميدو، وحينما فتح الباب قالت ووجهها أصفر ومرهق:

-أنت مجنون كيف تجرؤ على محادثته بهذه الطريقة؟ ولماذا رفضت عرضه للعمل؟ رفضت أن أضعك في ضغط وأحملك المسئولية، وأطالبك بيومية عمل، وسألت الله أن يرسل لنا عونه حتى ولو كان بسيطًا، وأنت تتساهل في رزقنا؟

كاد ينفجر فيها، واستشاط غضبًا واستياء، لكنه تراجع حينما لاحظ أن الهالات السوداء تأكل عينيها، وخسرت نصف وزنها الذي كانت عليه قبل

اختفاء والده، فأغلق الباب وقال:

-أخفضي صوتك يا أمي، واهدئي، من الفجر سأبدأ في عمل مناسب.

لوت فمها وقالت:

-أي عمل تعرفه وأنت عمرك لم يتعدَّ الثامنة عشرة؟

-الصيد لا يعرف سنًا.

-ومن أين لك بخبرة الصيد والمركب والرخصة؟ وألن تكمل تعليمك؟

-المركب أخذتها من رفاعة صديقي، لأن والده قرر ترك حرفة الصيد، لكبر سنه، ورفض أن يأخذ ثمنها. وخبرة الصيد تعلمتها من والدي خلال العطلات الصيفية الخمس الماضية، أما عن الرخصة فبعض القروش كفيلة لسد طلبها، واشتريت شبكة الصيد، وليتنحى التعليم جانبًا.

جلست على كنبة الصالة المزركشة، فأصدرت صوت احتكاك خشب ببعضه، وخلعت طرحة رأسها السوداء، وقالت لمرعي وهي محنية الرأس:

-البحر لم يعد كما كان، والغارات تقسو عليه، وتحيطه بالخطر وتقتل شفته ومراكبه وتجلجل قاعه الهادئ، وبعدما تنتهي كل مرة، تسلب روحه الطاهرة وتثير غضبه، وتدفعه ليقسو دون أن يشعر على الصيادين. والدك مات فيه، ولا أعلم إن كانت جثته في القاع أم أكلتها الأسماك، لذ...

حل عليها الصمت فجأة، ولم تذرف عيناها دمعة واحدة، وتنهدت بصدر يرتجف، وأردفت وهي تنظر إلى مرعي بحنو:

- لن تنزل البحر حتى يعود حرًا.

جلس بجانبها وربت على شعرها الكستنائي ثم قبلها فوق جبينها، اشتمت فيه رائحة أبيه عندما تحسست يديه النحيفة الطويلة، وتأملت طوله.
وسحبها ناحية اللين بكلماته:

-لا تقلقي سأكون قريبًا من الشاطئ، والغارات عادة تأتي في الليل، وتترك

متسقًا في الصباح لينصرف الناس إلى حياتهم الطبيعية، ثم تعذبهم مرة أخرى في الليل، وتستمر العجلة، فلا تقضي الغارات علينا جميعًا لنرتاح، ولا نعيش حياة هادئة.

وضعت رأسها على كتفه وبللت قميصه الأخضر بالقليل من الدموع، فأكمل ليهدئها:

-ما رأيك في جولة ليلية ترتفع فيها النجوم فوقنا؟ ويتموج البحر أمامنا ويرسل إلينا رائحة يوده؟ ويتعلق في أيادينا الذرة المشوي، ويكون الجو مفعمًا بالسكينة، والهواء يداعبنا؟

-أتمنى.

اهتز البيت وسقط جزء كبير من دهان جدران الصالة الأبيض على البلاط المتهالك، ورفعت سماح رأسها ونظرت إلى مرعي بوجوم، اهتز البيت مرة ثانية وأحسا أن السقف سيدفنهما، ووضعت سماح الطرحة السوداء على شعرها وتأكدت من أن ملابسها فضفاضة لا تشف ما تبقى فيها من لحم، فقامت وجذبها مرعي وفتحت الباب ودلفا إلى الحارة، ودوت صافرات الإنذار في حارة اليهود والحارات المجاورة، وأسرع مرعي ووالدته إلى أقرب مخبأ ينزوي في الحارة الخلفية. وكان يجري عدد كبير من الناس المذعورة من المصريين، واليهود بملامحهم المتشابهة، والجميع كان يتصارع للنجاة بحياته، والأطفال يبكون ولا يدرون شيئًا، وركضت النساء حديثة الزواج بقمصان النوم الشفافة هلعًا وذعرًا إلى المخابئ القريبة، وتلعثم البعض في الأرض فوقعوا ثم انتصبوا بسرعة.

واهتزت الأرض أكثر من خمسة مرات، كأن جمعًا غفيرًا من الديناصورات هاجم المنطقة وقرر تدمير بيوتها. وكانت الطائرات الألمانية والإيطالية تحلق في عنان السماء، وتضع سيطرتها على البر والبحر، وصوتها عالٍ يصم الأذان لدرجة جعلت الناس يصرخون من شدة الصخب. وكانت المدافع الموجودة على الشواطئ تطلق نيرانها على الطائرات، فلا تصيبها، بل تصيب أذان الناس بصخبها. ودنا مرعي ووالدته من المخبأ وجعلها

تتقدمه وسار خلفها، ونظر وراءه فكان هناك بيت ينهار بكل سهولة كأنه مبني من الرمل، وانتشر في الهواء بعدها تراب شنيع حجب الرؤية، وصرخت النساء، ووجدوا الرجال يدفعونهم للدخول في المخبأ الذي ينغمس في باطن الأرض، ويندرج للأسفل بمسافة خمسة أمتار، وهرع مرعي إلى الداخل ومعه والدته حتى وصلوا لنهاية المخبأ، وكانت هناك رائحة كريهة تلفح المكان، والأرضية مصنوعة من مربعات البازلت، وتتوزع المصابيح الكهربائية على الناحية اليمنى. اقترب مرعي من والدته ووضع رأسها على صدره لتهدأ من الرجفة والخوف، وبعد ثوان نامت من التعب. وأرخى يده اليسرى على البازلت، فأحس بحركة غريبة في مجموعة من مربعاته، وضع رأس والدته على قدمه وحرك المربعات وأحس بشيء يتحرك أسفلها، رفع واحدة من المربعات وصدم عينيه شعر أنثوي لونه أصفر، فأزال المزيد، وظهرت رأس فتاة لونها شاحب، والدود يتغذى على لسانها ولحمها، وانفجرت الرائحة الكريهة وجعلت الناس يهربون إلى المخبأ الموجود في الحارة الثانية، واستيقظت والدته وسألته بفزع وهي تشاهد رأس الفتاة:

-إيه ده؟

جذبها من يدها وهرب إلى الحارة الأخرى، ووصل إلى المخبأ الثاني وكان مكتظًا بالناس. وجلس مرعي واستند بظهره على الحائط ونامت والدته فوق قدمه وهي فغرة العينين، ولا تعي بما رأته. واستمرت الطائرات في القصف، وكانت أصوات البيوت وهي تسقط تشبه البرق في السماء، والأرض تتوقف عن الحركة، وتتمايل وتتراقص ثم تتوقف، وتتصاعد وتهبط، وتتوقف، كل ذلك على مقطوعة موسيقية هزيلة كتبها سفاح يهوى رائحة الدماء... وتقيأ رجل عجوز أصلع على شاب بجانبه من الخوف، وفقدت فتاة وعيها وحاولت والدتها إفاقتها، وبكى طفل رضيع وهدأ عندما دست أمه صدرها في فمه، وذرف رجل دموعًا غزيرة كأنه طفل، وربت عليه عجوز سقطت نصف أسنانه، فهون عليه، وعند بداية الخندق تابع أربعة شباب يرتدون بذل بيضاء الوضع الخارجي، وحركة

الطائرات والبيوت المنهارة، وخلفهم احتضن رجل ثلاثيني زوجته ليداري قميص نومها الشفاف الذي يظهر صدرها وفخذيها، وكان بالقرب منه شاب في العشرينيات يختلس بعينيه نظرات إلى زوجته... حل الصمت على الكل، ومن يبكي توقف، وهدأت المقطوعة الموسيقية الهزيلة، واختفت الطائرات وأصوات المدافع، ولم ينبس أحد بكلمة سوى فتاة في عقدها الثاني كانت تدعو الله أن ينجيهم من العذاب الأليم، ورقعت بعدها امرأة بالصوت:

-ابنتي، ابنتي في البيت، نسيتها، الحرب جننتنا، أيوه الله جننتنا.

وقامت تجري خارج المخبأ فمنعها الشباب الأربعة، فصرخت:

-اتركوني.

دفعوها للداخل، واستمرت في الصراخ، وانقضت عليهم وضربتهم بقدمها ويدها، مما دفع مرعي للاقتراب منها، وسألها:

-أين بيتك؟

أشارت بأناملها للأمام ناحية بيت سليم بجواره آخر منهار، فخرج مرعي ولم يقدر الشباب على منعه، وهرعت والدته وراءه فأمسكها شاب كي لا تذهب. وجرى مرعي ينظر للبيوت المهدمة حوله، ويستمع إلى صرخات أطفال ونساء لا يعلم مصدرها، وتوقف عن الجري لما لمح يدًا بيضاء لطفل صغير تتحرك بصعوبة أسفل أنقاض بيت صغير، اشتعل الغضب بداخله لأنه لا يستطيع مساعدته، وعاد للجري، فوجد فتاة ملقاة على الأرض وتحاول سحب قدمها اليسرى من أسفل حطام بيت، والدماء تغطيها، فقال لها بإشفاق:

-سأعود.

ووقف أمام البيت الذي أشارت ناحيته المرأة ودخل من بابه الرئيسي، وصعد درجات الطابق الأول وهو يرتجف، واستمع فجأة لصوت طائرة

فنام على السلالم بحركة لا إرادية، ثم قام وقال:

-في حد هنا؟ يا بنت؟

لم تأتِه الإجابة المطلوبة، فصعد حتى الطابق الثاني والأخير، وكان فيه ثلاثة شقق، ونظر من نافذة في منتصف الطابق ناحية للسماء لثوان وكاد قلبه يفارقه عندما لمح طائرة تحلق من بعيد، وتقصف بيتًا قريبًا منه فانهار كله، واهتزت الأرض وسقط على ظهره وتألم بشدة، وانفجرت صرخات والدته من الخندق:

-مرعي، اخرج، مرعي.

استند على جذعه، وانتصب، وقال بصوت أعلى من المرة السابقة:

-في حد هنا؟ يا بنت؟

وطرق أبواب الشقق الثلاثة، ففتحت له فتاة في السادسة من عمرها تبكي بصمت، وسروالها مبتل، رفعها على منكبه ونزل السلالم سريعًا، وخرج من البيت وركض ناحية المخبأ، وكانت هناك طائرة تحلق فوقه كأنها تتابعه، لكنه وصل بسلام، وأغلق الأربعة شباب باب المخبأ الخشبي وانعزلوا عن هذه المعركة. وأعطى مرعي الفتاة لأمها، فطوقتها بذراعيها وهدأت، واقترب من والدته التي كانت ستصفعه لما فعله، لكنها تراجعت وتذكرت شجاعة والده في المواقف الصعبة، واحتضنته بقوة حتى لا يفارقها، وبكى مرعي لأنه لم يستطع إنقاذ الفتاة الثانية من أسفل حطام البيت، وترك الطفل الصغير ذا اليد البيضاء. وانطفأت المصابيح عدا مصباح وحيد كان يلمع ويحلق حوله الذباب.

***

الصحراء باتت فارغة بعدما التهمت البدو، والزواحف، والعقارب، والحشرات، والفضاء زاملها عندما التهم نجومه، والبحر شاركهم فقتل أسماكه ومنع السحب من الدوران فوقه وأبى سقوط الأمطار، والغابة زحمتهم فارتجفت وأوقعت أشجارها على الحيوانات والطيور، والغارات

شجرتهم، فقتلت آلاف المدنيين في مصر، وبلدان كثيرة، وقطعت أوصال الموهوبين، وقصفت أقلام الأدباء، وجعلت العالم يتشح بالسواد الكاحل، ويسير حافيًا على شفاه الموت، وتسربل الطغاة بالمجد الباطل، وفقد الجميع الأمل. وفشلت أي رؤية أو توقع حول الميعاد المحدد لانتهاء الحرب، وتكاثرت الفتيات التي تنتظر عودة أحبائهم من الحرب، ولم تيأس الأمهات من الدعاء لأبنائهم في الجيوش، والزوجات حنَّت لأوقاتهن مع أزواجهم، وتفاقمت الكوارث الطبيعية والبشرية، وانتشرت الجثث، وكست الدماء شوارع كثيرة من العالم، فلم يعد مكان يخلو من القتلى والجرحى والمصابين. المصابون الذين كانوا يصرخون ويشقون صمت الفضاء الشاسع، وتفاقمت الأمراض مثل السل، والملاريا، والطاعون، وأصبح الناس بين فكي الخطر إما الموت في الحرب أو الموت بالمرض. وانتهت قصص الحب لأن الحرب التهمت الحماس، والشغف، والجنون الساحر، وخَلفت الجرحى والمصابين والقتلى، والبكاء، والحزن والندم والاكتئاب، وقلة الصبر والعنف والدم، والظلام طويل الأمد، واليأس والانتحار والألم....
وتاه مرعي في المخبأ وهو يبكي من مشاهد اليوم القاسية، وكانت عيناه ثابتتين وتذرف الدموع، وتخيل نفسه شديد الطول ورأسه اخترقت السحب، وقدمه وقفت على صخور البحر ودهست أسماك القرش، وكانت يداه يافعتين ويمسك بهما الطائرات، ويكورها فتنفجر في يده ويلقيها ناحية البلاد التي تحلق منها. وقَتل الكثير من جنود الشر، ثم تحول لقزم وغاص في البحر وأطلق لنفسه العنان وسبح هربًا من أسماك القرش ووصل للشاطئ، ورأى والده في مركبته التي تتموج في البحر، وشباكه تطير بشكل دائري وتزاحم قاع البحر. واستمع لصوت يعرفه، ورأى «حبيبة» ابنة بدرية التبع التي أحبها وأحبته، وانفطر قلبه عليها حينما علم أن والدتها أرسلتها لتدرس وتعيش في باريس، خوفًا عليها من الحرب، ولكن الحرب طالتها وسقطت باريس في يد الألمان، وجاء تلغراف يخبر بدرية بمقتل حبيبة أسفل أنقاض منزلها.

حبيبة كانت تمتلك جسدًا متناسق القسمات، وعينين سوداء لامعة، وبشرة بيضاء، وشعرًا أسود قصير، وصوتًا هادئًا. غلفهما الحب معًا في

بداية فصل الربيع عندما التقيا للمرة الأولى في «الترام»، وطارت نظراتهما إلى بعض، وأحس مرعي بطاقة سحرية تتدرج من قلبه إلى أصابع قدمه، طاقة تطمئنه، وتهدئه من الاندفاع، وتؤنسه وتؤكد أنه لن يبقى وحيدًا في رحلة الحياة الجافة، ونزلت حبيبة من «الترام» في محطة الرمل هذا اليوم، فلحقها والتقط وردة بنفسجية من زاوية مفروشة بالزرع كانت في الأرض ومحاطة بسور صغير، وسار خلفها حتى وصل لشارع جانبي وضيق وخالٍ من الناس وأعطاها الوردة متوقعًا أن توبخه، فأخذتها وهي تسير وتبسمت دون كلام. عاد مرعي يومها إلى حارة اليهود مسحوزًا ويتخبط في الطريق بالناس ولا يعتذر لهم، ولم يبتع السبرتاية التي طلبتها والدته وكانت سببًا لركوبه «الترام»، ودخل إلى غرفته ونام على سريره ورائحة عطر حبيبة يداعب أنفه. ومرت الأيام ومرعي لا ينسى رائحة عطرها، ولا ملامحها، ويحترق جنونًا لأنه ذهب إلى محطة الرمل أكثر من مرة ليراها، لكنها اختفت مثل ظلام الليل وقت الصباح. وبعد أسبوعين ذهب مرعي بصحبة والده إلى بدرية التبع ليبيع لها بعض الأسماك، ورأى حبيبة تدلف من المطبخ وتقدم لهما عصير جوافة، واندهشت لرؤيته وسرعان ما تحول اندهاشها إلى سعادة رقيقة، وأخفى مرعي عن والده أنه يعرفها، وعلم أنها في مثل عمره. ومن ذلك اليوم أصبح يتناوب على بيتها في أوقات مختلفة، ويتابعها وهي تسير في الشوارع وتبتاع طلبات البيت، وشرائها للفاكهة والخضروات في السوق بصحبة خادمة تحمل لها الأطعمة.

وانتهز في يوم فرصة أن الليل حل وهدأت حركة الناس، ودلفت يومها حبيبة من بيتها، ترتدي فستانًا أبيض قصيرًا يصل إلى ركبتها، تأمل سيقانها البيضاء الملفوفة، وتابعها وهي تشتري تبغًا من الدكان المواجه لبيتها، وقد رأته من بعيد وتبسمت وعادت إلى بيتها، فدخل وراءها وأغلق خلفهما باب البيت الخشبي، وأمسك يدها وقبلها.

-لماذا تتابعني، وتسير خلفي؟

دقات قلبه ازدادت واستنشق الهواء بصعوبة، وضربته قوة ساخنة أسفل

معدته، وفشل في تصديق أنه يتحدث مع فتاة لأول مرة في حياته، بل وقبّل يدها منذ لحظات، وكان جسده ساخنا ويتفصد عرقًا، فأخرجت حبيبة منديلًا ومسحت جبينه، وأردفت:

-اهدأ، لماذا أنت خائف؟

-لا أصدق ما أفعله.

-من الواضح أنك لا تختلط كثيرًا بالفتيات يا مرعي.

كانت جريئة أكثر منه، فوقف قلبه عن النّبض للحظات، أو هكذا ظن حينما نطقت اسمه، وأغلق عينيه وحاول تقبيلها مثلما يشاهد في المجلات المصورة، فصفعته وابتعدت، وتفاجأ بردة فعلها، واعتذر:

-آسف.

تركته وصعدت... في الأيام التالية كان يأتي إليها في نفس الميعاد ليحاول الحديث معها، كانت تتكلم معه لوقت طويل، والحب يتطاير منها، ثم تدفعه في ختام حديثهما ليبتعد عنها وتتركه، واستمرت على هذه الطريقة، واستعجب مرعي من تغير طريقتها بأكثر من وجه في وقت واحد، فسألها بعصبية ذات مرة:

-لماذا تتعاملين معي بهذه الطريقة المتناقضة؟

تركته، فجذبها وقبلها بعنف من فمها، ولم تمانع لثوانٍ قليلة، ثم لكزته قائلة:

-سأسافر غدا إلى باريس لأكمل دراستي، وفي الأغلب لن أعود.

-تتركيني؟

اغرورقت عيناها وهي تقول:

-نعم.

ضرب الحائط بساعده فجرحت يدهُ ونزفت القليل من الدماء، وخافت

حبيبة عليه وأخرجت منديلًا وجففت دماءه، واستشعر دفئها ونعومتها فسحبها وانهمر عليها تقبيلاً، انغمست فيه، مثل البذور في الأرض، وأبعدها فجأة لأن باب البيت فُتِحَ، ودلف منه رجل عجوز بعث إليهما بنظرات من التقزز والازدراء، فركضت حبيبة على السلالم إلى شقتها، وهرب مرعي إلى الشارع، وضربته نسمات الهواء الباردة، فارتجف لأن جسده كان مشتعلًا. في اليوم التالي وقف من بعيد يتابع خروج حبيبة في أي وقت ليتحدث معها للمرة الأخيرة قبل أن تسافر، فلم تنزل وسمع صوت بدرية يدوي بالصراخ من الشرفة، وتصفع حبيبة، وبعدها بساعة كثبت حبيبة من باب البيت تمسك ثلاثة حقائب حمراء، ومعها بدرية التي أشارت لسيارة أجرة وأوقفتها، ونزل سائقها وعاون بدرية في وضع الحقائب فوق سطح السيارة، وربطها بحبل، وكان يختلس النظرات إلى عجيزة حبيبة وبدرية، ويدير لسانه على فمه. سافرت حبيبة، وسافر معها تعلق مرعي، وشغفه، وجراءته غير المعهودة، وقبلاتهما السرية الدفينة، واللهب الذي يسيطر عليه بمجرد ملامسته لجسدها الناعم، والدفيء الناجم من تلاحم قلوبهما.

وخلال الأيام اللاحقة لسفرها، ساءت أحواله، وتبدل مزاجه، وقل خروجه، وكن في غرفته طوال الوقت، ينام مفتوح العينين فوق سرير نحيف ينتهي بخشبة مستديرة مليئة بزخارف، تساقط بعضها، وكانت روحه ترف وتصعد وتهبط حتى اصطدمت بشقوق سقف الغرفة فتناثرت وهوت عليه، وامتصتها المسام. وبمرور الليالي استمر الشوق في مصارعته وتذكيره بملامح حبيبة، ودفئها، وعينيها الخالية من المكر والادعاء بالفضيلة، ورائحتها الطيبة، وشعرها القصير، وفساتينها الواسعة، وبشرتها البيضاء. وأذعن لفكرة الانتحار، ليرتاح من ثعابين ذكرياته التي تلدغه باستمرار، وصوت فحيحها لا يتوقف عن مشاكسة جوانحه، فسار في ظلام الغرفة، وفتح نافذتها وانتشر ضوء القمر في الغرفة، وهدأ قلبه فجأة، واغتال القمر ثعابين ذكرياته، ورجع مرعي ونام على معدته، وتراجع عن قراره، ومنى نفسه بأن حبيبة ستعود، وأزهق تفكيره في الانتحار لأن القمر هدأ قلبه ونفسه، وأرسى في قلبه مركبة تحمل رسالة حب من «حبيبة»، حبيبة التي كانت دومًا تعبر له عن مدى عشقها للقمر.

ومحادثاتهما السرية كل ليلة. ولم تكف يومًا عن بعث رسائلها إليه. وعرف منها مرعي أن أحلك أوقاتها حينما تمر السحب في السماء وتُخفي القمر، وكانت دومًا تتمنى رحيل فصل الشتاء عن الأرض، وقالت له في إحدى المرات:

-الشتاء يُهدئ حرارة الأرض، وحرارة القلوب، ويُجفف وقود الحب.

-حبك للأفلام جعلك شاعرة مخضرمة.

-بل حبي لك، وللقمر.

-لي وحدي، فلا داعي لخصم يُقاسمني حبك.

***

أصبح هواء المخبأ ساخن، وارتفعت درجة حرارته لأن بابه مغلق، والأنفاس الساخنة تتصاعد في شكل منظم، وفي الخارج توقفت صافرات الإنذار منذ وقت، وفتح شاب باب المخبأ وأخرج رأسه بحذر وقال:

-الغارة انتهت.

استيقظ الجميع بالتتابع، وساروا إلى الحارة وعظامهم تشكو من جلستهم المريرة فوق مربعات البازلت الصلبة، وحملت الأمهات أطفالهن النائمين في الملكوت، ودلف الرجال حزانى كأن القيامة قامت، وكانت الشمس تغرب تدريجيًا، والشفق الأحمر بارزًا في السماء، والهواء يحرك عفرة البيوت المهدمة، ويجبُر بخاطر المكسورين، ورأى مرعي وهو يسند والدته ويسيران بيوتًا كثيرة مُهدمة، والدخان يتصاعد من بيوت أخرى تحولت إلى رماد. وبكت امرأة على منزل أمها الذي يحترق، وركضت إليه فأصابتها النيران، وكادت تقتلها لولا أن شابًا تدخل وسحبها، واقتلع ثوبها لأن النيران أمسكته، وخلع قميصه ووضعه عليها وهي تولول:

-الحرب قتلت أمي القعيدة.

وراحت تلطخ ملابسها بتراب الأرض. وطالب شاب يافع يرتدي بذلة

رصاصية واسعة وطربوشا أحمر، الشباب والرجال بمساعدة الناس المحبوسة أسفل أنقاض البيوت، وانتشال الجثث، ولبى نداءه كل الرجال، واجتمعت أغلب النساء في منزل السيدة حسناء زوجة شيخ الحارة مجدي السبعاوي، وقدمت لهم الطعام والشراب والمعاملة الحسنة، وظهر حميدو ورجاله وانتشروا مثل النمل في الحارة يساعدون الرجال والشباب في إنقاذ الأرواح من تحت الأنقاض، وانتشال الجثث... وفي شقة الصياد أراح مرعي والدته فوق سريرها، وكانت تغط في نوم عميق. ودلف للشارع، ليساعد الشباب في رفع أنقاض منزل بدرية التبع، وأزال معهم الطوب والأخشاب، واصطدم بجثة فتاة عارية تخترق رأسها خشبة، فجذبها بمساعدة رجل له ذقن طويلة إلى الرصيف، ووضعا عليها جوالين، وأخرجا فتاة ثانية فقدت يدها، ولف مرعي على بقايا ساعدها قطعة قماش بالية ليمنع تدفق الدماء، وخلع قميصه الأخضر وخبأ جسدها العاري أسفله. وبعد ثلاث ساعات من رفع الأنقاض وإنقاذ السكان انهمك مرعي في التعب، وتبخرت طاقته وجف حلقه، وتناثر عرقه فوق ملابسه المتسخة، فاستأذن الشباب، وانصرف إلى بيته يجرجر قدمه من الإرهاق ولسانه يتدلى من فمه كالكلب، وكان يُجاهد عقله من استرجاع صور فتيات بيت بدرية التبع وهن عاريات، وتأججت فيه نيران قوية ذكرته بنيران حبيبة التي كانت تشتعل بمجرد رؤيتها، ولكن هذه المرة كاد يحترق، وكان الليل بهيمًا، وفشل القمر في الهيمنة بضوئه الشحيح على حارة اليهود وما يجاورها، وكانت أصوات النساء ترتفع وتهبط بالأحاديث عن القتلى والجرحى، وقالت امرأة مسنة مرت أمام بيت بدرية وازدرت جثث الفتيات:

-نهاية طريق النجاسة.

وتبعتها ثانية هيمن عليها العجز فقوس ظهرها وخفف بصرها:

-والغارات أنجس.

ودنا مرعي من باب بيته واستند عليه ليلتقط أنفاسه، فلمح ظلًا يتحرك

خلفه، انتفض واعتراه الخوف، وانتبه إلى التاجر اليهودي يبتسم ويقول بثقة:

-أنت شجاع مثل والدك، ولكنك مُندفع ولا تعي خطورة ذلك.

-لستُ قادرًا على عراكك الآن.

-لا وقت للعراك، أنتظرك غدًا في دُكاني، لأن الإسكندرية لم تعد أمينة على أولادها.

بصق مرعي بجانب قدم «أدين»، وقال:

-الإسكندرية لم تعد أمينة لأنها مليئة بالهاربين من حرائق هتلر الجماعية.

فتح باب شقته، ودخل وأغلق في وجه «أدين» الذي كان يتمزع غيظًا من كلماته على فراش الحسرة والازدراء.

***

الفصل العاشر

ورَفَ الظل في حجرة واسعة بالطابق الثاني تتفرع من البهو، وتطل على البحر، كانت بها طاولة لها ستة كراسي، ومقاعدها مصنوعة من القطن ويكسوها الجلد، وتوسط سطح الطاولة عمود صغير ينتهي بعلم أحمر، قبع خلفه غليون ووعاء من التبغ وعيدان خشبية بيضاء، وكان البحر يشدو بصوت أمواجه الذي ينساب بهدوء مع الهواء القادم من نافذة الحجرة، وتمخضت السماء لينهمر مطرها، وشوبت رؤية القمر. وانفتح باب الحجرة ودخلت خادمة نحيفة ترتدي ثوبًا فضفاضًا ونظيفًا ويتعلق بيدها دلو مزخرف بالدوائر، ويرتفع فيه الزيت إلى النصف، ووقفت على أصابع قدميها ليزداد طولها، وملأت آوعية الحجرة، ثم خرجت وعادت بشعلة نار وقربتها من فتيل كل وعاء ليشتعل، وارتفعت النيران من الأوعية وتراقص ظلها على الأرض. وخرجت الخادمة بالشعلة والدلو، ودلف بعدها ضابط حليق الشعر، ووقف خلف أكبر كرسي، ودخل وراءه المُعظم الصغير،

ومسئول منظمة الأمن، ومسئول منظمة الزراعة، ومسئول منظمة الصناعة، ومسئول بيت المال، والحاكم الثالث، ولم يجلسوا إلا بعد جلوس المُعظم على أكبر مقعد. كانوا مشوبين بالتوتر ويهربون بنظراتهم إلى النافذة والبحر، فحدثهم وهو يعدل تاجه الفضي على رأسه:

-هل تملكون حلاً يُغيثنا؟ أم امتلأ البطون باللحم أوقف العقل، ومنع توغل الحكمة؟

قال مسئول منظمة الأمن وكان أكثرهم نباهة وحدة، وضخم الجثة، وصوته غليظ:

-لا حل سوى فتح بوابة السور ومواجهة هذه الكائنات بدلاً من الانتظار.

وقف المُعظم ووضع تبغًا داخل الغليون، واقترب من وعاء وأشعل الغليون، وعاد ونفث دخانًا كثيفًا من فمه، فداعبه الهواء بخفة ونثره على شكل ستار أبيض انفتح في وجوه الحاضرين، فسعل مسئول الزراعة وقال:

-خسرنا عددًا كبيرًا من القوات الملكية، والمواجهة لن تمر بسلام.

-المواجهات تقتل الجنود، وعدمها سيقتلنا جميعًا، أريد حلاً واضحًا.

-نكثف من أسلحتنا وتدريبات القوا...

-هراء لا يُفيد.

قاطعه المُعظم ورنا بنظره في وجوههم المُتشحة بعلامات الاضطراب، وهز رأسه في سخرية من اقتراحاتهم، وكان الحاكم الثالث يتابع برتابة وعيناه تحتقران الجميع عدا المعظم، ثم تدخل في الحديث:

- تغيركم واجب بعد القضاء على هذه الأزمة الجسيمة، لأن الحلول لا تأتي من السماء، والبطون إن امتلأت باللحم كما قال ابن أخي لا تتوغل في أصحابها الحكمة. تنعمون بحياة رغدة، وصلاحيات شبه كاملة، وتجاورون المشاكل في العمر مرة، ولا تأتون بحلٍ حتى؟

تأملوا قامته القصيرة، ومعدته الكبيرة، وشعره الناعم الطويل المربوط بحبل رفيع، وذقنه التي كانت تتحرك مع فمه كأنها ستسقط، ورد عليه مسئول الصناعة:

-لدي حل أن ننتظر و...

قاطعه مسئول الزراعة بحدة:

-لابد من مواجهة الكائنات التي سيطرت على الأرض الزراعية، المحاصيل ماتت، والمزارعون توقفوا عن عملهم، ومخزون الطعام يكفينا لمدة شهر فقط.

-لدي حل.

-لا تقل لي بأنك استسلمت لهرائهم أيها المعظم.

-لا يا عمي.

ابتسم المعظم، ووضع مسدس الصياد فوق الطاولة، وأبصر اندهاش الجميع، وجلابيبهم التي تتحلى باللون القرمزي، وكانت عيونهم شاخصة إليه، فقال:

-سلاح جديد اسمه «مسدس»، حصلت عليه من رجل غريب عثر عليه الحراس يوم مطالبة السكان بالخروج من الجزيرة، وهجوم الكائنات، وأكد لي أن هذا السلاح طريق خلاصنا الوحيد.

-مستحيل الوثوق في رجل غريب يا ابن أخي.

شاطره مسئول منظمة الزراعة الحديث:

-سيزداد بذلك الوضع سوادًا.

وغالبهما مسئول منظمة الأمن بصوته الغليظ:

-سيزداد سوادًا إن لم نتمسك بأي فرصة للنجاة.

صمت ونظر للمعظم واسترسل:

-لنثق بهذا الرجل، ولو لأيام حتى نتأكد من صدقه.

-هل تتحمل العواقب؟

سأله الحاكم الثالث، فهز رأسه بحزم جعل المُعظم يصدق على كلامه:

-سأخرج الصياد من السجن، وأقدم له ما يحتاجه لتصنيع أعداد كبيرة من هذا السلاح، وفي نفس الوقت أكلفكم بالبحث عن حلول بدلاً من جلوسكم أمامي قليلي الحيلة، وتهربون بنظراتكم من مواجهتي.

-أرفض قرارك المتهور يا ابن أخي، وأخلي مسئوليتي الكاملة أمامكم بصفتي الحاكم الثالث لجزيرة الجد الأعظم.

تراجع بكُرسيه للخلف، وخرج من الغرفة بقامته القصيرة وكان ظهره يكتظ باللحم ويرتفع ويهبط، ولم يناوله المُعظم أدنى انتباه، وقال لمسئول الزراعة:

-وفر لي احتياجاتنا من الطعام لمدة شهرين على الأقل.

- المحاصيل لا تكفي...

ضرب بيده على الطاولة وصاح:

-عدم تنفيذك لأمري معناه وضعك في السجن أنت وأسرتك، واستحواذي على جميع أملاكك.

-سامحني يا سيدي، أوامرك سيف على رقبتي.

وجه المُعظم كلامه إلى مسئول منظمة بيت المال وقال:

-وأنت لا تقصر في توفير احتياجات السكان الذين فقدوا بيوتهم أثناء الهجوم كما أمر جلالة الملك.

هز رأسه دون أن ينبس بكلمة، واختتم المُعظم حديثه مع مسئول الأمن:

- تعرف ماذا ستفعل هذه الأيام من أجل تأمين الجزيرة.. علينا بالتحرك الآن، وكل يوم سأنتظر منكم تقريرًا عن احتياجاتكم، وإنجازاتكم، ومن يتخلف رجاءً لا يذهب إلى دواوين الجزيرة، كي لا تلوث دماؤه المكان.

تفهموا كلامه، وذهب المعظم بقامته الرشيقة وخلفه مسئول الأمن، والباقي يهرول حتى يلحق بهما.

***

تأمل الصياد باطن كفه الأيمن فكان مزدحمًا بخطوط صغيرة وشقوق سطحية نحتتها أحبال شباك الصيد على مر السنين، وإصبع السبابة كانت تنقصه العقلة الثالثة، لأنه فقدها في فصل الشتاء الماضي، شتاء كانت ترتفع أمواجه وتهوى على المراكب الصغيرة وتبتلع أغلبها، والسماء لم تتوقف يومًا عن المطر، والظفر بالصيادين الذين خنعوا لقوة الأمواج، لكنه أبى البحث عن مجال رزق مؤقت حتى ينتهي هذا الفصل الغاشم، وكان ينزل بمركبته «الدِنجل» أمام قلعة «قايتباي»، ويبتعد عن الشاطئ بمسافة قليلة تسمح له بصيد الأسماك، دون الدخول إلى العمق والتعرض لخطر الأمواج. وبأحد الأيام ألقى بالشبكة والمركب كانت تتموج والبرد قارس، ثم سحبها فعادت بخمسة أسماك أفرغهم في صندوق المركبة، وعدل من وقفته ليرمي بالشبكة، فوجد موجة عالية تقترب وتدفع بمركب صغير ناحيته، حاول القفز فسقط في مركبته، وتدلى كفه خارجها واصطدم فيه المركب الصغير، وفصل عقلة إصبعه، ثم انقلبت مركبته في المياه الباردة، وسبح بصعوبة بالغة بسبب اضطراب البحر، واقترب من مرسى صغير بجانب القلعة، وصعد على إطار سيارة قديم، ووطئ الأرض وانتزع ملابسه، وقطع منها جزء صغير، وربط إصبعه ليوقف نزيف الدماء، وفي اليوم التالي عاد للصيد كأن ما حدث معه مجرد «خدش»....كانت الحجرة التي يجلس فيها الصياد رحبة، وتطل على البحر، ولها أربع جدران عليها زخارف لحراس يحاربون وحوشًا سوداء وضخمة بلا ملامح، وفوق الزخارف وضعت أوعية مشتعلة على مساند خشبية لتقتل الظلمة، وفي الجدار الأمامي تثبتت عليه ساعة شمسية مصنوعة من الحديد، وبجانب

الساعة في اتجاه الغرب كانت هناك نافذة لها مقعد خشبي وتطل على البحر، وتجعل الحجرة هفهافة بسبب الهواء القوي. وفي اتجاه الشرق أغلقت الغرفة بباب من أعمدة الحديد، وكان يعبق بالمكان مع الصياد عجوز قارب على السبعين، هيئته وقورة ونحيف، وذقنه بيضاء تشبه القطن وتلمع بمداعبة ضوء الأوعية، وأنفه كبيرة ومستديرة ومرتفعة، وعيناه خضراوان وحادتان وتنذران بعواقب وخيمة، ويرتدي ثوبًا أسود من الحرير، وبجانبه الطعام كان كثيرًا لأنه يرفض الأكل، ويتحمل الجوع. حاول الصياد محادثته في الصباح، فرد عليه بصوت رخيم:

-لا تعبث معي أيها الحقير.

كلماته تُناقض ملامحه الهادئة والورع الذي يشع منه، فصمت الصياد وانزوى في أحد الأركان يُفكر كيف سيعود لأسرته وللإسكندرية التي طرده بَحرُها؟... في منتصف الليل فُتِح الباب، ودخل المُعظم برياء ومرر نظراته على الصياد والعجوز، ثم سأل العجوز:

-كيف جئت إلى هنا؟

أدار وجهه إلى النافذة، ولم يرد، فقال المعظم لحارس خلفه:

-أعطني الشُعشاعة، والجِلب، وحبلًا طويلًا.

ناوله الحارس سيخ حديد رفيعًا، وعصا خشبية مقدمتها تنغمس فيها مسامير، والحبل الطويل، ومطرقة وقال المُعظم للعجوز:

-كيف جئت إلى هنا؟ لن أرحم كهولتك، وشعرك الأبيض، وتجاعيد وجهك، الكل سواسية أمام قوانين الجد الأعظم.

-لن تبقى القوانين بعد فجر الغد.

قالها العجوز بنفس الصوت الرخيم الذي حدث به الصياد، فصفعه حارس لم يتمالك نفسه، وصاح فيه:

-لا تتحدث عن الجد الأعظم يا مخبول.

أزاحه المُعظم بيده للوراء، وأمسك العجوز من ذقنه ثم أوقفه، وزعق:

-رياحي عاتية ستقتلعك من الحياة، أجبني كيف جئت؟ وبماذا تقصد بفجر الغد؟

بصق العجوز في وجهه، اغتاظ المُعظم، وصاح في حارس بجانبه:

-جرده من ثوبه، لنُريه مُضاجعة أولاد الجد الأعظم.

تغيرت ملامح العجوز من عدم الاكتراث إلى ملامح رجل أوجَل، وقال وصوته الرخيم يتهدج:

-هذا إثم لا يغتفر.

أنام الحارس العجوز على معدته، ومزع ثوبه من الخلف بخنجر ذهبي حاد، بانت ملابسه الداخلية فقطعها بيديه، وأزاح نفسه ليأتي مكانه المُعظم، وكان الصياد يتابع من بعيد بخوف ودهشة. وثبت المُعظم السيخ الحديد على ظهر العجوز، وباليد الثانية ضرب عليه بالمطرقة واستمع الجميع لصوت عظامه تتكسر، وسارت كهرباء عنيفة في أوصال العجوز جعلته يتململ في الأرض، فضحك الحراس، وامتقع وجه الصياد، ولم يقدر العجوز على كتم ألمه وصرخ بشدة، وأفرغ معدته، وسحبه حارس من قدمه للخلف، ووضع المُعظم السيخ فوق ظهره، لكن العجوز أبعده ونام على ظهره ونازع الألم، وتطاير من فمه لعاب كثير، وقال:

-كف، كف، لا تُكررها.

-ولِمَ أتوقف؟

سعل، وكادت روحه تفيض، وقال:

-فجر الغد سيحدث هجوم جديد على الجزيرة، ولكن هذه المرة «القدماء» سيبتلعون الجزيرة، ويحل الخراب، ويحلق الموت في سماء الجزيرة، ويتجدد الورع في العالم، وتكتنف الوحدة الكُل، بدلاً من الحرب، والهوان، والفُرقة، وتموت الأديان التي جعلت الإنسان يقتل شقيقه.

-كيف نوقف هذا الهجوم يا مخبول؟

-يجب أن نموت، فيتطهر العالم، وتفرض منظمة «أرون» سيطرتها، يجب أن نموت فيتوحد العالم، ونهدم الأديان التي فرقتنا.

-ستنال عذابًا أليمًا، قل لي كيف نمنع الهجوم؟

-يجب إيقاف بوابة القدماء بشروط صعب تحقيقها.

-سأهشم عمودك الفقري، قل لي ما هي الشروط؟

أدار وجهه للجهة المقابلة، فأمسك المعظم بالحبل وربطه حول عنقه، وخنقه لثوان، ثم زعق فيه، وأمره بالكلام، فاعتدل العجوز قليلاً، وتفصد عرقًا غزيرًا، وكان يرتجف من أصابع قدمه حتى رقبته، وفمه تراجع قليلاً للوراء، وصوت الأمواج القادم من النافذة جعله يدقق النظر إلى السماء، وقال وعيناه تتهاوى لتسقط:

-تحتاج لساحر مُنمق الكلمات، يقف بانكسار أمام البحر العتيق في ليلة باردة يتوسط سماءها القمر المنير، وتُرسم دائرة واسعة على رمال ملوثة بالأحمر القاتم، وتُذبح أربعة كائنات حية دون تكرار نوع واحد، وتُقطع جثة مولود جديد لم يتعدَّ ربيعه الأول، وتنثر في اتجاهات مُختلفة داخل الدائرة، وتتحرك الشفاه بطلاسم مقدمة كتاب القدماء، ولا بد وأن يتعالى كبرياء قارئها مع تعالي الطلاسم التي تجوس بين المخلوقات، لتمنع أو تقيم الإثم. سيتحول بعدها لون الرمال ويصبح أصفر لامعًا أسفل ضوء القمر الحاني، في ذلك الوقت يفرغر الساحر بكفه، ويقطع جزءًا منه لتنساب دماءه فوق الرمال، وينام بظهره، ويضع على قدميه حجرًا صخريًا ثقيلًا ويبقى ثابتًا، وتلفه دائرة من مئة فتاة عذراء، ويظل هكذا حتى يختفي القمر، وتأتي الشمس بسير وئيد. ولن يغلق القدماء البوابة إلا بعدما يمتنع جميع سكان الجزيرة عن الطعام، والشراب، والمضاجعة، والحديث بصوت مرتفع، ويطلون أبواب البيوت بالدماء، ويرسمون بعدها علامة X ويغلقون الأبواب، ومهما سمعوا من طرق عليها لا يفتحون، وإلا سيكون مصيرهم الموت. الخوف سوف يفرض سطوته على الكل، ويخرج

الأموات من قبورهم هياكل عظمية يكسوها السواد، ويبحثون عن بيوت أقاربهم ليقتلوهم، ولن يعثروا عليهم لأن الدماء وعلامة X سيعميان عيونهم الفاسدة، ولابد وأن تُحبس الأنفاس، وتستعد الأرواح للسمو، والطيور للتحليق خارج الجزيرة، والحيوانات للموت الساحق، ولا يبرح السكان موضعهم إلا بعدما تتمخض السماء وتُمطر دماء سوداء، هي دماء القدماء، ودماء الضغينة والغضب والتراجع في القرارات الحازمة، التي كان من شأنها إنقاذ الأنفس من الحروب، والأمراض، والغارات، دماء إن غطت سطح الكوكب، سيتطهر من دنسه، وقذارته.... صمت العجوز، ولم يعلق المعظم، واندهش الحراس، وتوقفوا عن الحركة، عدا حارس كان يدون ما قاله العجوز على ورقة بردي، وتحرك العجوز بصعوبة، وأخرج من ثوبه كتاب كبير، غلافه مصنوع من الجلد الأسود، ومكتوب عليه بالعربية «القدماء»، وأسفلها بخط رقيق «منظمة أرون»، ولفظ أنفاسًا بها حشرجة قوية، وأخرج دماءً من فمه، ومات، وسقط الكتاب على الأرض، فأخذه المُعظم، وناوله الحارس ورقة البردي، فقرأها، وقال وجسده يرتجف:

-أخبروا مسئول الأمن أن يأتي عند بيت حامي الجزيرة.

ثم قال للصياد قبل خروجه:

-وأنت كن مستعدًا، لديك فرصة للنجاة.

توغل الصياد بعينيه فيهم وهم يخرجون ويغلقون الباب، وباتت الوحدة مع ذلك العجوز هي أسوأ مخاوفه، بعد خوفه من عدم عودته إلى أسرته. وانتصب ومر بجانب العجوز، ثم جلس على مقعد النافذة وأعطى ظهره للعجوز ووجه للبحر، لفحه الهواء، واستنشق رائحة اليود التي يحبها، فكر في القفز من النافذة، فنظر ووجد أسفله صخورًا فضية كبيرة وتراجع عن الفكرة، ورأى المعظم الصغير يدلف من بوابة «البيت العظيم» ويشير لجميع الحراس بالذهاب خلفه، حتى حراس الأبراج الخشبية العشرة التي تُحيط بالبيت. فكر الصياد حزينًا، ولاح مع عقله للوصول لإمكانية صنع مسدسات للجزيرة وهي تخلو من الكهرباء؟، لقد كان عرض المسدس على

المعظم الصغير مجرد حيلة للهروب من الموت ولو لبعض الوقت، والآن أصبح عليه تحقيق هذه الحيلة على أرض الواقع دون كهرباء. ترك النافذة واتجه ناحية حارس صغير السن يقف في الخارج يتابع الحجرة بكسل، ويحارب الوسن، واستفسر:

-عندكم كهرباء في الجزيرة؟

رد الحارس بصوت طفولي:

-ماذا تعني الكهرباء؟

-كيف تصنعون السيوف والرماح؟

- بالنار، كيف لا تعرف هذا؟

قطب الصياد حاجبها وجلس على الأرض يُفكر في كبوته وقال في عقله: «إن عاد المغرور الصغير وأخبرته أنني أحتاج للكهرباء، لن أعيش بعدها، وإن وجدت حلاً قد يقتلني بعد مساعدته، وإذا لم يقتلني فبأي سبيل سأعود للإسكندرية؟». توقف عن التفكير، وغازله الاضطراب عن بُعد. ونام الحارس بعد ساعة وعلا صوت شخيره، ضحك الصياد ووجد أمامه فرصة أخيرة للتندر في هذه الجزيرة الواسعة التي يحيطها البحر من كل ناحية، لكنه قبل أن يتندر فكر في ربط الحبل الطويل الذي تركه الحراس في مقعد النافذة، والهرب من خلاله لأرض الجزيرة. فربطه في ثوان بالمقعد وألقاه، ونظر على الحارس، ومد جسده من النافذة ونزل على الحبل، كانت المسافة للأرض كبيرة، فمنع الصياد عينيه من التركيز على الأسفل، ونزل بسرعة، وحرك قدميه على خشب البيت الخارجي. كان يتنفس بصعوبة، وشعر بألم في ساعديه، واهتز الحبل وكاد يسقط، فثبت قدمه على الخشب، وأغمض عينيه ليلتقط أنفاسه وأكمل هربه، حتى قطع نصف المسافة، فارتاح قليلاً، واهتز الحبل، فنظر الصياد ليجد الحارس الشاب يقف في النافذة، ويسحب الحبل ناحيته، فأسرع وكاد يسقط، ولما اقترب من الأرض بمسافة ليست هينة، قفز ونزل واقفًا، وهرب مبتعدًا عن البيت العظيم، واقترب من حافة الجبل، وركض على الممر الذي صعد منه مع

الحارس وأنهاه بسرعة، ووطئت أقدامه أرض الجزيرة، فأطلق لساقيه العنان ناحية بوابة السور. ومر خلال هربه بأشجار كثيفة تتوسط الطريق، وكان نهر الجزيرة على ناحية اليمين كئيبًا وصامتًا، وحوله حشائش قصيرة فوقها ضفادع وأرانب، والظلام قوي يكتنف الجزيرة، وعلى اليسار كان سور الجزيرة شامخًا وأمامه بيوت كثيرة مُدمرة، وبيوت سليمة غُلقت أبوابها وغطت نوافذها ستائر قماش بيضاء، وانبعث منها ضوء خفيف ساعد الصياد على الجري. وزاد من سرعته رغم أن باطن قدمه يحتك بالحصى، والزلط، ويشعر بالألم، وتوقف ليلتقط أنفاسه ولاحظ أن الجزيرة خالية من السكان والحراس، والأبراج الخشبية الموزعة في كل مترين تقريبًا، مهجورة. ثم رأى بقعة مضاءة بالأوعية، فاقترب واكتشف مكان مليئًا بدكاكين من الخشب، تشكلت على هيئة مربع طويل به واجهة خشبية في المنتصف، دون عليها بلون أسود «سوق الجزيرة»، وكان السوق به القليل من الباعة الذين نظروا إلى الصياد بقلق وهم يبيعون القمح، والأرز، والفاكهة، والخضروات، واللحوم والأسماك، والسيوف والخناجر، والطيور لسكان وقفوا أمامهم بلهفة، وأعطوهم أوراق بيضاء لم يتبينها الصياد بشكل واضح، وأخذوا اللحوم، والخضار والفواكه، ووضعوها في حقائب من الجلد وانصرفوا بنظام. وظهر حارسان من السوق وطالبا الصياد بأن يتقدم إليهما، رفض وأعطاهما ظهره وسار بشكل طبيعي، فلحقا وأمسكاه فدفعهما بساعده وهرول في الظلام، تعثرت قدماه وسقط، وأمسكه حارس منهما وسحبه للخلف، ضربه الصياد بحجر ونزفت رأسه، واستكمل هربه، وخلفه الحارس الثاني يمسك بسيف ويحذره:

-توقف وإلا قطعت رأسك.

كان الصياد يتعثر ويقوم ليستمر في هربه، ودنا إلى منطقة زراعية مليئة بالحشائش، والأشجار ومساحات مزروعة ببقايا من القمح، والنهر يلتف حولها في شكل دائري كأنه يحميها، ويفصلها عن باقي أرض الجزيرة، وكان الحارس ما زال يلحق به، وتوقف الصياد ليلتقط أنفاسه فقال

الحارس:

-توقف يا مجنون سنموت.

-متقربش.

-أنت مجنون.

تراجع الحارس للوراء بخوف وأشار إلى ما وراء الصياد، فنظر ورأى أذرعًا طويلة وسوداء وكثيفة الشعر، تخرج من طينة هذه المنطقة وتقترب منه، ركض ووقف بجانب الحارس وسأله:

-إيه ده؟

-الكائنات الملعونة التي هاجمت الجزيرة سيطر بعضها على هذه المنطقة، وينغمسون في أرضها الطينية، ويقتلون مَن يقترب.

ارتجت الأرض بعد كلماته، وتشاجرت سحب السماء، فرفع الصياد عينيه ورجاها ألا تؤجج شرها العتيق وترسله إليه، وتراجع مع الحارس للخلف، لكن قدم الحارس انغمست في طينة الأرض، وصاح برعب:

-سنموت، أرجوك لا تتركني.

مد الصياد إلى الحارس ساعده واقترب منه فانغمس الاثنان في الطين حتى غطى نصف جسديهما، فقال الصياد بأسف:

-سامحني.

رفع بعدها قدمه وضغط بها فوق رأس الحارس وقفز إلى ناحية يابسة وواسعة قريبة منهما، وسقط على ظهره، ووقف وهرول وهو يرى الحارس يصرخ وينغمس كله في الطين، وكانت الأذرع تزداد وترتفع. وركض الصياد ليكمل طريقه إلى بوابة السور، والوهن يضربه بمطرقة صُنعت من الألم البشري، وكان الظلام يعتري الجزيرة والقمر يختفي تدريجيًا من السحب، ووقف ليلتقط أنفاسه، وبصق لعابه الساخن، وسعل بقوة كادت تشق حنجرته، وسمع صوت أقدام حراس تقترب، وكانوا يتحدثون بخوف

عن هجوم من المحتمل أن يقع فجر الغد في الجزيرة، فتراجع واستعان بشجرة ضخمة لها فروع كثيرة، وورقها لونه أصفر باهت، وكانت مجوفة، فدخل في تجويفها، ومر الحراس من جانبه دون أن يلاحظوه، وأحس بشيء لزج يضغط عليه بأقدامه، ولما دقق نظره، وجدها دودة ضخمة لونها أخضر، فاقشعر بدنه، وحينما تأكد من رحيل الحراس، خرج وركض في طريقه، وكان النهر ما زال على يساره لكنه ينحرف ويقترب من جهة اليمين، واصطدم الصياد بحارس قصير لم ينتبه إلى وجوده، فاعتذر للحارس محاولاً التظاهر بأنه من سكان الجزيرة:

-آسف.

-ما اسمك؟

-حودة تومكس.

-ملابسك تقول أنك مسجون، مَن سمح لك بالخروج .

-أمك.

ضربه الصياد في وجهه، فنزفت أنفه، وأخرج الحارس سيفه، لكن الثاني هرب، حتى وصل إلى منطقة ضيقة، وقاحلة وترتفع في يمينها تلة عن الأرض، مستطيلة الشكل، وفوق منها كهوف جبلية لها ثلاثة مداخل مُستديرة وضيقة وأبواب من الأعمدة الحديدية، استند الصياد على سفح التلة وتأكد أنه غير مراقب، وشعر بالهيمان لأن حلقه جف، وسار بتمهل حتى أوقفه صوت «الجراكو» الذي يسحق الأذن، ويجلجل الجزيرة، ويحارب البحر والسماء وقوى الشر، فرفع الصياد بصره إلى التلة وكان ينتظر ظهور هذا الكائن، وخفق قلبه حينما رأى يذا حمراء طويلة بها ثلاثة أصابع تمتد من باب حديدي، ولم يستطع رؤيته بشكل واضح لأن الظلام كان حالكًا، وضوء القمر يظهر ويختفي بسبب السحب، وزاد صوت «الجراكو»، فوضع الصياد يديه على أذنه، وهرول إلى الأمام وابتعد عن التلة واقترب من النهر، فجلس على قدميه، واغترف من الماء وتجرع بنهم، وسعل فتطاير الماء من فمه، ثم عاد يغترف ويشرب حتى ارتوى،

وقام مُترنخا ومشى وقدماه تحتك ببعضهما، ولم يجد حلاً سوى الجلوس بجانب النهر ليرتاح، وكانت عيناه شاخصتين ناحية التلة لأن صوت «الجراكو» يظهر ويختفي فجأة مما يصيبه بالفزع. داعب عيون الصياد من بعيد ضوء زهيد، فاستند بجذعه وسار ناحية الضوء وهو يتخبط بالطريق، ويتعثر في صخوره الصغيرة، لكنه ثابر ووصل إلى مكان تفوح منه رائحة طيبة، وفيه أشجار كثيفة ومتناثرة في جوانب مختلفة، وبجانب هذه الأشجار كانت هناك مجموعة كبيرة من بيوت خشبية، سقفها هرمي، وجدرانها مطلية باللون الأبيض، وفي كل بيت نافذة واحدة مغلقة بقطعة مستطيلة من الخشب، وفيها فتحات عمودية تنبعث منها إضاءة ضعيفة. نظر الصياد لأبواب هذه البيوت فكانت جميعها مغلقة، وزاد شعوره بالضجر والغربة، وأحس أنه لقيط بلا أسرة، وابن غير شرعي لعلاقة مُحرمة وقعت بين السماء والأرض، وتمنى يومًا يرجع فيه إلى مرعي وسماح والإسكندرية والصيد والبحر، ودار الشجن في جسده واعتصر فؤاده، فنزف دماءً سوداء، وتجسدت كبوته أمامه على هيئة أحدب ذي عينين كبيرتين، اقترب منه ولثمه بقبلة كالتي سلم بها يهوذا السيد المسيح يوم خميس العهد، ثم اختفى الأحدب، واختفى الكون، عدا الصياد ظل ثابتًا يحدق في الفراغ الأسود الكامن منذ الأزل. حتى انفتح باب بيت فلفت انتباهه إليه، ونظر ورأى طفلًا صغيرًا يبكي ويفرك عينيه، فسأله بقلق:

-لماذا تبكي؟

جذبه الولد من يده، وأحس الصياد بدفء مرعي، ودخل مع الطفل إلى منزله كالمسحور، وكان البيت واسعًا ولون جدرانه بُني، وعلى ناحية اليسار رُصّت ثلاثة كراسي خشبية، وطاولة عليها فواكه متنوعة، واستمع الصياد لصوت خبط متقطع، والطفل سحبه إلى فتحة في أرض البيت بها خمسة درجات خشبية للأسفل، وبعدها توجد طرقة ضيقة تنتهي بحجرة أسفل الأرض، وقف الطفل وأشار له ناحية الحجرة والخوف يعتليه، فدخل الصياد إلى الحجرة بقلق، ووجد بها أربعة أوعية تُنيرها، وامرأة

يقف خلفها حارس، ويربط يديها خلف ظهرها بخيط رفيع، وبعدها مزع ملابسها، ودس يده يتحسس جسدها، اقترب الصياد بخطوات هادئة، وبحث عن شيء يضربه به، فلم يجد سوى خنجر ملقى على الأرض، انتزعه من غمده، ولما بدأ صراخ المرأة، اضطرب فضرب الحارس بالخنجر في رقبته، فانفجرت دماؤه على المرأة، وسقط على الأرض.

***

وصل المُعظم الصغير إلى منزل حامي الجزيرة بوجه ممتقع، والغضب يعتليه، وصوت أمواج البحر مرتفع، ويثير في وجدانه الضغينة، وكانت بداخله رغبة جامحة في العودة إلى العجوز وتقطيع جسده لأجزاء صغيرة، وتركه حتى يتعفن، وكان المكان يخلو من السكان، ولا يوجد فيه سوى بيت واحد يطِل على النهر، وله مساحة كبيرة، وباب كبير، وحوله أشجار يافعة تشبه الضباط حينما يحاوطون الملك. دنا المعظم من البيت وصعد خمس درجات، وطرق الباب لكن لم يُفتح، فطرق مرة ثانية وصاح:

-افتح الباب أيها الحامي، الجزيرة تموت وأنت نائم على ظهرك.

لم يأته رد، فأمر أربعة حراس خلفه، كانوا يمسكون بمشاعل لتنير لهم، بكسر الباب، فناولوا المشاعل لغيرهم، وكسروا الباب، وأصدر تكسيره صوتًا عاليًا تردد في الأرجاء، وأيقظ العصافير النائمة على الأشجار فطارت مُبتعدة وخائفة. دخل المُعظم أولاً ونظر في البيت، كان به طاولة خشبية لها ثلاثة كراسي، وفوق الطاولة تراصت مجموعة من الكتب والبرديات، فأمسك المعظم بكتاب منهم له غلاف أصفر قاتم ومكتوب عليه «الليالي الأولى في كهف الجراكو»، فتحه فرأى رسومات عديدة «للجراكو» واقفًا بتوحش وأمامه مجموعة من الأشخاص، كانت وجوههم سوداء، ويفتحون أفواههم، ويرفعون أياديهم إلى فوق، ترك الكتاب، وجذبت أنفه رائحة كريهة تأتي من الحجرة الأمامية، دلف إليها ووجد الحامي يجلس على كرسي وحوله دماء جافة، وفي قلبه خنجر له رأس فيل، وجسده مغطى باللون الأزرق، والديدان تلتهم معدته وبدنه العاري، ولم يستطع

الحراس الصمود أمام المد العالي لرائحة التعفن القاسية، فخرج المعظم والحراس، وقال لهم بضيق:

-الحامي قُتِل منذ أيام وأنتم نائمون.

جاء مسئول الأمن يلهث وعرقه يتساقط، وقال للمعظم بعدما حياه:

-أمرك.

-الحامي في تعداد الموتى، مَن يُكلَّف الآن بإنقاذ الجزيرة؟

-كيف مات؟

-هذا سؤال يوجه إليك أنت، ليس العكس.

تركه ودخل البيت، وخرج في عجالة وسعل، وكانت عيناه مليئة بالدموع الخفيفة.

-تعفن جثته يدل أنه مات منذ أيام.

أحفه بالكلام، وزعق:

-ما الحل؟ لا تقل لي كلامًا بائسًا، الطقوس التي قالها العجوز لا بد وأن تتم بواسطة حامٍ أو ساحر، قل لي هل نترك الجميع يموت؟ وينسدل علينا ستار الليل، ويندثر تاريخنا والجد الأعظم؟

تدخل ضابط بأدب واستأذن:

-أيها المعظم هل تسمح لي بالكلام؟

خلع المعظم تاجه، وأعطاه لحارس بجانبه وأشار للضابط بالكلام:

-لدي حل يتطلب فرمانًا رسميًا من جلالة الملك.

-قل ما في جعبتك مرة واحدة، بدلاً من إثارتي بكلمات غامضة.

-نخرج الناظ..

قاطعه مسئول الأمن:

-لقد حنثته عاهرة من خادمات الملك فخان الجزيرة، وأثبت الحاكم الثالث تواطؤه مع بعض الضباط في حادثة الباب العالي، التي وقعت منذ عام، كيف نوثق أمانته على الجزيرة التي خانها برشوة جسدية؟

تساءل المعظم:

-هل الناظري ابن بيقاع ما زال على قيد الحياة؟

-نعم ولكن من المستحيل الوثوق فيه.

-أنا مَن أقرر، خذ أيها الضابط خمسة حراس واجلب لي الناظري من السجن إلى البوابة الرئيسية للسور حيث أكون هناك.

-والفرمان؟

-كلامي فرمان إن عارضته أو تأخرت في تلبيته قطعت رأسك.

حياه الضابط بعيون جادة، وركب حصانه وأشار لخمسة حراس كي يتبعوه بأحصنتهم البيضاء، وصنعت أقدامهم غبارًا كثيفًا، وقال المعظم لمسئول الأمن:

-اذهب لجلالة الملك وأخبره بقراري، واكتب وصيتك إن فكرت في معارضتي، أو إخفاء أي معلومة عني.

***

في بهو الطابق الثاني من البيت العظيم سارت الملكة، وهي تسحب ابنتها كطفلة صغيرة، وجلستا أمام نافذة تطل على جزء من الجبل والبحر، وداعبت الملكة يد ابنتها في حنين، وعيناها مليئتان بالمكر والأسئلة، ولم يكن هناك صوت في المكان غير صوت الأمواج، ونيران الأوعية تتلاعب ببلاغة. وظلت الابنة تهرب بنظراتها من الملكة، حتى أفاضت الملكة بما أخفته بداخلها، وكسرت حاجز المعرفة المكتومة:

-أنتِ مضطربة منذ وقت، لِمَ؟

تعلم جيدًا أن والدتها ذكية، ونابهة، وكلماتها تنبع بدقة وتقصد معانيها الدفينة، وأسوأ ما يمكن فعله الآن هو الكذب أو الهرب من سؤالها، وأيقنت أن علاقتها بـ«الغازل» أحد ضباط القوات الملكية انكشفت أمام شبل الملكة التي تنتهي بفواجع سوداء.

-من الواضح أن ما أدركته صحيحًا يا فتاتي المُدللة، اضطرابك ظاهر مثل شمس الصيف الحارقة.

-أنا بخير يا أمي.

ضحكت من كلماتها التي تعارض حقيقة الأمر، وقالت لها:

-غرقك في البحر لن ينقذه إلا سواي، ولا تنسي أن الأسماك الضخمة تلتهم القلوب.

مررت يدها فوق شعرها، وتأملت بشرتها البيضاء، ووجهها الصبوح، وعينيها التي ما عادت هادئة مثل السابق، وقامت وأشعلت غليونًا كان على طاولة البهو، ونادت على تاليا، فجاءت بأقدامها الثقيلة وهي تدفع أمامها «الغازل» مقيدًا من الخلف، ومُجَردًا من بذلته الملكية، وجسده مليء بالندبات والجروح، وفمه مربوط بقطعة قماش تمنعه من الكلام.

-أخطأت العنوان والتقدير، فخادمات البيت العظيم اللواتي يعتليهم الكل، ليسوا مثل ابنتي المدللة.

بكت ابنتها، واقتربت منها تاليا لتهدئها، فغاصت في صدرها، وكان جسدها ساخنًا ويرتجف، وأردفت الملكة:

-أخرجيها يا تاليا وعودي.

سحبتها تاليا، وكان «الغازل» يتأمل تجاعيد وجه الملكة وعينيها الثاقبة وجسدها المتناسق، وضحك ليضايقها، فرفعت عن فمه القماشة، وقال بسخرية:

-اسألي الملك من الذي أخطأ التقدير، أنا؟ أم أسرته الكاذبة، وجده الأعظم المخادع، الذي لا يقدر على خلق سمكة حتى.

صفعته، فهَفت بكلمات كثيرة بلا معنى، وعادت تاليا وكورت يدها وضربته على رأسه، وصاحت:

-أنت وقح.

-وأنتِ عجيزتك ثمينة بلا سعر، ليتك كنتِ خادمة.

أخرجت خنجرًا ونظرت للملكة تنتظر أمرها، فهزت رأسها برفق، وعيناها لمعت في ضوء الأوعية الصفر، وأدرك «الغازل» أن أمامه وقت قليل في الحياة.. وسألته تاليا:

-فيما تفكر؟

- فيك، وفي الملكة وابنتها، وفي خادمات هذا البيت غير العظيم، من سيطأ كل هؤلاء من بعدي؟

خرجت الملكة من البهو مغتاظة من كلماته، واقتربت تاليا من «الغازل»، فمال برأسه إليها، وفتح فمه وهمس بكلمات جعلتها فغرة العينين، وبعدما سكت ضربته بالخنجر في رقبته، وانفجرت الدماء في وجهها وسقط «الغازل»، وكان يخرج منه صوت حشرجة قوي، ومات.

***

تمخضت السماء، ونبتت فيها من العدم ألوان بين الأزرق والأسود والأحمر الدامي، وكانت السحب ثابتة كأن دورتها توقفت، والجو فاتر، والرياح تزداد بمرور الوقت، وارتفعت الأمواج فأغرقت الجزيرة الصغيرة الواقعة أمام بوابة السور الرئيسية، وتخضم منسوب المياه، واستمرت الكائنات الضخمة في الطفو على سطح البحر، تنتظر الفرصة السانحة لتلتهم الجزيرة وسكانها، ووصل زحف المياه إلى الشاطئ فأكل نصفه ودخلت المياه من فراغات بوابة السور، وأيقن الحراس الذين يحمون

المكان أن البحر يدنو منهم، لذلك هرعوا إلى البوابة ووضعوا صخورًا بأحجام مختلفة في الفراغات، لمنع نزوح الماء إلى الجزيرة، وصعدوا بعدها فوق السور لمراقبة البحر، وهم مشدوهون مما يحدث على مسافة بعيدة ، حيث كانت السماء تقذف في البحر أجسادًا دائرية جسيمة الحجم، يخرج منها كائنات ضخمة تختفي أسفل المياه، مما يزيد من نزوح البحر ناحية الجزيرة، وقد منع الحراس من التفكير في الهرب الأوامر الملكية الصارمة التي تقضي بقطع رأس المقصر عن حماية الجزيرة طوال فترة خدمته. في نهاية السور نزل ضابط نحيف على سلم خشبي، وقال للحراس إنه ذاهب للملك، ليخبره بما يحدث في البحر والسماء، ويعود، وركب حصانه، وكانت المياه تزداد عند قدمه رغم الصخور الموضوعة في فراغات السور، وركض الضابط من طريق مختصر إلى البيت العظيم، ورجاؤه في الجد الأعظم يَقل، لأنه سمح بوقوع خليقته في حفرة تنغرس فيها الأشواك، والجثث، والكائنات الغريبة. وجاس الضابط بحصانه بين البيوت وهو يحاول دحض أفكاره السلبية، وتجديد ثقته في الجد الأعظم، ووصل إلى الجبل فربط لجام حصانه في صخرة، وصعد على الممر الجبلي، واتجه للبيت العظيم، وقابل ضابطًا أربعينيًا، وأخبره بما يقع في البحر والسماء، وعاد للسور في عجالة... صعد الضابط الأربعيني على سلم البيت العظيم الذي كان يلتف لفوق مثل الثعبان، ويرتفع على أعتاق أعمدة طويلة ومتينة، وتفرع السلم عند الطابق الأول والثاني إلى اتجاهين يمينًا ويسارًا، وفوق كل اتجاه تثبتت لوحة من القماش يحدها خشب لونه ذهبي، وقد اعتلت هذه اللوحات أوعية مضاءة، وكانت كل لوحة تحمل رسمة لفرد من الأسرة الملكية، وعند الطابق الأخير كانت هناك لوحة للملك يمسك فيها بسيف قصير، ويحارب وحوشًا سوداء، وكان يحرس الطابق عشرة ضباط، أكبرهم ضابط خمسيني ذو شارب مهندم وخفيف، وعينين ثاقبتين، أخبره الضابط بأن البحر يزداد والجزيرة المواجهة للسور غرقت، وغرق معها نصف الشاطئ، ظهر القلق على وجه الضابط الخمسيني، وأمره بالذهاب للسور ومحاولة سد الثغرات بالصخور، والصمود أمام ذلك المد، وعمل متابعة كل ساعة بما يحدث، انصرف الأربعيني، وطرق الضابط بابًا

ضخمًا، وقال بصوت خفيض:

-جلالة الملك، الجزيرة تتعرض لكارثة.

خلف هذا الباب كان سطح البيت العظيم رحبًا وعبقًا، وينيره ضوء القمر الشحيح، ويغالب السحب المتكاثفة، وكان الملك يعتلي فتاة بدينة، وبيضاء، ومفعمة بالشغف، ويغلق عينيه ويجوس بخياله في أجساد الفتيات، ولم ينتبه لكلام الضابط انشغالاً بالفتاة والنبيذ الذي يتجرعه، وكان يقطع ثوب الفتاة الأبيض النظيف المخصص لخادمات البيت العظيم، ويصفعها على وجهها، والفتاة تكتم صوتها كي لا يفتضح أمرهما، والضباط في الخارج يظنون أن الملك يصلي للجد الأعظم، لينجدهم من الكارثة المحدقة بهم. وبعدما انتهى الملك منها دفعها بعيدًا عنه، ووقف وارتدى ثوبه المصنوع من القطن، وأمسكت الفتاة تاجه الذهبي ولثمته بقبلة، فتأججت ناره من جديد وتراجع عن ذهابه، وخلع ثوبه حتى كاد يمزقه، وغاص معها في رحلة جديدة إلى أرض يابسة، يجري فيها نهر أبيض واسع بلا نهاية، وتغوص فيه مراكب صغيرة تحمل كل واحدة فتاة بيضاء، لها نفس ملامح الفتاة التي يعتليها. انتهى منها للمرة الرابعة وارتدى ثوبه ووضع التاج على رأسه، وأمرها بالذهاب من الباب السري، قبل أن يخرج من الباب الرئيسي، أرسلت له قبلة في الهواء وتحركت ناحية الباب السري، وتابعها بعينين محدقتين تتأمل تفاصيلها، وفتحت الفتاة الباب واختفت فيه، ودلف الملك للخارج، وقال للضابط الخمسيني:

-تحدث مع المعظم لأنه يملك جميع السلطات الملكية الآن.

تركهم ونزل على السلم بأرجل ترتجف بسبب كثرة المجامعة هذه الليلة، وكان عقله شاغرًا، وجسده مُتهالكًا داخليًا وخارجيًا، مثل مخلوقات الصحراء التي تعاني من قسوة حرارة الشمس الباذخة.

***

في الجزء المتبقي من سجن الجزيرة بعدما تهشم أغلبه جراء هجوم الكائنات، دلف الضابط المكلف من المعظم بجلب الناظري ابن بيقاع،

ووقف في السجن يتفحص الحجرات المجوفة للداخل، ثم سار ناحية باب حديدي، وأمر حارسًا بفتحه، ودخل من خلاله إلى حجرة واسعة، وجد فيها «ابن بيقاع» ينام على ظهره، ويفتح عينيه، ويتطاير منهما القلق، أمر الضابط حارس خلفه باقتياده وراءه، فخرج الحارس والضابط، و«ابن بيقاع» من السجن، وركب الضابط حصانه، وركب الحارس والناظري حصانًا ثانيا، وأسرعوا إلى بوابة السور الرئيسية.

***

في بهو البيت العظيم كانت تاليا تطمس آثار قتل «الغازل»، وتمحو دماءه من الأرض، ووضعت جثته في جوال أحكمت ربطه، وكانت الملكة تتابعها وتخمد شكوكها الصحيحة، ونيرانها المارقة التي اشتعلت وكادت تخرج من خلقها فتحرق البيت، ورغم ما فعلته في «الغازل»، إلا أنها لم تغفر ما فعله من إثم، مزع فؤاد ابنتها الرقيق، وشقق جدران البيت العظيم، وسيظل أثره يجوس بين أرجاء المكان لمدة كبيرة، وستعبأ به هي وابنتها فقط دون الإفصاح للمعظم الصغير، والملك، بحقيقة ما حدث كي لا تشعل الدواهي.

***

بحجرة في الطابق الثالث نام الملك على ظهره، وأمعن في السقف الخشبي المصفوف، وجوانبه المزخرفة، ومنتصفه المزروع بأحجار كريمة تبرق من تلامس نيران الأوعية، وكان الهواء شديدًا، فقام ليغلق النافذة، واختلس نظرة على البحر ولاحظ ازدياد حجمه، وارتفاع أمواجه، أغلق النافذة وعاد لينام، وخراب الجزيرة يطوف في عقله، ويتمنى التدخل، لكن طاقته نفدت من كثرة المجامعة، وشرب النبيذ، واسترخاء جسده...
وشدت أطرافه بنغمات القنوط السوداء، وسارت قشعريرة مريرة بين جوانحه، وطرق الشعور بالذنب رأسه، فتملص منه لثوان، وعاد حبيس شعورين، ضرورة تواجده مع ابنه، ليساعده، وتركه زمام الأمور كاملة للمعظم، حتى تتسنى له فرصة الجلوس على كرسي الجزيرة المليء

بالفواجع والمسئوليات، شعوران متناقضان جعلاه مسجونًا يتألم بالصمت، والرتابة، والشجن، وقد أذعن لتلبية شعوره الثالث في الحاجة إلى النوم. أغمض عينيه ورأى في الظلام صورة بهية للجزيرة غير مشوبة بالكوارث والخيانة، ويزرع الفلاحون بذور الحب بالأرض الزراعية صباحًا، ويحصدون السلام النفسي والخارجي ليلاً. وفتح الملك عينيه فجأة لأنه استمع إلى صوت في الممر الخارجي للحجرات، وقام وفتح الباب، ورأى أربعة ضباط مكومين على الأرض، وتخترق أجسادهم أسهم مشتعلة بالنار، وفي نهاية الممر وقف شخص يرتدي قناعًا من القماش، ويمسك بقوس صغير ويوجهه ناحيته، أغلق الملك باب حجرته بفزع، وبحث عن مفتاح الباب، وعثر عليه وأخذه، ودسه في الباب وأغلقه، واستمع لصوت أقدام تقترب وتقف أمام الباب، مما أصابه برجفة هزت جسده، وضربت قلبه، وجعلته يتسمر في مكانه، ورأى فجأة فأسًا يهشم الباب من الخارج، فتشقق، وظهر خلفه الشخص ذو القناع القماشي.

***

اجتمع المعظم مع الناظري في المجرى الواسعة، فوق بوابة السور، وكان الاثنان في نفس الطول، وكان «الناظري» نحيفًا، وشعره طويل وبه القليل من الخصل البيضاء، وذقنه غير مستوية، وعيناه مرهقتان، وسأل المعظم عن سبب خروجه من السجن، فأعطاه البردية التي كُتب فيها شروط إغلاق البوابة، وكتاب «القدماء»، أضاق عينيه، وقراء البردية، وقال له ابن الملك:

-أعدك بمكانة عظيمة إن أغلقت البوابة.

-عدني بإثبات براءتي، ووضع الحاكم الثالث في السجن.

-لا تماطل، ولا تتدخل فيما يعتليك من مكانة، لا وقت لدينا، الحامي قُتِل، وروح الخراب تحملق في الجزيرة.

اقترب من أذن المعظم وقال:

-ستندهش حينما تعلم الحقيقة المُزرية.

-أعلم الحقيقة، ولكننا سنلقيها في البحر، لتغلق البوابة، وترتفع مكانتك.

نكس رأسه، ووافق على مقايضة المعظم، وطلب العديد من الأشياء المهمة لتنفيذ شروط إغلاق البوابة، فوافق المعظم، وتساءل:

-هل جثة المولود التي ستقطع لأربعة أجزاء، ضرورية؟

-ضرورية ضرورة مُضاجعة النساء.

تململ عقله من الرد، وامتقع وجهه، فأشار لضابط وأمره بتلبية احتياجات «ابن بيقاع» بلا رفض مهما كانت، ونزل على سلم خشبي ورفع رأسه وقال:

-أنا ذاهب إلى البيت العظيم، عقلي يخبرني بأن الغزو سوف يصل إلى حجرتي.

-لن يَمُر عليك قبلي.

التفت المعظم بعدها لضابط شاب، وأمره بتجميع كل الحراس والضباط الكبار والصغار فوق الجبل، لإخبارهم بفرمان هام بعد تلبية جميع احتياجات «الناظري»، ثم ركب حصانه الأبيض، وركض به إلى البيت العظيم... وقال الناظري للضابط:

-انشر حراسًا كثيرين يطوفون في الجزيرة، ويخبرون سكانها بالامتناع عن الأكل والشرب، والحديث بصوت عالٍ، والمضاجعة، ويذبحون حيواناتهم ويرسمون بدمائها علامة X على الأبواب والنوافذ، وضرورة التخفي في المخابئ السرية، التي تنغمس أسفل كل بيت، وعدم الخروج، ومهما سمعوا من طَرق لا يفتحون. وأخبروهم بأن هذا أمر ملكي واجب التنفيذ، ومَن يتخلّف عنه، سيتعرض للقتل من الكائنات التي هاجمت الجزيرة، واجعل الحراس يفرغون البيوت القريبة، من سكانها، فلا يتعرضون للخطر.

خزن الضابط ما قاله «الناظري» في عقله، وأمر مئتي حارس بترديد هذه الشروط على مرأى ومسمع من الجميع، في أسرع وقت.

***

طاف الحراس بأحصنتهم في جميع أركان الجزيرة بداية من البوابة الرئيسية للسور العظيم، وصولاً للجبل الذي يعتليه البيت العظيم، وهرع الناس بمجرد سماعهم تعليمات الحراس إلى الحيوانات التي يربونها وذبحوها ورسموا علامة الـX على أبواب ونوافذ البيوت، ووضعوا الطاولات الخشبية خلف الأبواب حتى لا تُفتح من الخارج، ودخلوا مخابئهم التي تنغمس أسفل بيوتهم، ودب الخوف في قلة من السكان مما دفعهم لإخفاء زوجاتهم وأطفالهم في المخابئ، ووضعوا أثاث بيوتهم على النوافذ والأبواب، وجلسوا خلف الأبواب لزيادة الحماية. وصاح رجل عجوز كان بيته بجانب السوق مطالبًا السكان برمي الأطعمة، فلا يصيبهم سخام القدر، واستجاب له القليل. وبكت النساء والأطفال، وارتجف الرجال لأنهم تخيلوا موت أطفالهم وزوجاتهم. وضربت الزوجات والأمهات اللواتي يعمل رجالهم في القوات الملكية، صدورهم، وتساءلوا: «هل سيظل الحراس والضباط في الخارج ويتعرضون لموجة الخطر؟»، ولم يتوقفوا عن النحيب. ورفضت قلة من السكان تصديق ما يُقال، ومرقوا عن تنفيذ الأوامر، وشككوا في القوة العقلية لملك الجزيرة وحراسه وضباطه، بل إنهم فتحوا أبوابهم وانتظروا، ليتحققوا بأنفسهم مما يقال. وأخرج الحراس السكان الذين يقطنون بالقرب من البوابة الرئيسية للسور، ووزعوهم على بيوت أقاربهم. ولبى الحراس جميع طلبات «الناظري» ووضعوها بالقرب من البوابة الرئيسية، وأمرهم جميعًا بالانصراف، وترك المئة فتاة وحدهم، وأكد عليهم ضرورة الاختباء... ورسم الحراس على أبواب ونوافذ البيت العظيم العلامة المنشودة، بالدماء، ووصل المعظم إلى الجبل واجتمع بالقوات الملكية، وأمرهم بالتخفي في المخبأ العسكري المطموس شرق البيت العظيم، وعدم الخروج إلا بإذنه، وأوصاهم بخفي الأحصنة والأبقار والحيوانات والطيور في مخبأ سري ثان، أسفل أرض

السوق، فنفذوا ما قاله ودخلوا بعدها إلى الطابق الأول، وفتحوا بابًا ضخمًا كان مخفيًا أسفل سجادة حمراء كبيرة، ونزلوا منه بشكل منظم، ثم أغلقوا خلفهم. وبحث المعظم في حجرات الطابق الأول عن الملكة وشقيقته، فوجدهما يجلسان داخل حجرة صغيرة، وشقيقته تبكي بشدة في حضن والدتها، فقص عليهما ما سيقع، وسحبهما إلى المخبأ الملكي الموجود غرب البيت العظيم، وكانت والدته قوية لا تخشى ما قاله، وشقيقته لم تكف عن البكاء، ولما وصلوا المخبأ، اصطدموا بتاليا، مصدومة ووجها مكدس بالحزن، وملابسها مغطاة بالدماء، فاستمهلت الملكة حركتهم وسألتها:

-ما بكِ؟

نظرت للمعظم الصغير، وقالت بصوت متهدج:

-قُتِل الملك.

هامت ابنة الملك فيما سمعته وزاد بكاؤها، وزعق المعظم:

-وأين كانت قوات الحماية؟

-جلالتك سحبت أغلبهم.

-سأقطع رقابهم وأدفن أولادهم أحياء، هؤلاء الأغبياء عديمو الخبرة.

انهمرت دموع المعظم، ولم تضاهها دموع مثل هذه من قبل، وقالت تاليا:

-ما حدث كان مُدبرًا منذ فترة، لقد دخل البيت العظيم خمسة أشخاص محترفون في القتال، قتلوا بعض الحراس والضباط بالأسهم المشتعلة، اشتبكت معهم، وقتلت أربعة منهم، وهرب الخامس مني وحين لحقت به كان..

- قتل الملك يا تاليا.

-نعم يا جلالة الملكة.

أمطرت السماء، وارتفع صوت البرق والرعد، واهتز البيت العظيم أو هكذا

ظن الجميع، فدخلوا للمخبأ وهم في حالة من اللاوعي، وتقدمتهم تاليا بسيفها الحاد لتتأكد من حماية المكان، وضرب المعظم يده أكثر من مرة في الحائط من الغضب، وحينما نزلوا إلى المخبأ أغلق بابه من الخارج، وركض لحجرة الملك. تجمد قلب الملكة خوفًا على ابنها وصرخت ليعود إليها، فلم يُبالِ، وصعد على السلم الثعباني، وسار في ممر الحجرات، ورأى جثث الضباط، ووصل إلى حجرة الملك، وفتح بابها كالمجنون، ورأى جثة والده فوق سرير حوافه مصنوعة من الذهب، وكان وجهه يابسًا، والدماء تغطيه، وبشرته البيضاء غير براقة، والفزع يَعدو من عينه، ويتنصل من المسئولية، ويُنكر ما فعله بقلب الملك حينما رأى قاتله يهشم الباب، ثم بارز الملك بسيفه الحاد، فتعثر الملك وسقط، فطعنه في معدته، وضربه بقدمه، وظل الملك يصرخ، حتى ناوله القاتل ضربة ثانية بالسيف في قلبه، فمات على الفور... قبّل المعظم رأس والده ويده، واعتذر له بصوت خفيض، ووعده بالقصاص من المتخلين عن حمايته، في وقت لم يكن فيه للحماية سعر. ووضع ساعديه أسفل جثته ورفعه، وخرج به من الحجرة، ونزل على السلم وكانت قدمه تتخبط وقلبه يتمزع من الغضب، وحينما وصل إلى باب المخبأ، فتحه وأنزل جثة الملك بمعاونة تاليا. وأراحت تاليا الجثة على سرير، وأغلق المعظم باب المخبأ بقفل حديد. كان المكان واسعًا وعبقًا برائحة طيبة وأوعيته مشتعلة، وتثبتت ناحية اليمين ثلاثة سرائر عليها أثواب ملكية هفهافة، وذهبية اللون، وانزوى حمام المخبأ في زاوية ناحية اليمين، وفرشت الأرض سجادة حمراء مربعة، عليها نقشة فراشة مزركشة بألوان عديدة وحولها أرانب تقفز في الهواء. وفي آخر المخبأ كانت هناك عشرة أنابيب من الخشب مفرغة من الداخل، وتنتهي كل أنبوبة من الأسفل بفتحة مستديرة يخرج منها هواء قوي يحمل يود البحر، وكانت تسير هذه الأنابيب داخل الجبل في مجرى تم حفره منذ سنوات، وتنتهي بفتحات تسمح لمن بداخل المخبأ بالتنفس، وهذه الفتحات مثبتة عند سفح الجبل باتجاه البحر، وعليها من الخارج صندوق حديد مغلق بقفل، وبه ثقوب كثيرة وواسعة تسمح بعبور الهواء... سحبت تاليا كرسيًا وجلست أسفل باب المخبأ، وتمسك سيفها في وضع تأهب، وجلست الملكة

وابنتها فوق آخر سرير، وأغلق المعظم عين الملك الباهتة، ولفه بدثار مصنوع من القطن، وتوقفت عينه عن ذرف الدموع، ونام بجانبه صامتا، ضائعا، بلا شط ولا مرسى، ولا طوق نجاة. وحين أغمض جوهرتيه رأى والده يقف بتاجه الذهبي وخلفه شخص غامض مقنع الوجه، وثب عليه بسيفه، وفصل رأسه عن جسده، انتفض المعظم وفتح جوهرتيه، فتجمدت أوصاله لما وجد الحاكم الثالث يخرج من الحمام، وجسده مليء بالدماء، وإصبعه الأيمن مقطوع، انتفضت الملكة وابنتها من نفس المنظر، ووثبت تاليا ناحيته، وسقط الحاكم على الأرض.

***

اقترب الوقت من الفجر، ودار الصمت مختلطا بالخوف على هيئة حلقات دائرية ترتفع من البيوت إلى السماء، السماء التي توحشت وكثرت فيها السحب، ومات القمر بعد حرب شرسة مع السحب، حاول فيها أن يظفر بالنصر، ليرسل نوره الشحيح إلى الجزيرة، لكنه انهزم، وزاد البحر كأن جبالاً من الثلج انجابت فيه. وألقى الصياد بجثة الحارس في النهر ولما سمع تعليمات الحراس، أغلق باب البيت، ونزل مع المرأة وابنها إلى المخبأ السري، وكان يتبادل معهما نظرات الشك. ووصلت حلقات الصمت إلى «الناظري» الواقف خلف بوابة السور الرئيسية، ويقسم الفتيات العذارى على دائرة واسعة فوق الرمال، وكانت الفتيات يرتدين فساتين سوداء شفافة، تظهر أثداءهم منها، ويربطن شعورهن بأحبال صفراء، ووجوههن باهتة من الرعب، وبعدما قسم «الحامي» الفتيات، نثر على الرمال مادة حمراء جافة، وتمتم ببعض الكلمات الغريبة بصوت عال، ودخل في الدائرة التي صنعها بالفتيات، وأمرهن بأن يمسكن أياديهن ببعض، ولا يتركنها أبدا، فإن تركنها تنحل الدائرة ويتعرضن للموت، وأمرهن بأن يولينه ظهورهن، فلا يرين الطقوس. وجلب حقيبة جلدية، وأخرج حمامة مربوطة من جناحيها، ودجاجة، وعصفورا، وأرنبا، وذبحهم داخل الدائرة ووزعها في أربع نواحي، وانبلج القمر واضحا في السماء واختفت السحب، فخرج الحامي من الدائرة وجلب جثة مولود جديد، ووضعها داخل الدائرة،

وابتلع ريقه، وقطعها لأجزاء ونثرها، ونظرت فتاة على الحامي وتقززت وأفرغت معدتها، فزعق:

-لا تنظري خلفك، ولو غمرنا البحر يا فتاة.

هزت رأسها بخوف، واستعدت الفتيات. ووقف «الناظري» في الدائرة وقرأ مقدمة كتاب «القدماء» بصوت مرتفع، اشتدت الرياح وارتفع صوت الأمواج، وشعرن ببرد قارس لا مثيل له، فارتجفت أجسادهن عدا هو، وظل يقرأ بعيون حادة، وتجلجلت الأرض أسفل أقدامهن فكدن يسقطن لكنه حمسهن:

-تمسكوا لأجل الجد الأعظم.

وبعدما انتهى من مقدمة الكتاب، وضعه على الرمال، ونظر للسماء، وجثا على ركبته، ورفع ساعديه، وتلا كلمات معقدة بشكل سريع، وصمت بعدها وأغلق عينيه ورفع ساعديه لفوق، أمطرت السماء ماءً أسود برائحة نتنة، وغرقت ملابس الفتيات واقشعرت أجسادهن.

-لا تخفن إنها مياه اغتسال السماء من النجاسة.

توقف المطر بعد ساعة كاملة، ظلت فيها الفتيات واقفات بثبات، والحامي يغمض عينيه ويحرك شفتيه، ثم فتح عينيه، فوجد الرمال تحولت للأصفر اللامع، وكانت مياه البحر تقترب منهم، أمسك الناظري خنجرًا حادًا ونظر للسماء فكانت سوداء قاتمة، عدا جزء صغير يرسل منه القمر عونه إليهم، وأمطرت مرة ثانية وكانت الرائحة هذه المرة أصعب، وامتقع وجه «الناظري»، ومرر الخنجر على كفه، وضغط على أسنانه ليطمس الألم فلا يصرخ ولا يئن، وقطع جزءًا من كفه، وانسابت دماؤه فوق الرمال الصفراء، واختفت الدماء في ثوانٍ، وربط يديه بحبل ليوقف النزيف، وارتجفت الأرض أربع مرات، وظللن ثابتات لمدة ساعتين، حتى تبخرت قواهن وضربهن الوهن، وزادت حاجتهن إلى الراحة، وارتجفت أقدامهن، وثابر، ثم جلب حجرًا كبيرًا، كان خلف إحدى الفتيات، ونام على ظهره، ورفع الحجر ووضعه على قدميه، وأراح ظهره، وجابت عيناه

السماء، ولم يتوقف عن التمتمة، وانفجرت السماء وأصدرت رياحًا عاتية كادت تقتلعهن من وقفتهن، فهدأهن:

-الوقت اقترب، اصمدن.

انتشرت في السماء خيوط غليظة باللون الأحمر كانت تظهر وتختفي بسرعة كبيرة، وتراجعت مياه البحر بعدما بللت ملابس الحامي، وهدأ الموج فتدنى صوته، وتراجعت السحب القاتمة فأصبحت صفحة السماء صافية. هدأ الجميع وتنفسوا الصعداء، ولكن الحامي أقدامه كانت تصرخ وتئن من ثقل الحجر، وساد صمت بليغ كأن الجزيرة هي منبع هدوء العالم، وعادت الطيور تحلق في السماء، وفجأة أظلمت الجزيرة كلها، وفشل «الناظري» في رؤية الفتيات، واستمع الجميع لصوت أقدام غفيرة تسير بسرعة غير معقولة وترتطم بكل شيء حولهن، البيوت، والسور، والأشجار، والرمال، وساد الخراب، وخفقت قلوب الفتيات وأحسسن بأيادي ذكورية تتلاعب في أجسادهن، وصرخت فتاة من الخوف، واستنجدت بالحامي، واشتم بعدها الكل رائحة حريق، وتفجرت أصوات صراخ من كل جانب، وتمزقت ملابس الفتيات كأن جيشًا من الذئاب الضارية هاجمهن، وارتفعت صرخات أخرى من سكان الجزيرة الذين وقفوا على أعتاب بيوتهم وأبوا الاختباء، وانفجرت بعد ذلك أصوات طرق على أبواب البيوت، وأصوات أخرى صاحت:

-افتحوا.

ظل الطرق لفترة ثم تدلى داخل بئر السكوت، وظهر نور الشمس وكانت تسير بتمهل، وتجرف بنورها الظلمة الموحشة، والأصوات المخيفة، وصاح بعد ساعة:

-أغلقت البوابة.

وأزاح الحجر من على قدميه، وأمر الفتيات بترك أياديهم والجلوس للراحة، ووجد الفتاة التي صرخت حينما سبحن في الظلام تسقط على ظهرها ووجهها أزرق وجسدها محترق، وصرخت الفتيات من منظرها

وتجزعت نفسه، فلاذ برأسه ناحية الجزيرة، ورأى الخراب يحلق بوقاحة، الأشجار اقتلعت، والرمال تطايرت وسقطت على مياه النهر، وتحطمت البيوت القريبة من السور، وتوحلت الأرض الطينية التي تحاوط النهر لشدة ما انهمر من أمطار، وعلى مسافة بعيدة كانت هناك بيوت خاوية، وعلى أعتابها جثث الرجال الذين رفضوا الاختباء، ووقفوا في وجه جنود الشر العتيق، الذي جاء من الظلمة ليدمر الجزيرة. ودس الحامي يده في جيبه وأخرج تمرتين، واقتات بهما، ثم وقف بجذعه وصعد على سلم خشبي ملتصق بالسور، ووقف فوق البوابة الرئيسية ونظر إلى البحر، وجاهد الوسن، واطمأن عندما وجده تراجع وظهرت الجزيرة الصغيرة من جديد، لكن الكائنات الضخمة ما زالت تتلاعب في البحر، وتطفو أحيانًا فوق سطحه، وحين أمعن في هذه الكائنات أيقن أنه لمن العسير دحضها بقوة السحر، والتف بقدمه التي كانت ترتجف ونظر للجزيرة، فكانت بوابة المقابر مفتوحة على مصراعيها، وأرضها مكدسة بحفر كثيرة، وبداخل كل حفرة هياكل عظمية، وبقايا جثث موتى الجزيرة، وبجانب المقابر كانت هناك آثار لأقدام حامت حول السجن، وكانت بوابته مفتوحة، فشاهد منها «الناظري» جثث المساجين زرقاء، وعيونهم مفقوءة، وفتح فمه ليصرخ رغبة في إخراج بؤسه، وحزنه، لكن «الجراكو» أقحمه بصوت زئيره الباذخ... بعد فترة قصيرة من الراحة، نزل «الحامي» وكان جسده ممزقًا من الإرهاق، وتنبعث منه رائحة كريهة، وتقزز من نفسه وسار ناحية البيت العظيم، وضغط بقدمه دون قصد على زوجين من الحمام كانا ممزقين. وحاول إكمال سيره إلى البيت العظيم ليخبر المعظم أن الطقوس انتهت، فلم يعثر بداخله على طاقة تكفيه، فجلس على صخرة فضية اللون، والتقط أنفاسه، وأمر الفتيات بالذهاب وإخبار السكان بإمكانية الخروج، فسارت الفتيات يعرجن من الإرهاق، وكن ينادين على السكان بأصوات حزينة، وخرج القليل من السكان مشوبين بالرعب، واطمأنوا بعد ذلك، وظل الجزء الأكبر في بيوتهم، يخشون الخروج.

***

في المخبأ الملكي استمع الجميع لصوت الفتيات وهن يخبرن السكان أن الطقوس انتهت ويمكنهم الخروج، وكان الحاكم الثالث نائمًا على السرير وعيناه ثابتتان، وأمسك يد المعظم وحدثه:

-كيف؟ أخي مات هكذا بلا ثمن؟ الجزيرة تنهار، وأنا تعرضت لمحاولة اغتيال وقحة، فقدت فيها إصبعي ولولا هروبي من القاتل، لكنت واقفًا الآن أمام الجد الأعظم منكس الرأس، وعيني لا تلتفت إليه من الخزي.

تدخلت الملكة وهي تضع رأس ابنتها النائمة على الوسادة:

-دع النحيب والولولة للنساء واستعد لإخماد الشكوك التي ستنهال علينا من السكان، واثبت للجميع أن الأمور بخير.

-لابد من إخبار السكان باغتيال الملك في سبيل تحقيق حياة رغدة لأجلهم.

-هل جننت؟ إن علم السكان بموت الملك دون تولية المعظم للحكم سيطمعون في خرق القواعد وينهشون لحمنا، وثرواتنا، ويستخدمون عظامنا مشاجب لأثوابهم الرثة، ويصنعون من جلودنا مراكيب يرتدونها في أرجلهم القذرة.

-تحدثي بشكل لائق، وكفي عن وصفي بالمجنون كما تفعلين دائمًا.

-لن أكف طالما لا تستخدم عقلك إلا في خراب حُكمنا.

تدخل المعظم:

-أرجوكما لا وقت للجدال.

وأشار ناحية جثة والده وقال:

-مات الملك ولابد من تدبر الأمر بحنكة.

-تأخر إعلان موت الملك يضعنا طعامًا في قفص مليء بالوحوش الضارية يابن أخي.

سألته الملكة بتقزز:

-ماذا تبتغي بعقلك الشيطاني؟

-اغتيال الملك، ومحاولة اغتيالي، يؤكدان وجود قوى تتربص لنا، ومن المؤكد نشرهم لخبر مقتل الملك بين العامة خلال الأيام المقبلة، مما يثير بداخلهم الشكوك بأنني قتلت الملك، لرغبتي في حكم الجزيرة، وأنتم تتكتمون على الخبر كي لا تُثار حفيظتهم ضد الأسرة الحاكمة.

تدخلت تاليا وجسدها يهتز:

-لن يصدقهم السكان، ويمكننا إقامة طقوس تولية المعظم في عجالة، ونتعلل بأن الملك مريض، ولن يقدر على حضور الطقوس، وأنت تحل مكانه وتسلم تاجه للمعظم.

- قوانين التولية التي وضعها الجد الأعظم تنص على أنه لا يجوز اعتلاء المعظم للكرسي قبل إكماله لعامه الخامس والثلاثين، والمعظم يبتعد عن هذا العمر بعامين، مما يجعلني قانونيًا ملك للجزيرة حتى يصل المعظم للسن المطلوب.

سألته الملكة بغضب:

-وما العمل إذًا؟

- نعلن وفاة الملك، وسأتنازل للمعظم عن الحكم بحجة مرضي.

وبختته الملكة ووصفته بالذئب، فصاح فيها:

-أنتِ لا تدرين المصلحة العامة، وعقلك صدئ.

أوقفه المعظم:

-احفظ لسانك عن الشر يا عمي، ووفاة الملك لن تُعلن، ومَن يُعلنها للسكان دون إذني تقطع رأسه، وتلقى لأسماك البحر.

وقف الحاكم بقامته القصيرة، ومعدته الكبيرة، وكظم غيظه، واقترب من

السلم، وصاح واللعاب يتطاير من فمه:

-افعلوا ما شئتم، وقسمًا بشرف الجد الأعظم، وجثة أخي هذه، أنتم تفقدون شرفكم، وتضعون قوانين الجزيرة في وحل شديد التعفن.

صعد على السلم، وفتح الباب وقبل ذهابه، قالت الملكة:

-إن كانت القوانين التي وضعتها الأسرة الملكية، تتعارض مع مصلحة الأسرة الملكية، فإبطالها ليس جريمة.

-الجريمة الحقيقية هي زواج أخي منك، وداعًا.

***

الفصل الحادي عشر

جاء شهر نوفمبر برياحه الباردة، واستعدت الإسكندرية لقرب فصل الشتاء، فارتدى الرجال المعاطف الصوف، ولبست النساء الأثواب الطويلة الثقيلة، وبدل الجنود الإنجليز سراويلهم الكاكي القصيرة بالسراويل الثقيلة، وكان الهواء يشتد من السابعة مساءً حتى العاشرة من صباح اليوم التالي، وكانت ترتفع درجات الحرارة بداية من الظهر والعصر، حتى أول المغرب، مما يدفع الناس إلى خلع ملابسهم الثقيلة ووضعها فوق أكتافهم وهم عائدون من أعمالهم. وانتشرت فاكهة الرمان في الأسواق، وتهافت عليها الناس لثبات سعرها من العام الماضي، وخللت النساء الفلفل الأخضر والزيتون في ماء ممزوج بالخل والملح، استغلالاً للموسم، وقلت حركة شراء الأسماك واللحوم والدواجن، لأن جزءًا كبيرًا هاجر من الإسكندرية، والجزء المتبقي يركز على احتياجاته الأولية كالزيت والسكر والدقيق والخبز والفول والفلافل والخضروات، والمنتجات الرخيصة. وكان الجميع ينتظر وقوع الغارات في أي وقت بشغف يبدد راحتهم، ويُململ أمعاءهم، وشبح الترقب المخيف يزعزع الشعور بالاستقرار. وكعادة حميدو في اليوم الأول من كل شهر يذبح عجلًا، وخروفين، ومعزة، ويوزع لحومها على شحاذي حارة اليهود والحارات المجاورة، فيزيد محبيه ورواده،

ويكسر عين فتوات المناطق القريبة، لأنهم لا يقدرون على ما يقوم به، ويخسرون محبة الشحاذين وأهالي الحارات، ويكونون في موضع حرج، خاصة حينما يرسل لحم المعزة التي يذبحها خصيصًا إليهم، ليؤكد على مكانتهم ضئيلة الصدى في قلبه، لأن المعزة أضعف ما يذبحه. وكان رجال حميدو كلهم موجودين ودماء الذبح تلطخ ملابسهم، وغرق الدبش الأبيض بالدماء، والمياه التي رشوها على اللحم لتنظيفه، ووزع «التابعي» و«سيد الرفاص» و«الشاوربي» رجال حميدو، اللحم في أوراق جرائد مُحملة بِهَم الأخبار السياسية، والعالمية، وأعطوها للمحتاجين، وتعالت أصوات الدعاء بدوام الصحة والعمر والفتونة للمعلم حميدو الجن أرجل رجال الإسكندرية، وقَبل بعض الشحاذين يده أثناء جلوسه على القهوة وتدخينه للشيشة، ومتابعته لأرداف النساء، وكان يسحب يديه من الشحاذين وهو مُستاء من رائحة عرقهم القذرة، ويرفض النظر إليهم حتى لا تتلوث عيناه بملابسهم الرثة، ووجوههم المليئة بالخدوش والجروح، وأجسادهم التي لا تخلو من عيب. وكان الأطفال الصغار يلتفون حول الدماء ويضرجون أثوابهم بها، ويصيحون بأصوات رفيعة: «الله كبير»… وحين فرغ رجاله من التقطيع والتوزيع، أمرهم بتنظيف المكان والأدوات، وانصرف إلى بيته في نهاية الحارة على غير عادته، فطالما كان يحتفظ بجزء من اللحم، وبعد انصرف الشحاذين يشويه على الفحم ويأكله مع رجاله، لكن هذا الشهر الأمر غير اعتيادي، وهو يريد إفراغ عقله من الأحاديث، والاجتماعات، والمشاجرات، ووصل الأمر إلى إنه تهاون الشهر الماضي في تهديد من فتوة السيالة، بتكسير محل سمك تابع لسلسلة المحلات التي يمتلكها أولاد عمه، الذي توفي منذ عشرة سنوات، وذهب حميدو إلى الفتوة وهدأ الموقف، وأوصى شياطينه بعدم الدخول في مشاحنات مع الناس، وأفرغ عقله من الأحقاد والإحساس الدائم بالمؤامرة، تمهيدًا لحدث هام يستعد له… صعد الجن على أدراج بيته ثم دلف إلى اليمين في ممر طويل، ووقف أمام باب شقة يحمل رقم تسعة، دس المفتاح في الكالون ودخل إلى الشقة، واشتم رائحة كونياك فرنسي، ورأى زوجته تنام بظهرها على أريكة ضخمة في الصالة، وأمامها زجاجتا كونياك، وكوبان فوق

طاولة قصيرة، وعلى الأرض كانت هناك نرجيلة فوقها فحم غير مشتعل، وكانت زوجته شابة وبدينة، وترتدي قميص نوم أبيض ضيقًا يظهر ما خلفه. خلع حميدو حذاءه ولم يحدثها، فاعتدلت برقة وقالت:

-الكونياك مستنيك.

رمقها بنظرة حادة وأدار رأسه في فتور، ودلف إلى الحمام واغترف من ماء الصنبور البارد وغسل يديه، ووجهه وعاد للصالة. جلست زوجته على قدمه، وأحس بدفئها، واستنشق عطرها الطيب، فأبعدها بيديه الخشنة، اغتاظت وقالت وهي تزيل شعرها الناعم عن وجهها:

-كنت في البيت الثاني؟

-لا.

لوت فمها وابتعدت عنه، ودخلت إلى غرفتهما وأشارت إلى جسدها وقالت:

-متستحقهوش.

اختفت في ظلام الغرفة ونامت على السرير، فخرج منه صوت احتكاك ضعيف، وسار حميدو ناحية النرجيلة، وأغلق شباك الصالة ليمنع هرولة الهواء البارد منه، وجلس على كليم مزركش يحتل الأرض، وسحب من أسفل الأريكة وعاءً حديدًا بأربعة أقدام رفيعة، وضع فيه الفحم وفتت بيديه شمعة ونثرها عليه، ثم أشعل الفحم بالكبريت، وقلبه وحرك فوقه الهواء بورقة بالية، فزاد توهجه بمعاونة الشمع، ووضعه بعدها في النرجيلة وشد أنفاسًا، ونفثها، عم الدفء في المكان وغيم الدخان سماء الصالة وتشبرت الرؤية، وتكيفت نفسه. خلع جلبابه واكتفى بملابسه الداخلية البيضاء، وجاس عقله في جبال الأمل الضخمة، ومنى طموحاته بتسلقها يومًا، لكن نفسه تهاوت وافترشت أرضًا موحلة باليأس، وأيقن أن العمر مجرد لحظة مباغتة لا مُتسع لليأس فيها، وفكر في سنوات عمره الخمسين، والنزاعات، والمشاجرات، والأجساد التي أخلاها من الأرواح،

وجعل الجحيم مكانًا لها، وعاهرات الحارات اللواتي تأججت شهوته بهم، وزوجتاه «نادية»، و«سكينة» التي تصغره بعامين، ويحترمها ويوقرها، لكنه لا يطيق ملامسة لحمها اليابس الفجعد، ويكتفي بالمبيت عندها ليومين فقط في الأسبوع للاطمئنان عليها هي وأولادهما فتحي، وسيد، وثروت، وزبيدة التي تأتي يومي الخميس والجمعة مع وزوجها، وزكريا أصغرهم سنًا، وأكثرهم حملاً لملامحه وقوته، وكان أنسبهم للفتونة، لولا قتله للتاجر الدمياطي في محطة الرمل، وهربه إلى القاهرة حتى تهدأ الأوضاع. وقد رفض حميدو إغفال أهمية التعليم الذي حُرم منه فاهتم بتعليم أولاده القراءة والكتابة والحساب على يد شيخ الحارة، ثم عملوا بفروع محلات السمك التابعة لعائلته، والتي تغطي مناطق كثيرة ومهمة، ولها سمعة طيبة، ورواد كثيرين من المصريين والأجانب والضباط الإنجليز، أما زبيدة، فلم ترتح نفس حميدو لعروض الزواج التي جاءت إليها من فتوة السيالة، وفتوة منطقة القلعة، وفتوة شارع اللبان، وأبى تسليمها لهؤلاء المجرمين مثلما وصفهم، ولم يكن لزبيدة رأي أو كلمة، وكانت تملك وجهًا صبوحًا، وجسدًا رشيقًا وقصيرًا، وعينين سوداوين، وشعرًا ناعمًا، وصوتًا هادئًا. وظلت في بيت والدها مُعززة حتى طلبها مُحاسب يعمل في مُعسكر الإنجليز بالميناء الشرقي، أحبها عندما مرت عليه ذات مَرة أثناء عمله في الميناء، وكانت تركب حنطورًا أسود وتمسك بالخضروات والفواكه التي ابتاعتها من السوق، فجذبته ملامحها الوقورة الهادئة، وتتبعها وعرف أن والدها حميدو الجن، فاستعان بمأمور القسم ليتوسط له عند حميدو، لأنه كان يخشى غضبه، وبعد تفكير عميق، ونظرة مُستقبلية لابنته وافق «الجن»، وأقام لها فرحًا تتذكره فتيات الحارة حتى الآن، وتعاير به الزوجات أزواجهم في مشاجراتهم. وتزوج أولاده الثلاثة بعد زبيدة بثلاثة أشهر في ليلة واحدة، وعاشوا في بيته القديم الذي يتوسط حارة اليهود، ويتكون من طابقين؛ الأول به شقة رحبة مخصصة للعائلة كلها، والطابق الثاني؛ به أربعة شقق لأولاد حميدو، أما زبيدة فهي تسكن في شارع اللبان. وتجتمع العائلة كلها يومي الخميس والجمعة...

وبعد عدة سنوات فاض الكيل بحميدو من جسد «سكينة» اليابس، فقرر

تهدئة نيرانه بـ«نادية»، الأرملة الشابة التي كان زوجها يعمل معه، وقتله ضابط إنجليزي كان ثملًا، وتحرش به ليلًا، فصفعه زوجها، مما أغضب الضابط، وقتله بمسدسه وهرب. وكان يذهب حميدو لها كل يوم ليلًا، ليقضي معها سهرات مُفعمة بالطاقة والعنف، وتعرف على جسدها ولحمها المشدود، وانجذب إليها، ووجد فيها خبرة واسعة لا تعرفها عاهرات بيت بدرية التبع، ولا زوجته، ولا أي فتاة أو سيدة في حارة اليهود، وقرر الزواج منها كي تصبح لقمة يمضغها بالنهار والليل. وكان فرحهما بسيطًا عكس ما توقعه الناس، وانتظروا الولائم التي يتنوع فيها اللحم بين المسلوق، والمشوي، وينتشر فيها الكونياك، والبيرة، والحشيش، والأفيون بدون ثمن كما حدث في فرح زبيدة، وأولاده الثلاثة. وانزعجت سكينة من هذه الزيجة لكنها كظمت غضبها وحزنها، وتناست مع مرور الأيام، وغضبت زبيدة من أبيها ووصفته بالمراهق، ورفضت حضور فرحه، أما أولاده الثلاثة فكانوا مشغولين بتأمين الفرح مع رجاله، والرقص على المزمار والطبل في الحارة، ولم يحضر فتوات المناطق المجاورة، ولا أي شخصية بارزة، الفرح. وابتاع حميدو لنادية بيت جديد في نهاية حارة اليهود مكون من طابقين، ولا يسكنه سواها.

***

انتبه حميدو إلى أنه يسحب أنفاسًا خاوية من الدخان، ووجد الفحم تحول لرماد، فأزاله وأخذ فحمًا من الوعاء ووضعه في حَجر النرجيلة، ودس فيه قطعة حشيش صغيرة، وسحب أنفاسًا عميقة وأدخلها لصدره، سعل بقوة وتطاير اللعاب من فمه، وابتعد عن الإمعان بعقله في حياته بتفاصيلها الرتيبة، ودقق في الواقعة التي زجّت به إلى هاوية القلق، وجعلته يبتعد عن الناس وأحاديثهم، وما يشغله دومًا من صراعات. واقعة شُحنة الأفيون الضخمة التي انتظر قدومها من دولة في قارة آسيا، ووصلت الميناء الشرقي منذ أسبوع، وتأخر ميعاد استلامها رغم أنه سدد تكلفتها، ودفع الكثير لمسئولين الجمارك والتفتيش لكي يغلقوا أعينهم عنها، وطيب أمعاءهم باللحمة والحلويات الشرقية، وتحايل عليهم وأدخل

أربعة من رجاله يتابعون كل ليلة سير الشحنة في الميناء الشرقي المكتظ بالمراكب الكبيرة، والسفن الضخمة، والصيادين والموظفين، ولكن هنالك مشكلة لا يفهمها وهي تأخر استلام الشحنة من الميناء في الميعاد المحدد، كما خطط مع مسئولو الميناء. وقد ذهب إليهم أكثر من مرة، فلا يقولون له سوى «انتظر»، بل إن اثنين منهم أصبحا يتعاملان معه بفظاظة وتكلف، لكنه يتمالك أعصابه، ويمنع نفسه من معاقبتهم، لأنه رهن بيتيه في حارة اليهود، وكيلو ذهب استلفه من زوجته سكينة، ورهن ثلاثة محلات سمك في محطة الرمل، ودفع كل ثروته لترسي الشحنة في مرساه، ويدري أنه من الغباء خسارة تلك الأموال من أجل مُعاملة سيئة من موظف، لن يتعامل معه مرة ثانية، وقرر الالتزام بكلام المسئولين وينتظر كما قالوا له. أزال «لَيّ» النرجيلة من فمه، وارتدى جلبابه، وأطفأ المصباح الكهربائي، وفتح شباك الصالة، فهرب الدخان، ولفحه الهواء البارد، ووقف في الشباك مُستندًا على ساعده الأيمن، والتصقت معدته الكبيرة في الخشب، وكانت الحارة مغطاة بموجات الصمت البليغ، ويسير فيها كلب نحيف لف الجرب جسده، ونبح بصوت خفيض ورفع عينيه إلى حميدو، وجرى لينام أسفل عربة فول خشبية لونها أخضر، كانت مركونة بجانب بوابة البيت الأمامي، ومكتوب عليها بخط أحمر «كل واشكر». نظر حميدو إلى السماء وتوسلها لتُرسل إليه عونها، ويستلم شُحنة الأفيون، ليزرعها في أجساد الناس ويُتلف أمخاخهم، ويُبدد أموالهم، ثم انتبه وتذكر أنه لربما السماء هي من أوقفت الشحنة، لتحمي أولادها من شره، فهرب بنظراته بعيدًا عنها، ولامست عينيه دموعٌ قليلة من الغضب، والندم، على دفعه لكُل ما يملك في شُحنة يمكن أن تظل ثابتة في الميناء لشهور، بغير عِلة... انتبه لطرقات خفيفة على باب شقته، فأغلق الشباك وفتح الباب.

-الوقت مُتأخر، لكن لدي ما سيجعل ليلك نهارًا.

قالها التاجر اليهودي «أدين»، ودلف من باب الشقة وجلس على الأريكة، فأغلق حميدو باب غرفة النوم على زوجته، وقال:

-مَن سمح لك بالدخول؟

-شُحنة الأفيون.

-وما دخلك بها؟

-لن تُغادر الميناء إلا بإذني.

ضرب حميدو جبينه وزعق:

-ألا تُخيفك جُمجمتي الشيطانية؟ باستطاعتي حبس روحك هنا مدى الحياة، وإلقاء جسدك في مياه البحر، وصدقني لن تمسها القروش بسوء، لما لها من مرارة.

تجول «أدين» بعينيه الخضراوين في الشقة، والثقة تعتليه كأنه مصدرها في الكون، ورفع إصبعه الأوسط ناحية الكونياك، وقال:

-ألن تُضايف إنسانًا بلا وطن مثلي؟ إنسانًا اتخذ من الإسكندرية أرضًا يبسط فيها أجنحته البيضاء الرقيقة، ومن شعبها أهلاً يهجع إليهم في حاجاته.

-أنت أكبر مُماطل في التاريخ، مُماطلتك الخبيثة فاقتني خُبثًا، ولأكون منصفًا أنت مُجسد بارع، وسيكون لك ضعف ما تربحه إن تركت العطارة وعملت في السينما والمسرح.

-لن أترك العطارة، ولن أعمل بالسينما، ولن أتنازل عن البيت ومكانه الحيوي، ولن تخرج الشحنة قبل تنفيذ رغبتي.

-الغارات تأكل الإسكندرية، وتتجشأ دمًا، وأنت تفكر في زيادة عدد دكاكينك؟

-أخبرتك أن الحرب لن تستمر، التاريخ البشري مليء بالصراعات التي تحتدم لفترات، ثم تختفي تدريجيًا، وتتجدد كالهواء، أو تموت، ويعم السلام.

-كلامك جائز، ولكن طرد أسرة الصياد غير جائز.

-لا أحد يقدر على طرد شخص من الحارة وأنت حي وتحميها يا معلم حميدو، سينتقلون إلى بيت في آخر الحارة، يمتلكه رجل شهم، له رأس شيطانية.

كان حميدو عنيد وسطوته جائرة، ورغم أن قلبه يتأزم من تهديد «أدين» الشبيه بقرح الفراش التي تُمزق صاحبها من الألم، لكنه أظهر الثبات على وجهه كشمس الظهر، وأخفى ما يُبطنه من ضجر وغضب ونيران، واستخف بالتاجر:

-عينك الخضراء وبشرتك البيضاء، لا يتناسبان مع تهديدك بمنع خروج الشحنة، صدقني الأمر أشبه بفأر يسُب السماء حينما تنهمر عليه أمطارها وتفرقه.

-تجارتي تُحلق مع الكواكب، وأموالي مثل شجر الغابة، وعلاقاتي مثل رمل الصحراء، وأنت ورجالك لن تصمدوا، واعلم إنك لو خرجت من جحرك، ستقتل، لأن الجميع يترجى السماء أن تقتلعك من الأرض.

احمرت عين حميدو من الغضب، ووثب على التاجر وأمسكه من تلابيبه وصاح:

-الله كبير.

تسارعت دقات قلب «أدين» وكانت عيناه فغرتين ويتنفس بصوت عالٍ من الخوف، وتفصد الكثير من العرق، وانتظر رأس حميدو، ليموت، لكن الثاني عاجله:

-لا تخف هكذا مثل الفتيات في ليلة الدخلة، لن ألوث شقتي بدمك النجس، ودكاكينك، وأمك الشقراء التي تقف على حافة الموت، سيكونون ملكي قريبًا، الدكاكين ستباع في مزاد ضخم، وأمك ستخدمني.

تركه حميدو ليتجرع كوبًا من الكونياك، فذهب «أدين» مسرعًا إلى الباب

وقال له قبل أن يخرج:

-أمي لم تعد موجودة بالإسكندرية يا حميدو، وانتظر نيران أفعالك الشيطانية.

حاول الابتسام لكن الخوف وقف حائلاً يمنعه، ونزل على أدراج البيت الحجرية، وشكر الله أنه ما زال على قيد الحياة. أما حميدو فلم يقدر على كظم غيظه، وضرب الحائط بيديه فسقط طلاؤه الأبيض، واستيقظت زوجته مفزوعة، فوجدت نفسها وحيدة في ظلام الغرفة، ونادت عليه:

-تعالى يا حميدو.

سمع كلماتها بأذنه الحساسة، وتنصل من جلبابه وملابسه الداخلية، ولم يشعر بالبرد بسبب سخونة بدنه، ودخل إلى الغرفة والنيران تتأجج أسفل معدته.

***

مع إشراقة الصباح وإنارة شمسه لسماء الإسكندرية استيقظ مرعي على صوت العصافير التي تُعشش في الشجرة القريبة من بيته، وشعر براحة نفسية تسري في عروقه وتجرف عنه رمال الشجن والقلق، وتجرع الأمل في كوب مصنوع من الذهب، وقرر أن يبدأ في عمله ليسد حاجته المادية وترك سريره الدافئ. غسل وجهه بالماء في الحمام، وارتدى سروالًا ثقيلًا وقميصًا أبيض واسعًا بأكمام طويلة، وسحب شبكة صيد من أسفل أريكة الصالة، وأخذ في حقيبة جلد قطع ثلج من ثلاجة المطبخ، ودلف لغرفة والدته وعبث في أدويتها، ودَوّن على ورقة بقلم رصاص أسماء الأدوية التي تحتاجها، وانصرف قبل أن تستيقظ. نشطت الحركة في الحارة بين رجال يوصلون أولادهم وبناتهم للمدارس، وباعة جائلين يرتدون جلابيب مهترئة ويجرون عرباتهم الخشبية، وعيونهم تنفرط من عقد الراحة، والوسن يطعنهم، وبين الدكاكين التي شرع أصحابها في فتح أبوابها ورص مُنتجاتهم على رصيف بالٍ سقط أغلبه، وما تبقى منه قارب على الزوال. وسار مرعي يمسك في يده الحقيبة، ويضع الشباك على كتفه لمنعها من

الاحتكاك بالأرض، وأنعشته نسمات الهواء وجعلته يشعر أن الحرب انتهت بغاراتها وقتلاها وجنودها وأسلحتها. وابتاع في طريقه من بائع متجول سميطة وبيضة، وضع عليهما الكمون والملح وأكلهما، وكان يتابع بعينيه المارة، وملابسهم المتنوعة بين الصوف والقطن، والملابس البالية والجديدة، والرجال الذين رغم ضيق حالهم إلا أنهم يصممون على ارتداء البذل الواسعة، والطرابيش الحمراء، واستعجب مرعي من أمر لم ينتبه له يومًا، أنه برغم أعداد الناس الكبيرة إلا أن الوجوه غير متشابهة، ربما هناك تشابه في الملامح، لكن من العسير أن تتشابه الوجوه، إلا في بعض الحالات النادرة. وظل مرعي يتابع وجوه الناس ويتفلسف بأفكار طفيفة، حتى وصل إلى الميناء الشرقي الذي كان خاليًا إلا من بعض الصيادين، ومكتظًا بالمراكب «الدنجل»، والمراكب المتوسطة، والسفن الكبيرة التي تحتاج لصيانة. اقترب من كابينة بداخلها موظف بعين واحدة، وأنف كبيرة، وحياه بابتسامة، وكور في يديه مبلغًا بسيطًا وناوله، فهز الموظف رأسه وأشار له بالدخول، دلف مرعي في الميناء على رصيف صخري ينتهي بالبحر، وكان يحد الرصيف من الجانبين سور صغير، وقف عليه الحمام وتبرز، ووجد مرعي بعدما أنهى الرصيف مركبته التي آخذها من والد رفاعة صديقه، رابضة في خشب الميناء بجنزير حديد مغلق بقفل كبير، وكانت المركبة مطلية باللونين الأحمر واللبني، ومكتوب عليها «المعلم رفاعة»، وفي منتصفها خشبة بالعرض للجلوس عليه أثناء التجديف، كان أسفلها صندوق داخل باطن المركب مغلق بقفل حديد صدئ، دس مرعي يده في جيب سرواله وأخرج مفتاحين، منهما واحد صغير فتح به قفل الصندوق وأفرغ فيه الثلج، وفتح بالثاني قفل الجنزير، وصعد على المركبة ودفع بقدمه خشب الميناء، وابتعد بمركبته، وجلس على الخشبة، وأمسك بالمجدافين فكان عليهما القليل من الرمال الداكنة، فأزالها، وجدف بقوة. عبر مرعي في البحر بين تجمع صيادين كانوا منبعًا صريحًا للحزن، وتفرع بعضهم في أكثر من ناحية مغتمين، ولا يلقون بشباكهم إلى المياه، كأن السمك صعد على اليابسة، ليعيش بلا مطاردات من الصيادين، أو أنهم ماتوا بسم أسود وهبطوا إلى القاع المظلم. وأثار

غمهم الجدل في صدر مرعي، وقاوم رغبة جامحة في الحديث معهم لئلا يلتصق حزنهم بخاطره المسموم بالهَم، وكان بينهم رجل عجوز وسقيم، والسعال يلازمه كصديق خبيث، نظر إلى مرعي وابتسم رغم تعبه، تجاهله المراهق وظل يجدف وابتعد عن ذلك التجمع، وانفرد بذاته وبالبحر والسماء في بقعة خالية من الصيادين، وكان بعيدًا عن الشاطئ لكنه يراه، واضمحلت نسمات الهواء، واقترب الوقت من الظهر، فقلت الرياح قليلاً، وارتفعت الحرارة والرطوبة، وأوقف مرعي التجديف، واختفى صوت ارتطام المجدافين بالماء، وكانت الأمواج هادئة والسماء بها سحب قليلة، ثبت مرعي طرف الشبكة على كتفه الأيسر، وربط حبلها على ساعده الأيمن، ولف بزاوية للخلف ثم ألقى بها، وانتظر الفرج. كان المد في البحر متوسطًا ويجذب حبل الشبكة من يد الصياد ببطء، لحظات بسيطة وسحب مرعي الحبل وعادت له الشبكة تحمل أربع سمكات مياس، وكابوريا صغيرة فضية اللون، وأطرافها تزدان باللون اللبني، فك مرعي طيات الشبكة ووضع الكابوريا، والسمك في الصندوق الخشبي، ووزع فوقهم الثلج وأغلق الصندوق، وهندم شبكته وألقاها بنفس المنوال، وسحبها فعادت فارغة، وتكرر معه الأمر مرتين، فجلس وجدف وكان الهواء يحمل اليود ويدخل إلى أنفه فيصيبه بالنشوة، واصطدم أثناء تجديفه بشيء قوي، فترك المجدافين واقترب من حافة المركب الأمامية، وعثر على ظهر سلحفاء ضخمة، واستنشق رائحة قذرة تنبع منها، ومسح بيده على ظهرها فكان صلبًا مثل الصخور، مد ساعديه وقلبها على ظهرها ورأى جسدها أخضر ومتعفنًا ينهشه الدود، كاد يفرغ ما في معدته، وعاد للمجدافين وابتعد عنها، ووقف لثوانٍ حاول خلالها استبدال الرائحة القذرة بيود البحر، ومنظر تعفن السلحفاء، بمنظر السحب القليلة التي تشبه تجمعًا لأطفال صغار يبتسمون، ويغلقون أعينهم. وحينما شعر أن معدته هدأت، وصدره خلا من الرائحة القذرة، سحب من سرواله باقي السميطة التي أكلها صباحًا، وفتتها ثم نثرها في المياه، ورما شبكته وتمهل، وثقلت الشبكة فسحبها، وكانت تحمل خمسة أسماك مياس، وسمكة بربوني، وأعشابًا من قاع البحر، وضعهم في الصندوق ولم تكن

الكابوريا موجودة، فالتفت وشاهدها تجري لتقفز في البحر، أمسكها وأعادها للصندوق، واكتشف أن به ثقب كبير، سده بقطعة خشب، وانكفأ عقله إلى الوراء وغاص في شهور مَرت، علمه فيها والده كيف يتعامل مع المشكلات التي تواجهه في البحر، والسبيل الحق لتعلم حرفة الصيد، ومخابئها الكامنة في صدور الصيادين القدامى، ووقف بجانبه فوق المركبة في أحد الأيام ووضع على كتفه طرف الشبكة وقال:

-الشبكة نجاتك الوحيدة من الفقر، والضعف، والحاجة لنفوس الناس المتدثرة بالقسوة، لذا ضع طرفها على كتفك الأيسر ليشعر بها قلبك، فلا يهملها.

ثم لف حبلها على يديه وقال:

-إن ضاعت شبكتك في البحر لن تعود، وسوف تحزن لأن قلبك ارتبط بها، وسيكلفك سعر الشبكة الجديدة، ولن تكون مُرتاحًا لها، لذا أحرص على لف حبلها حول ساعدك بدقة، فلا ينفلت منك مهما زمهرت الرياح، واشتد المَد.

كان يبتسم من توصياته وقلبه يبث حبه له على هيئة دوائر تتسع وتتسع وتكتنف والده والبحر، ولم يفقد شغفه وفخره به، وقال له:

-حينما أسير، وأتحدث، وآكل، وأشرب، ويدق قلبي، أشعر أنني نسخة منك، وفخور بما تفعله لي ولأمي، ودومًا أخشى من فقدك وتحمل المسئولية، المسئولية التي اعتلتك وأجهدت ظهرك، وأضعفتك يا أبي.

وضع يده على رأسه، ومنعه من التجول في مثل نوعية هذه الأحاديث:

-أجهدت ظهري، وأضعفت جسدي، لكنها زادت من قوة قلبي يا مرعي، وأخرجت طاقة الحب التي كانت مطموسة في جانبي المُظلم، ولم أتخيل قبل زواجي من والدتك أن هذه الطاقة بداخلي من الأساس. لا تُجهد خاطرك بتعبي، فلنعد للأهم، بعدما تضع طرف الشبكة على كتفك الأيسر، وتربط حبلها على ساعدك بدقة، و تلف جسدك بزاوية صغيرة للوراء، ثُلقي بالشبكة بقوة وتقف معتدلاً، وتعد في بالك عشرين ثانية بالضبط، وتسحب

الحبل.

-اتفقنا، لكن لدي سؤال كيف أتصرف حينما ألقي الشبكة أكثر من مرة وتعود فارغة؟

-هناك عدة طرق، منها أن تجدف وتغير مكانك، أو تلقي بعضًا من فُتات سميط أو خبز الخميرة لأن السمك يحبه، وإن كنت تصطاد ليلاً لابد وأن تُشعل أربعة «كلوبات» على الأقل، وتوزعهم على حواف المركبة، وتلقي ببعض الحصى الصغيرة في المياه، وتنتظر لبضع دقائق قليلة، ثم تلقي شبكتك، وتذكر أن يظل فمك صامتًا، لأن سمك البحر إحساسه قوي، وتستطيع أذنه التفرقة بين صوت الصيادين، وصوت الأجساد الأخرى التي تغوص في المياه أو تطفو على السطح.

أمسك مرعي بوالده، وسأله، ووجهه الصبوح يزداد حبًا:

-وماذا عن استخدامك للملاعق النحاسية في الصيد؟

أشعل سيجارة «ماتوسيان»، وشاور بأصابعه على البحر:

-السمك الذي يعيش في طيات هذا البحر ذكي، لكن رؤيته تكون ضبابية ليلاً بسبب قلة مصادر الإنارة في المياه، لذا إن جئت بملعقة وربطت فيها خيطًا سميكًا وقصيرًا، وربطت هذا الخيط في حافة المركب، وألقيتها في المياه، ثم جدفت، تجذب الأسماك الكبيرة التي تبحث عن أسماك صغيرة، لتلتهمها، وتستطيع وقتها إلقاء شبكتك، أو الصيد بالسنار.

-وماذا عن الصندوق الذي تضع فيه الثلج والسمك؟

-هذا الصندوق مثل قلبك، تحفظ فيه الأسماك بالثلج كي لا تتعفن أو تضيع منك وتدخل بين شقوق المركب الداخلية، وتذكر أن رائحة تعفن السمك لا تقل قذارة عن رائحة تعفن البني آدم.

-وما علاقة قلبي بالصندوق؟

-أنت تضع أنقى ما لديك من مودة تجاه الناس في قلبك لتحفظها، وهذا

الصندوق يحفظ الأسماك مصدر رزقك أنت وأسرتك، لذا فالمعادلة محسوبة، وإن حكمت الأمور بسوء ولزم الاختيار بين قلبك والصندوق فلتختر الصندوق، لأنه يُعزز أغلى ما عندك بالمال والكرامة، فلا يمدون يديهم يومًا لأحد، ولا تنسى أن المودة تجاه الناس لا تُطعم الأفواه المفتوحة، ولا تُعالج الأجسام السقيمة.

لم يفهم مرعي وقتها ما قاله والده، ربما لأنه كان في الرابعة عشرة من عمره وخبرته في الحياة شحيحة، وربما لأنه كان يتأمل وجه والده المُستدير وبشرته القمحاوية، وعينيه السوداوين، بحب سخي غير مشوب بالضغينة والمقت، وأطرق قلبه إليه بلا تكلف أو خداع، وظل يومها حودة تومكس يُدرس لمرعي فنون الصيد التي تعلمها على يد الصيادين القدامى في صغره، ولم يتوقف إلا بعدما جعل مرعي يجرب إلقاء الشبكة لعشر مرات مُتتالية، كانت تعود الواحدة فيهم على أقل تقدير بسمكتين، مما أصابه بالفرح الشديد، والتعلق بالبحر والصيد، ووالده.

***

اشتدت الحرارة أكثر، وأحس مرعي أن الرطوبة تقيده بسلسلة من نار، وانتصفت الشمس فوقه، فوضع شبكته على المركبة، ونحّى ذكرياته مع والده، وانكفأ على حافة المركب، واغترف من ماء البحر وغسل رأسه ووجهه، وخلع قميصه فبان جسده العلوي، وكان ظهره خاليًا من الشعر، ولديه معدة صغيرة، ويتناثر شعر خفيف على صدره، ورما بالشبكة وجاهد الحر، والنيران التي تتأجج في جوانحه وأسفل معدته، وكانت مركبته تتموج بوقار، وقلبه يرتفع ويهبط مع حركتها، وعينه مشوشة وتحجب الرؤية الحقيقية، وماعت قدمه فثابر كي لا يسقط، ورأى رجلًا يقف فوق سطح البحر، وعمره يقترب من الأربعين، ويحمل ملامح والده، ويمسك بيد طفل صغير، يحمل ملامحه، وانفتح البحر أسفل قدم الرجل، فغاص في الماء ولم يقدر على العوم، ودفع ابنه بعيدًا عنه وصاح فيه:

-اهرب.

ثم غمرته المياه، وغاص مرعي بين بحري الواقع والخيال، وفك حبل الشبكة من ساعده، وكاد يلقي بنفسه في المياه لينقذ الرجل لكنه انتبه، وانتزعه صوت قائلاً:

-أنت بخير؟

كان صاحب الصوت الرجل العجوز السقيم الذي مر عليه في الصباح، فرد بصوت خفيض:

-بخير.

جلس بعدها وانتبه إلى أن حبل شبكته يتسرب للماء، فأمسكه وسحب الشبكة إلى المركبة، ثم جدف ليبتعد عن العجوز... مال الوقت إلى الغروب وكان مرعي مشوش الرؤية، ومضطربًا، ويصطاد ويضع الأسماك في الصندوق الخشبي، ويسترجع تعليمات أبيه، ويبحث عنه في فضاء البحر الشاسع، ليحتضنه، ولون غروب الشمس السماء بالشفق الأحمر، وشعر بأن وحدته تشتد، ورغبته في عودة والده للحياة تتضخم، وخاف من الظلمة التي حوله، فتتبع ضوء الميناء وعاد إليها، ونفسه تضيق وتضيق، وعيناه تلمعان من الدموع الحبيسة في سجن حدقتيه... اقترب من خشب الميناء الباهت، وربط فيه المركب بالجنزير القصير وأغلقه بالقفل، ووضع في الحقيبة الأسماك التي وصل عددها إلى خمسين سمكة، وكابوريا واحدة، وصعد بقدميه المرتعشتين من المركب إلى الميناء، واستراح ليلتقط أنفاسه على مقعد مربع من الرخام، ثم قام وقبل أن يخرج من الميناء، ناول موظف في كابينة الخروج أربع سمكات، كي لا يطلب منه رخصة الصيد، ودلف إلى الشارع فوجد حوزيًا يجلس على حنطوره، ويرتدي جلبابًا ثقيلًا، وطربوشًا أحمر، وينادي عليه ليركب معه، فاتجه إليه مرغمًا من التعب، وصعد على ثلاثة درجات، ورمى نفسه على مقعد الحنطور الوثير، وضرب الحوزي الحصان بخيزرانة فتحرك، وقال مرعي:

-حلقة السمك الصغيرة.

تبسم الحوزي وبانت أسنانه صفراء وضعيفة، وكانت بشرته خمرية،

وقصيرًا ونحيفًا، وقال بصوت أنثوي:

-تؤمرني يا بيه.

ارتدى مرعي في الحنطور قميصه، وانخفضت درجة الحرارة وزخر الجو بالرياح والبرد، وسيطر الظلام على أغلب الشوارع التي عبر فيها الحنطور حتى يصل إلى حلقة السمك الصغيرة بمنطقة السيالة، وكان الجنود الإنجليز منتشرين في الشوارع، خاصة القريبة من البحر بوجوه خائفة، ويمسكون أسلحتهم في وضع استنفار شديد كأن هتلر دخل الإسكندرية، ويتحدثون باللغة الإنجليزية بسرعة. ضحك الحوزي عليهم وقال للمراهق الذي غلبه الوسن:

-صحيح لا أفهم سياسة، لكن هتلر صفعهم على مؤخراتهم، إنت نمت يا أخينا؟

-وصلنا؟

-قربنا يا أخينا.

توقف الحوزي بعد خمس دقائق، وأيقظ مرعي:

-وصلنا يا أخينا، أترغب أن أوصلك إلى لوكاندة رخيصة بها فتيات أجانب يحيون الموتى، ويكسون الحزن بالفرح؟ فوجهك متعب، وعيناك تقول أنك جائع.

كانت ابتسامة الحوزي خبيثة، وتحمل معاني متناقضة لكلماته، فأعطاه مرعي «قرشين صاغ»، وودعه:

- مرة ثانية.

-إنت الخسران، بالإنجليزية يعني loser، ها ها ها ها.

سار مرعي بعيدًا عنه وضحكاته ترن في أذنه، وكلماته عن الفتيات أشعلت نيرانه، فهز رأسه كأنه يطرد ما فيها، واتجه ناحية حلقة السمك بسرعة كي يلحق بها قبل أن تغلق أبوابها... كانت الحلقة واسعة ومليئة

بالصيادين الذين يرتدون السراويل السوداء الواسعة، وقبعات الصيد المستديرة التي تحميهم من ضوء الشمس، ومنهمكين ويغالبون الوسن، وضجت رائحة الزفار بأنف مرعي، فنظر ناحية السماكين الذين كانوا يجمعون الأسماك من الطاولات الخشبية، ويضعونها فوق عربات خشبية عليها ثلج لتخزينها في ثلاجات كبيرة، وكانت هناك أنواع كثيرة من الأسماك مثل الجمبري، والكابوريا، والترسة، وأسماك القرش الصغيرة، وفي ناحية اليسار كانت هناك دكاكين كثيرة من الخشب، ومصفوفة بجانب بعضها، ويجلس بداخلها المعلمون، ويدخنون السجائر والشيشة ويعدون الأموال التي حصلوا عليها خلال اليوم، وتعتليهم «كلوبات» معلقة في مشاجب نحاسية داخل الدكاكين، وضوؤها كان شحيحًا لأنها مطلية باللون الأزرق، وفي نهاية الحلقة التف خمسة صيادين حول سمكة قرش ضخمة، وتصايحوا احتفالاً بصيدها، وكان ظهرها رماديًا وباطنها أبيض، وأسنانها كثيرة ومثلثة، وكان الحفناوي يقف خلفهم وعلامات حريق كوب الشاي تميزه عنهم، وقال بصوت جهوري:

-هذا القرش سيكون من نصيب أهالي حارة اليهود الفقراء، بعد قتل حميدو.

ارتجف مرعي وزادت ضربات قلبه، وأخفى نفسه داخل دكان صغير كي لا يراه الحفناوي ويقتله، ونظر في الدكان بعينين خائفتين، فحدثه معلم يرتدي جلبابًا واسعًا، ورأسه مليئة بالشعر الأبيض:

-مَن أنت أيها المُراهق؟

-السلام عليكم يا معلم، معي سمك يبحث عن مشترٍ جدع مثلك.

-أرني الأنواع لأحدد لك ثمنها أيها المؤدب.

أعطاه مرعي الحقيبة وفتحها، وأفرغها المعلم في طاولة خشبية كان بها ثلج كثير، وقال:

-صيدة لا بأس بها، سعر الوئة ثلاثين قرشًا، وهذا ثمن لن تجده إلا عندي.

دار مرعي بعينيه في الحلقة ولمح لافتات عديدة مكتوب عليها سعر الوئة ثلاثون قرشًا، فضحك دون أن يلفت نظر المعلم أثناء عبثه بالسمك، وإحصائه لعدده، وقال:

-سمعتك سباقة يا معلم.

بعدما انتهى المعلم من عد الأسماك، والتأكد من جودتها، مسح يديه بقماشة بالية، وفتح درج مكتبه، وأعطى مرعي جنيهين وسبعين قرشًا، دسهم مرعي في جيبه، وودع المعلم ساخرًا:

-سلام يا معلم، يا صاحب الأسعار الخاصة.

***

اغتسلت سماح في حمام بيتها دون أن تمس المياه شعرها، وارتدت ثوبًا ثقيلًا وأفعمتها رائحة ورد طيبة، وكان جسدها يرتجف بفعل هواء قوي يتسرب من شباك الصالة ويحيط بها، فأغلقت الشباك، وأسدلت عليه ستارة بيضاء مزخرفة بقلوب صغيرة، وهندمت شعرها، وأراحت جسدها على أريكة الصالة، وكانت الحارة صامتة إلا من عواء بعض الكلاب، وصوت أقدام المارة. تمزعت نفسها بالوحدة، والصمت، والقلق على مرعي لأنه تأخر والساعة اقتربت من التاسعة مساءً، واعتراها الرعب عندما استمعت إلى صوت صافرة إنذار الغارات، فوثبت باتجاه الباب وفتحته لتهرب، واصطدمت بعم دسوقي جارها يرتدي جلبابًا أبيض، وظهره مقوس، ويحمل حفيده فوق منكبيه ويسحب بيده اليسرى عجلة صغيرة، فسألته:

-عم دسوقي كيف حالك؟ ما هذا الصوت؟

-لا تخافي، خبراء الحماية المدنية يجربون إنذار الغارات لأنه تعطل بالأمس، أغلقي بابك، وإن وقعت غارة سأكون أول من يطرقه ليأخذك معه. سلم عليها يا فرغلي لا تكن قليل الذوق.

داعبها فرغلي ذو الخمسة الأعوام بعينين صافيتين، ووجه صبوح،

وخرجت منه كلمات متقطعة غير واضحة، تبسمت سماح رغمًا عنها، وشكرت عم دسوقي، وأغلقت الباب وعادت لأريكتها. كانت أنفاسها تتقطع وتشعر بالغثيان، وطاقتها ماعت بوحل المرض الذي تلبث فيها، وأبى الخنوع للأدوية والمسكنات، ثم غالبها وظل يبرد لحمها، وتفاقم فخسرت أكثر من نصف وزنها، وما عادت تعاني من ثقل جسدها أثناء الوقوف والسير، واستمر المرض في رحلته الحمقاء حتى وصل إلى أوصالها، وتلاحم معها ليبردها مثل اللحم، وعاونه على هذه الرحلة أن الأدوية لم تعد متوفرة لقلة المال، وانكسار عمود البيت الرزين، زوجها، الذي وعدها يوم زفافهما أنه سيكون حجر الزاوية الأساسي في البيت، فلا يتواكل عليها، ويحفظها جوهرة مصونة داخل جدران قلبه. غلبتها وحدتها، وتفرعت في بحار الهيمان لزوجها وابنها، واشتدت عليها أعراض المرض الغامض الذي أصابها، وفشل الأطباء في تشخيص حالتها واكتفوا بوصف المسكنات وبعض الأدوية لتقليل حدته فقط، بدلاً من استئصال جذوره الكامنة، فحزنت، والتصق حزنها بجوانح «حودة» ومرعي، وقرع الثلاثة أبوابًا كثيرة لأطباء، ودجالين، وأصحاب كرامات ومعجزات، وظل قرعهم بهيقًا بلا نور أو فائدة، وبعد سلسلة طويلة من تجربة وصفات الأطباء والدجالين وأهالي حارتها، تأنست سماح لفكرة الالتزام بمداومة العلاج، وأن تلبث في بيتها ولا تغادره إلا لاستنشاق نسمات الهواء، ورائحة يود البحر المُحببة، فحاول «تومكس» معها ليبعدها عن طريق اليأس، ويرغمها على استكمال البحث عن علاج فعلي يشفيها من المرض، فرفضت بحزم، وسلمت أمرها لله، ومن وقتها وهي تتحمل هيمنة أعراض المرض، مثل القيء في بعض الأوقات، وضعف الشهية ناحية الطعام، وقلة الاتزان، وجفاف الحلق، وانبعاث روائح كريهة من الفم، وارتفاع ضغط الدم.
واغتاظ زوجها مرات عديدة وكاد يهشم رأسه في الحائط ذات مرة لخوفه من فقدها، ودرى فيما بعد أنه لا بديل آخر سوى التفويض إلى الله، خاصة وأن طبيبًا إنجليزيًا صديقه أخبره بأن هذه الأعراض ليست معروفة، والمرض غامض، وتحتاج زوجته معجزة للشفاء. وعملت سماح بالمثل الشعبي القديم، «تعب ليلة ولا كل ليلة» الذي ورثته من والدتها البسيطة،

التي تحملت ألم تسوس ضروسها لشهور خوفًا من خلعهم، لكنها استسلمت في النهاية إلى أدوات حلاق القرية، وخلع ضروسها بصعوبة، وامتلأ فمها بالدماء، وبعد أيام من تعافيها أوصت ابنتها بهذا المثل، ثم ماتت صلبة وقوية على سريرها، وعملت سماح بهذه الوصية في حياتها تأثرًا بوالدتها، وبعدما أرهقها المرض وتغلغل في خلاياها قررت استبداله بـ«تعب كل ليلة وحدي أهون من تعب عائلتي معي»، وأخفت ما تمر به من متاعب عن ابنها وزوجها بقدر المستطاع، ورفضت الشكوى المتكررة من أعراض المرض، إلا في حالات قليلة... زادت ذكرياتها، وقلقها على مرعي، فقامت ورفعت غطاء الأريكة بيدين ضعيفتين، وأزالت المراتب، والخشب، وأخرجت «جرامافون» صغير خشبه بني غامق، وبوقه نحاسي وطويل وينتهي بدائرة تشبه الوردة، وضعته على طاولة خشبية، وعادت للأريكة وغاصت بجسدها بحثًا، حتى وجدت ثلاث أسطوانات دائرية يمتازون باللون الأسود، في علبة خشب مربعة قاعها مغطى بالقطن، قلبت سماح في الثلاث الأسطوانات، وكانوا بنفس الحجم، ولكل واحدة لون مختلف في المنتصف، ومدون اسم الشركة، والمطرب، والأغنية، لم تستطع قراءة هذه البيانات لأن القرية التي ترعرعت فيها منعت تعليم الفتيات، بل إن بعض سكان القرية كانوا يضربون زوجاتهم حينما يعلمون أنهم أرسلوا بناتهم إلى الكُتاب دون إذنهم، ووصلت حدة الأمر إلى أنه في إحدى ليالي الشتاء عاد رجل من أرضه الزراعية، ودخل بيته منهمكًا مِن حَرث الأرض طوال النهار، فوجد ابنته تجلس على الأريكة، وبجانبها ابن شيخ القرية يعلمها القراءة والكتابة، والحساب، فلم يتمالك شياطينه وساقه الجهل، فضرب ابن الشيخ بفأس الزراعة على ظهره ومات، وضرب زوجته وابنته، وتدخلت والدته لتوقفه فضربها على رأسها وماتت، واقتحم رجال القرية بيته وأنقذوا زوجته، وماتت ابنته من كثرة الضرب، ومنذ وقتها زاد خوف النساء، والفتيات، وكرهوا التعليم، وجهلوا بأهميته... أغلقت سماح عينيها، وهزت رأسها كأنها ترمي الذكريات الدخيلة فوق كليم الصالة الشتوي المهترئ، وفتحت عينيها لتعود من صمت الفضاء البليغ، واختارت أسطوانة من الثلاثة، كان منتصفها مغطى بالأزرق، وتذكرت أن زوجها

شغل هذه الأسطوانة الشهر الماضي أكثر من مرة، وغنت فيها أم كلثوم، وكان مكتوب على هذه الأسطوانة باللون الأبيض Cairo phon"" بخط ثقيل وعريض، وأسفله «حرمت أقول بتحبني»، لـ«كوكب الشرق الآنسة أم كلثوم». مسحت سماح «الجرامافون» من الأتربة الكثيفة، ووضعت الأسطوانة، ولفت يد تشغيله للأمام، ثم أرست فوق الأسطوانة بهدوء، السُن، فأصدر البوق صوتًا متقطعًا ظهر بعده صوت رفيع قال: «حرمت أقول بتحبني لكوكب الشرق الآنسة أم كلثوم، كلمات أحمد رامي، وألحان محمد القصبجي»، ثم اختفى الصوت وغنت بعده أم كلثوم بصوت عذب، جعل روح سماح تُحلق وتصل لسماء الإسكندرية العالية، والتي استطاعت الغارات محو بهجتها، وزهوها المُتعالي الأنيق، ورائحتها العبقة التي يتمتع بها الناس والطيور. وتمخض عقل سماح بالمرة الأولى التي رأت فيها «الجرامافون»، منذ خمس سنوات حينما جلبه الصياد، وقال إنه حصل عليه لأنه أنقذ ضابطًا إنجليزيًا، سقط من فوق سفينة في البحر لأنه كان ثملًا، وتصادف مروره في الميناء الشرقي لتلبية احتياجات بعض الضباط الإنجليز، وحينما وجد الضابط يصرخ قفز في الماء وأنقذه، وأصر الضابط على مكافأته بذلك «الجرامافون». واستعجبت سماح من هذه القصة، ولم تكن تعرف ماهية هذا الشيء، وحينما وضع فيه زوجها أسطوانة تغني فيها «أسمهان»، ضحكت سماح بصوت عالٍ كأنها طفلة صغيرة، وسألته:

-كيف يخرج هذا الصوت منه؟ أظنه جهاز شيطاني.

وزادت ضحكاتها، فقال لها وهو يقترب منها مستغلًا غياب مرعي عند أصدقائه:

-هذا يسمى «جرامافون» يغني أغاني المطربين، ويبعث ببهجة سماء الإسكندرية داخل البيت، ويحمس حبي لكِ يا سماح.

اقترب منها وراح يقبلها من شعرها وخديها ورقبتها، واصطدم بالباب يُفتح ويخرج منه مرعي، فتراجع سريعًا، وتصنع بانشغاله بـ«الجرامافون»، وفشل مرعي وسماح في إدراك كيف يعمل؟ إلا بعد فترة طويلة، رغم ما

شرحه لهما.

***

تعالت نبرات كوكب الشرق من بوق «الجرامافون»، وهندمت سماح الأريكة وسحبت السبرتاية والسكر والقهوة من الطاولة الخشبية ووضعتهم فوق الأريكة، وأعدت كوب قهوة صغير بنصف ملعقة سكر، وشعرت بالغبطة، وأن شبلها ذات الأبواب الموصدة انفرجت، وجسدها الفقيد في جُب المرض تحرر من أصفاده الحارقة، وروحها الزاهدة في متاعب الجسد اختلت بالقلب، وسكنت فيه، فلم تعد تتألم، وعشش وجدانها في شاطئ السكينة، وأحست من الموسيقى والكلمات والصوت أن العيد جاء ببهجته، وحمل في طياته البيضاء زوجها، وحماها، ووالدتها، وأباها، من قبورهم العتيقة، إلى الغرفة الداخلية التي ينام فيها مرعي، فسارت بأقدام ترتجف، وعقل يتلاعب في منطقة نصفها خيال، ونصفها حقيقة، وقلب بات يشتاق لمن تركوه، وفتحت باب غرفة مرعي، فوجدتها خالية، وعادت وجلست على الأريكة وبكت دون صوت، انتهت الأغنية وظهر صوت «الجرامافون» المتقطع، ثم صمت، وانسدل على البيت ستار القنوط من جديد.

***

زمهرت الرياح في حارة اليهود وكان الهواء مليئًا بالأتربة التي تصاعدت، ثم سقطت ثقيلة على القهوة التي يُريح فيها حميدو عقله من أوجاعه، وأثارت الأتربة أنوف المارين في الحارة، وكان حميدو ينظف أنفه بمنديل قماش، وعقله مكتظًا بالأفكار والمشاكل، ومعه أربعة من رجاله يدخنون الشيشة في صمت، واستأذن صبي القهوة، حسنين من حميدو لكي يُغلق باب القهوة الخشبي، فحرك شفتيه للوراء، ودرى حسنين أنه لا يهتم، وأغلق الباب، وعاد لغسل الأكواب بالصابون، وإعداد الفحم لحميدو ورجاله، وأفاض حميدو لشياطينه دون استفسارهم عن ما يُخفيه:

-الشحنة محبوسة في الميناء، والأهوج «آدين» في حارتنا حرّ طليق،

والمأمور يراقب من بعيد مثل الشيطان، وسعيد بما يقع لي، لأن اليهودي ثمّن نزاهته العاهرة.

-ولما لا نقطع رأس اليهودي والمامور؟

-أسكت يا إسماعيل لأنك مندفع، ولا حاجة لك إلا في المشاجرات العنيفة.

فَر إسماعيل بنظراته إلى بلاط القهوة الذي امتلأ بالأتربة، وكان قصير القامة ونحيفًا ويزيل شعر رأسه وذقنه بالموس، والشجاعة تنفرط من عينيه السوداوين الصغيرتين، واسترسل حميدو:

-قتل التاجر جائز، أما المأمور فنصف عائلته تعمل في البوليس منذ زمن، وإن قتلناه، سيأتي لنا ألف مأمور من أسرته وينتقمون، وفي الحروب يَفجُر الناس، ويكون القتل والانتقام أسهل من ليلة حمراء مع عاهرة، ولن يحاسبهم رقيب على أي شيء يفعلونه معنا، وسيتفرق شملنا، ويغلق البوليس محلات الأسماك التابعة لعائلتي، أريد تصوزًا لما يمكن فعله بلا أضرار.

حط صمت عريض على الجميع بعد كلامه، ولم يكن هناك سوى صوت كركرة الشيشة، حتى تحدث «شندويلي» أصغرهم سنًا وفي مثل طول حميدو، ولديه كتف عريض، وتجمع صلة قرابة بحميدو من أسرة زوجته سكينة:

-نشتري المأمور يا معلم حميدو.

- خاوي بلا سعر، يَربضه مَن يدفع أكثر.

-ولمَ لا تعطي الخواجة البيت، وتخرج الشّحنة، ويعود الود بينك وبين المأمور؟

-سياسة لوي الذراع التي يستخدمها الإنجليز مع مصر، والألمان مع العالم، لن تترعرع فوق ظهري أبذا، وطلبات التاجر لن تنتهي عند هذا

الحد، فهذه مجرد بداية، وإن وافقت على مطلبه، قد يضع فتوة مكاني بنفس الطريقة.

كانت عيونه حمراء من الغضب، وزادت احمرارًا حينما قال: «فتوة مكاني»، وتدخل حسنين بصوت عال:

-والله لو حصل لنعمل ثورة، ثورة من رجال الحارة، ورجالك، والشحاذين الذين تطعمهم، والفتيات اللواتي أنقذتهم من خشونة الشوارع، وعززتهم في البيوت فوق أفخاذ من يدفع أكثر، بدلاً من الجلوس على الأرصفة.

ضحك رجال حميدو عدا «شندويلي»، وقال حميدو لحسنين وهو يخرج الدخان من أنفه:

-أين كوب القهوة يا ابن الأبالسة؟

-حالاً يا معلم الدنيا.

-والله إنك أفاق، وما يمنعني عن قطع رأسك أن هذه القهوة ملكًا لعمي وهو يحبك.

زاد الضحك لفترة بين الرجال، ثم عاد الجميع للصمت، وفرغ حميدو والأربعة رجال من كركرة الشيشة المكدسة بقطع الحشيش الصغيرة، وتجرع حميدو كوب القهوة وقام يترنح، وفتح باب القهوة ليستنشق أنفاسًا خالية من شوائب الفحم والحشيش، وصفعته نسمات الهواء الباردة على وجهه، وكان يتابع بعينيه كلابًا تتشاجر على أنثى، وتقلقل قلبه من الغضب، وزادت بشرته السمراء سمارًا، وشاربه الطويل طولاً، وقل وزنه عن الأيام الماضية. وخرج من القهوة ورفع قدمه ومر من فوق الرصيف، واستمع إلى صوت أقدام تهرول من الخلف، التف وأخرج خنجرًا من جلبابه الواسع، ورأى على ضوء مصابيح الكيروسين الضعيفة رجلًا من حاشيته، يلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة وسقط على الأرض من التعب، وقال:

-الحفناوي جمع رجالته وقادم لقتالك.

-أخبر الرجال واجمعهم، واجبرهم على حمل المسدسات «اللوجر»، مع النبابيت، تحرك بسرعة لا تكن مُتكاسلًا.

استند على الرصيف وجرى لينفذ ما سمعه، ودخل حميدو إلى القهوة وصاح في رجاله:

-اقتلوا كل رجاله، واجلبوا لي الحفناوي سليمًا، لأنني سأروي بدمائه الدنسة أرض الإسكندرية.

هشم بقدمه كرسيًا خشبيًا، وأردف:

-وإنت يا شندويلي قول للرجالة خطة الحماية، تحرك.

اختفى الرجال في وقت قليل، وأنذر حميدو، حسنين:

-أغلق القهوة عليك فورًا، ومهما حدث لا تفتح أبوابها.

نفذ حسنين أوامره، ووقف حميدو في منتصف الحارة مثل حوت البحر الضخم، وشاهد مرعي يسير على قدميه ويدخل من باب البيت، فقال لرجله الذي يقف على بيت الصياد لحمايته:

-أغلق بوابة البيت بجنزير حديد، وهشم مصابيح الحارة المضاءة.

أخرج الرجل جنزيرًا وقفلًا من جلبابه، ولفه حول الباب ثم أغلقه، وانكفأ على الأرض، وطبق جلبابه ووضع الحصى والزلط فيه، ثم اتجه نحو المصابيح المضاءة، وقفز لفوق وضربها بالحصى والزلط، وكان صوت التكسير يهشم صمت الحارة وهدوء الليل. وذهب حميدو إلى بيته الثاني في آخر الحارة وأخذ مسدس «لوجر»، ونبوتًا أسود، وأغلق بوابة البيت بجنزير ضخم، وأغلق بوابة بيته الأول بجنزير ثان. ووقف في منتصف الحارة بمفرده لا يخشى سوى فقد الشحنة، ولا يرعبه شبح الموت المُحلق في سماء الحارة بجناحي الشر وينثر بيديه السوداء حبات حمراء مُشتعلة تُلهب الأجواء... مر وقت قليل تلاه قدوم رجال حميدو بجلابيبهم

الواسعة، وقسموا أنفسهم لفرق متفردة، فصعدت الفرقة الأولى فوق أسطح البيوت وهي تحمل صناديق خشبية بها زجاجات المشروبات الغازية، والحجارة، وتوزعت الفرقة الثانية على مدخل الحارة ونهايتها، وكانت النبابيت مصدر حمايتهم الأول، أما الفرقة الثالثة وقفت مع حميدو في منتصف الحارة، وكانوا يخفون أسفل جلابيبهم سيوفًا ومسدسات، ونظر حميدو بعينيه إلى أسطح البيوت مستعينًا بضوء القمر، وتأكد أن رجاله يتسربلون بالقوة فوقها، وتقدم حميدو شياطينه في الحارة، ووقفوا جميعهم خلفه، وكان صوت حركة أقدامهم على الدبش الأبيض مقلقًا لسكان الحارة، واستيقظ أغلبهم واندفعوا خلف الشبابيك ونظروا من فتحاتها، وتبينوا بصعوبة أن هناك رجالًا كثيرين يقفون في ظلام الحارة، وأدركوا إنه سيكون يوم أعسر لن تُنيره الشمس. اقترب الوقت من الفجر، فصاحت الديكة، وارتاعت قلوب قاطني الحارة داخل بيوتهم من أصوات الديكة، لأنها شقت صمت الحارة، وكان شياطين حميدو يتهامسون فيما بينهم، وصاح فجأة صوت غليظ من فوق أحد البيوت: «الحفناوي وصل».

استعد الجميع، واستعدت بعض النساء بالمياه الساخنة، وجلس الرجال خلف أبواب بيوتهم بالسكاكين استعدادًا لأي خطر قد يزج بهم ناحية الموت، مثلما حدث في حارة «الدفناوي» القريبة منهم، عندما تشاجر فتوة شارع اللبان مع فتوة الحارة وقتله، ثم صعد إلى البيوت وكسر شققها، وأهان سكان الحارة، انتقامًا لشقيقته التي تزوجها الفتوة، وقتلها بعد شهر لأنه كان ثملًا وغاضبًا... وجاء الحفناوي ومعه ابنه البكري، وخلفهم جمع غفير من الرجال، يفوق عدد رجال «الجن»، وأمر حميدو رجاله بفتح مدخل الحارة ليعبر منه الحفناوي فقط، وقال الحفناوي:

-أقسم بربي، وبعرضي، وشرفي، أنني لن أذهب اليوم إلا بعدما أقتلك أنت، وأسرة الصياد، وأمرغ بكرسي الفتونة التي لم تشغلني يومًا.

- سمعتها من رجالًا كثيرين، وانتهى بهم الحال في المقابر.

-لديك رقبة تُقطع، وروح تؤخذ، ودماء تُسفك، أنت لست إلهًا يا حميدو.

- لا أطيق رائحة الدماء، وأذني استمعت بما يكفي لأصوات تكسير العظام، اذهب ودع الماضي للماضي.

ضحك الحفناوي، وطقطق رأسه، وهدده:

-ما ستراه اليوم لن يمُر عليك، مِن قَبل ومِن بَعد.

-كما تشاء.

لكز حميدو الحفناوي في أنفه، فنزفت، ووثب عليه وناوله ضربات مُتتالية في معدته فسقط وبللت دماؤه الدبش الأبيض، وانقطعت أنفاسه، فصاح حميدو:

-الحفناوي قُتل، هل ابنه ورجاله يودون مواصلة العراك؟

صرخ ابن الحفناوي وكان يحمل ملامح والده:

-اقتلوا الجن وأتباعه.

رفعت النبابيت وتعارك أصحابها، وضرب حميدو بنبوته ومسدسه فأورد قتلى كثيرين، وتعالت أصوات النبابيت بشدة، فوضع الأطفال داخل البيوت القطن في أذنهم، ودبت الشجاعة في قلب ابن الحفناوي، فسحب ثلاثة رجال معه واقترب من حميدو، والتفوا حوله، وكانت عيون حميدو ثابتة، اقتربوا منه، فضرب حميدو واحدًا بمسدسه، والثاني بنبوته، وحاول ضرب الثالث برأسه، فتراجع للوراء، وجرح يد حميدو بسيفه، وكاد يسقطه، وحينما رأى «الجن» دماءه اغتاظ، وركض ناحية مَن جرحه وأمسك يديه ثم سدد له ضربة بالرأس، فمات، وركض ناحية ابن الحفناوي، فأطلق الثاني رصاصة على ساعده الأيمن، ووجه فوهة مسدسه على رأسه، فارتعشت عين حميدو للمرة الأولى منذ سنين مَديدة، لكن أنقذه «شندويلي»، وقطع رأس ابن الحفناوي مِن الخَلف بسيف طويل، وربط حميدو بعدها ساعده المصاب بالرصاصة، وعاد ليُكمل مَعركته، وتهاوت نفوس رجال الحفناوي بعد قتله، وقتل ابنه، ولم يجدوا سببًا يجعلهم يستمرون في العراك، فصاح كبيرهم: «كفاية». ولكن رجال

حميدو شددوا إغلاق مدخل الحارة بأجسادهم القوية، واختفى حميدو وجزء كبير من رجاله، كأن الليل فتح لهم مخرجًا سريًا، أو أخفاهم في طيات ستارته الخفية، وألقى الرجال من فوق أسطح البيوت الزجاجات الفارغة، والحجارة، على أتباع الحفناوي، فكانوا يسقطون تباعًا على الأرض، حتى مات وأصيب أغلبهم، وما تبقى كانوا يصرخون ويبكون كأنهم أطفال ودعاء، وفتحت النساء شبابيكهن وألقين بالمياه الساخنة على رجال الحفناوي، فأفرطوا في الصراخ من الألم، ومَن لم تمسه المياه، ولا النبابيت، صرخوا وطلبوا الرحمة وقبلوا أقدام رجال «الجن» ليعفوا عنهم، لكن القواعد كانت شمسًا لامعة، فلم يرحموهم. وجاء الفجر فأنار الظُلمة، وهدأت الرياح، وارتفعت الحرارة تدريجيًا، وكان دبش الحارة مليئًا بالدماء، والجُثث، وخرج حميدو من أحد البيوت، وأوصى أتباعه بإخفاء الجُثث في مناطق مُتفرقة، وغسل الدبش الأبيض بالماء لطمس الدماء، وإخفاء الأسلحة وآثار العراك، ثم صعد إلى بيت نادية ومعه «شندويلي». وحين دخلا الشقة نام حميدو على سريره، وسخن «شندويلي» سكينة رفيعة، وأنام حميدو على سريره، وأدخل السكينة في ذراعه ليخرج الرصاصة، وجز حميدو على أسنانه فكادت تتهشم، ثم سحب «شندويلي» الطلقة من ساعده بصعوبة، مثل بذرة ميتة تُسحب من أرض قاحلة، ووضع القليل من السبيرتو على قطنة، ومررها على مكان الطلقة، ثم لف الشاش والقطن على ساعده، وأوصاه بالراحة وعدم الحركة، وأغلق حميدو عينيه وسبح في بحر مالح، حزين ومتألم من قتل الحفناوي ورجاله، ومن الشحنة. وكانت نادية تتابع من بعيد بعين الذعر والخوف. واقترب «شندويلي» من أذن حميدو، وقال له شيء بصوت خفيض جعله يفتح عينيه في غضب جامح، وزعق:

-نفذ اللي هقوله.

***

انتقلت الأحداث بتفاصيلها الدقيقة بين الناس في الحارات المجاورة، وافتعل البعض قصصًا خُرافية عن قوة «الجن» ورجاله، وزادوا مِن هم

حميدو الذي رفض الخروج من منزله يومًا كاملاً، مخترقًا بذلك منواله الدائم في الخروج ليلاً، والجلوس على القهوة، وجاء عساكر إنجليز معهم ضابط شاب، وحققوا مع سكان الحارة، ولم يصلوا لدليل ملموس يقتضي بمعاقبة حميدو ورجاله، فعادوا مثلما جاؤوا في عرباتهم الكبيرة التي تثير الغُبار، وتتقيأ دخانًا كثيفًا يلوث الهواء. وفي اليوم التالي ظل حميدو حبيس غُرفته ويأكل بالضغط من نادية، وجاء له ضابط شاب مصري من القسم، وأخبره أن المأمور يريده في أمر ضروري، تأجيله لا يعني سوى تحدي القوانين الصارمة، فارتدى جلبابًا أبيض نظيفًا، وأرسل له «شندويلي» حنطوزا ركبه من أسفل بيته، وذهب إلى القسم... كان القسم مكونًا من طابقين، ومبنيًا على الطراز الأوروبي، وواسعًا، ويرتفع طابقه الثاني على أعمدة بيضاء طويلة، وله شرفة كبيرة، وكان للقسم خمس عشرة نافذة، ويحاوطه من الخارج سور حديد على شكل مربع، وله بوابة مصنوعة من الحديد، ويحرسها مجموعة من العساكر، ويمسكون بنادق طويلة لونها بُني، ويرتدون بذلًا سوداء أنيقة وطرابيش حمراء. ونزل حميدو من الحنطور بمعاونة الحوزي، ودلف من بوابة السور، وكتب إلى داخل القسم... في القسم كان الهواء مكتظًا برائحة عرق بعض العساكر، ومختصمين جاؤوا في قضايا مختلفة، وفي ناحية اليمين كان هناك باب يفضي إلى غرفة رحبة بها بنادق، ومسدسات، وقنابل يدوية، وذخيرة، وخناجر، ويحرسها ثلاثة عساكر، واستوقف حميدو عسكريًا بجسد يابس وسأله:

-رايح فين يا أخينا؟

-المأمور.

-أنت مين؟

-حميدو الجن.

فتح العسكري عينيه، وصمت للحظات تأمل فيه وجه «الجن» الذي سمع عنه كثيرًا ولم يره إلا اليوم، وقال له بأدب لم يكن موجودًا في بداية

حديثه:

-تعالَ.

سار يحمل بندقيته، وطربوشه يهتز، ويسعل، وخلفه حميدو ممتقع الوجه، حتى توقف وطرق بابًا مغلق ثم فتحه، وقال:

-حميدو الجن وصل يا باشا.

أشار له المأمور، فدخل حميدو وأغلق العسكري الباب، ووقف الجن في غرفة مربعة وضيقة، ولها نافذة تطل على الشارع الرئيسي، وكان للمأمور مكتب صغير وكرسي خشبي، وتقبع فوق رأسه صورة بالأبيض والأسود، ومؤطرة بخشب ذهبي للملك فاروق وهو شاب صغير في العشرينيات من عمره، ويرتدي بذلة وطربوشًا وله شارب خفيف ترتفع حوافه إلى فوق، وكان المأمور مُنهمكًا في تنظيف سلاحه، وقال لحميدو:

-اجلس لنتحدث دون مراوغة.

استراح حميدو على مقعد مواجه ، وقال:

-المراوغة ليست من شيمي.

كان للمأمور وجه صبوح، وعينان خضراوان، وجسد متوسط الطول والوزن، ويرتدي بذلة سوداء، وله شارب ثقيل، خلع طربوشه الأحمر وقال:

-لا تجمع الإتاوات هذا الشهر، حتى تهدأ الحارة.

-نعم؟ مستحيل يا حضرة المأمور.

-انتبه لكلامك، أستطيع وضعك في السجن مدى الحياة، إن لم تحترم المكان والقوانين ورغبتي.

-رغبتك في مُراضاة اليهودي؟

-ولمَ لا؟ ما المانع؟ ماله وفير لا ينتهي.

-ماذا تريد باختصار؟

-نفذ رغبات «أدين»، ولا تُثير غضبه المُتأصل وجدانيًا بغضبي.

وقف حميدو، وزعق:

-يُريد طرد أسر فقيرة من بيتهم للشارع، هل هذا عدل؟

تبسم المأمور في ثقة ومسح عرقه، وقال:

-لا علاقة لي بالعدل، والمَعدولين، «أدين» يتمنى جعل الحارة بلا فتوة يقتات ثروته مِن ضعف الغلابة.

فتح حميدو فمه وعينيه على آخرهم، واسترسل المأمور:

-لا تندهش، أنا وافقت على استحواذه للبيت، وعارضت رغبته في كرسي الفتونة، ولكن بعد قتلك للحفناوي ورجاله، الوضع اختلف، وقد تترك الكرسي، ولا تنسى.

-ماذا؟

-لا تجني الإتاوات هذا الشهر، وإلا عجلت بعزلك، فكر جيدًا في مُراضاة التاجر اليهودي، وإلا...، لا داعي للكلام، الوقت نضج، ولم يعد هناك مُتسع يفيض بفرص أخرى لك.

ترك حميدو المأمور، وفتح الباب وهو يجز على أسنانه من ألم ساعده الأيمن ومن كلام المأمور، وخرج من بوابة القسم، وركب الحنطور والغيظ يربطه في حجر من نار، وصاح في الحوزي:

-وديني محطة الرمل.

***

كان «أدين» يسير في شارع واسع، ويضرب بقدمه الحجارة والحصى ليقلل غيظه الجسيم، ورغم ما وقع من أحداث جعلت الشمس لا تغيب عن أرضه المُخضرة، إلا أن نفسه لم تندمل بعد، لما أوجده حميدو من عناد

باهظ الثمن، دفع «أدين» لتخطيط شيطاني، وخسارة أموال طائلة لشراء المأمور، وبعض المسئولين في الميناء الشرقي، لمنع خروج الشحنة. والحفناوي الذي دفعه بالمال، والسلاح، ظنًا أنه يستطيع إيقاف حميدو، وقد وافق الحفناوي مُعتقدًا أنه داهية مثلما بجله «أدين»، ولكن ذكاءه كان محدودًا. ودرى «أدين» بعد المعركة التي كان سببًا فيها، أنها أسفرت عن زفاف جديد لحميدو، على حارة فقدت غذريتها منذ سنين فوق سرير وثير مصنوع من الذهب، ويمتلكه حميدو فقط. وأيقن أيضًا أنه من البلادة والركود العقلي الدخول في حرب بالنبوت والسلاح مع حميدو الجن، لما لديه من قوة وليدة تزاوج الشيطان مع أمه في ليلة استمرت سبعة سنوات، والدهاء الحقيقي في الضغط من أطراف مُختلفة، أفضل من العراك، مما أحاط حميدو بسور من نار لا تنطفئ، وتتأجج كلما حاول الوصول لحل. وثبت «أدين» في فؤاده وعقله رغبته القديمة في جعل حارة اليهود بلا فتونة، كي لا تخضع نفسه المُتعالية لسلطة شخص لا يملك سوى القوة، وكي لا يكون مضطرًا كل شهر إلى دفع مبلغ من المال لا ينتفع من قيمته الكبيرة بشيء، سوى النجاة بنفسه من شر العصيان عن دفع الإتاوة. بالإضافة إلى طموحه في أن يُعامل بطريقة أفضل من التي يُعاملها به أتباع حميدو، الذين لا يقدر رجل مهما كانت قوته على التناحر معهم، حتى ولو كان ذلك التناحر بالعين أو العقل. وحدث «أدين» نفسه «لا حرية إلا بالتخلص من حميدو، ولكن ببطء شديد، فلا تعصف رياحه العاتية أشجار تجارتي الكائنة منذ سنين»... ووقف «أدين» أمام دكان صغير في شارع ضيق وابتاع من صاحبه تبغًا وورق لَف، وأعطاه خمسة قروش وانصرف ببذلته الرصاصية. وكانت الشمس تتوارى خلف ستار الليل، والشفق الأحمر يزداد في السماء، وتضاعفت السحب بقدر ثابت.
ووصل «أدين» إلى باب بيته المكون من ثلاثة طوابق، ويقع بأحد شوارع محطة الرمل الواسعة، ويطل على جنينة مزدحمة بالشجر اليافع، والمقاعد الرخامية، وكانت الأطفال تعبث في حشائشها القصيرة، ويقذفون لبعضهم كرة شراب غير مستوية، وخلفهم يجلس الأهالي على الحشائش والمقاعد ويتسامرون، ويأكلون الذرة، واللب، ويخترقون تعليمات الحماية المدنية

بعدم التواجد في الأماكن العامة حتى لا يتعرضون لخطر الغارات. وكان للحديقة سور حديد يفصلها عن الشارع المليء بالسيارات الأجرة المصفوفة خلف بعضها، ومدون على لوحاتها «أجرة مصر»، وخلف هذه السيارات، وقفت الحناطير السوداء تتحارب في خفض الأسعار مع السيارات الأجرة، وكان يمر في منتصف الشارع «تروماي» أبيض يتكون من أربع عربات، ويسوقه رجل خمسيني يابس الوجه، ويدخن بشراهة، لمحه «أدين» بطرف عينيه الخضراء، وسخر من هيئته في باله، ثم صعد على أدراج بيته واستند على درابزينه المليء بالأتربة، ودلف إلى الطابق الثاني، واقترب من بابه شقته بخطوات ثابتة، واستمع إلى صوت كركبة بسيط داخل شقته، فدس المفتاح ودخل ونظر بقلق، وهدأ لأن كل شيء كان طبيعيًا، وأغلق الباب، ووجد على يمينه حميدو يدخن سيجارة، ويقول:

-بحثت عن كلبة أليفة طاعنة في السن عاشت هنا، وأكلت أجود الأطعمة التي طهتها لها خادمة أرمنية، أمينة، كان يضاجعها صاحب الشقة في نهايات الليل، وأغضبني حقًا أنني فشلت في العثور على الكلبة، لأن أعين رجالي لم تغفل عن مراقبة الشقة.

-هذه الإهانة لن يكفيني فيها قطع رقبتك الغليظة، ولسانك، كيف أخذتك الجراءة لتصفها بالكلبة؟

أغلق حميدو نافذة الصالة، ثم جلس على مقعد خشبي موضوع فوق سجادة خضراء أنيقة بها نقشة لزهرة عباد الشمس، وقال:

-أخذت حديثي بمعنى خاطئ.

-حديثك يحمل معنى واحدًا.

-ما هو؟

صمت «أدين»، فقال:

-اعذرني، لم أوضح قصدي، أقصد الكلبة التي كانت تعيش هنا مع والدتك

العجوزة والخادمة الأرمنية.

-لا أخفيك يا حميدو أنني أججت نيران الفتنة بينك وبين الحفناوي لأسباب مهمة، كان أهمها إخفاء والدتي في مكان بعيد خارج الإسكندرية، وما سهل ذلك أنك سحبت كل رجالك الذين كانوا يراقبون البيت ليلاً ونهارًا، يوم المعركة.

-بل كانوا يصعدون ويتنصتون على تأوهات الخادمة حينما كنت تعتصرها، والحفناوي مات من شر غبائه.

-فيمَ تطمح؟

-أنت مَن تطمح، وتفتح فمك لتبتلع حارة اليهود، ولا تستكين أبدًا.

وضع «أدين» التبغ وورق اللف على طاولة حديد صغيرة كانت على يمين حميدو، ولف سيجارة بسرعة وأشعلها بالكبريت، وقال:

-أريد البيت الذي تقطنه أسرة الصياد كله، وأسرة الحفناوي تريد رأسك.

-أوافق، ولكن رأسي لن يمسها إلا خالقها.

تفاجأ برده السريع، واندهش أنه لم يماطل معه مثلما توقع، وأخفى اندهاشه وقال:

-وأنا أوافق، ورأسك لن يمسها شخص بسوء، وستصلك الشَحنة بعد التنفيذ.

-قبل، قبل أيها الخواجة اليهودي.

فكر «أدين» لبرهة، ثم قال:

-لدي أرض ترضي الجميع، أسلمك الشَحنة في نفس وقت طرد سكان البيت خلال الأيام القادمة.

هز حميدو رأسه بالموافقة، فأكمل:

-تذكر أن مَن يخل باتفاق معي لن تُخفيه طيات السماوات والأرض.

-وتذكر أنت أن من يغدر بي لن أرحم والدته، التي ذهبت إلى حي مصر الجديدة في القاهرة.

لم يقدر «أدين» على كظم اندهاشه وغضبه، وقال لحميدو:

-انتهينا، تفضل لأن رائحة عرقك تخنقني.

-لا تمس سكان البيت بسوء قبل إخباري، سلام يا ابن الأبالسة.

***

الفصل الثاني عشر

اندملت الجزيرة بعد طقوس إغلاق البوابة، وأترع قلب الجزيرة بالشجن الضارع، وظل سكانها يومًا كاملاً داخل بيوتهم بناءً على طلب من الحامي، ليتأكد من أمان الجميع، وطاف الحراس في أنحاء الجزيرة وطلبوا من السكان عدم الخروج، ووزعوا على كل بيت خبزًا شمسيًا وقطعًا من اللحم المسلوق، وإناء ماء كبير، وغسقت السماء ليلاً، وتوحلت أجزاء كبيرة من الجزيرة لشدة المطر، وظل المُعظم الصغير وشقيقته ووالدته وتاليا في البيت العظيم، والصياد في بيت المرأة التي أنقذها من الحارس. ونام ابنها الصغير أغلب الوقت، وحينما جاء الحراس اختبأ الصياد، وأخذت منهم المرأة الطعام والماء وهي تتوارى خلف الباب، ثم أغلقته، واستيقظ الطفل وأكل وعاد للنوم، وأكل الصياد وهو يتابع وجهها الأسمر، وجسدها البدين، وشعرها الغجري، وحين فرغا من الأكل، تجرع الصياد القليل من الماء، وشكرته المرأة، فسمع صوتها العذب الهادئ للمرة الأولى، ودار بينهما حديث واسع، عرف منه أن الحارس كان يضايقها، ويهددها دومًا بقتل ابنها إن لم ترضخ لرغباته، وكان يأتي لها ثلاث مرات على الأقل كل أسبوع، وفي يوم شتوي بارد ذهبت إلى منظمة الأمن، وطالبت بحبسه، فعلم ما فعلته وعاقبها عقابًا شديد، ضربها هي وابنها بخيزرانة جعلتهما يصرخان، وبعد انتهائه من تعذيبهما، أخرج الطفل، وانفرد بها ومزق ثوبها

واغتصبها ثلاث مرات، وأخبرها أنه سيأتي لها عندما يحتاج إلى فخذ ثمين مثل فخذها، وأنذرها من الكلام بما يفعله معها وإلا قتل ابنها، وكان دومًا يُناديها بزوجة السجين، فسألها الصياد فيما سُجن زوجك؟ رفضت إزاحة فضوله، وأخبرته أنها ستحكي له قصة زوجها في وقت لاحق، واسترسلت حديثها بأنها عانت كثيرًا من سطوة هذا الحارس، وكانت في عينيها دمعة ثابتة لا تفيض ولا تشح، وانفجعت نفس الصياد حينما قالت له إنها حاولت إرضاء الحارس بشتى الطرق إلا أنه كان يصل إلى ذروة قوته الجنسية بعدما يذيقها العذاب، ويغلق عينيه ليستمتع بصوت صراخها من ألم الضرب بالخيزرانة، وكان يصل حد السماء بتمزيق ثوبها الخارجي والداخلي. وبعد مدة حملت منه شيطانًا صغيرًا، وقررت إخباره لعله يرحمها ويتزوجها، فانتظرته وأعدت له مائدة كبيرة ملونة بأطعمة كثيرة، وأخبرته، فانتظر شهرين حتى بدأت أحشاؤها في الانتفاخ تدريجيًا، وجاء لها ليلاً، ولكزها ثلاث مرات في معدتها، فوجدت الدماء تخرج من فرجها، وكادت تفقد روحها، لولا قريبتها «حسناء» التي أنقذتها وجلبت لها طبيبًا ماهرًا في عمله، فتح معدتها وأخرج الجنين، وربط الجرح بخيط من القطن، وبعد تعافيها بعدة أسابيع عاد لها الحارس واستمر في عمله البغيض. أجهشت في البكاء وهي تحكي، فهدأها الصياد:

-لن يعود، كفي عن البكاء.

-لكن ذكراه ستعود دومًا لتؤلمني، وتُململ جوانحي.

قاوم رغبة عنيفة في ضمها لصدره، وأذعن لحبه إلى زوجته، وابتعد عنها قليلاً لينام، وأثناء نومه رأى كوابيس وأحلامًا غريبة، كانت رؤيتها مشوبة بالظلام، والغموض. ولما استيقظ في الصباح، نظر حوله فوجد الطفل نائمًا على سجادة صغيرة، وخلفه والدته تحتضنه، ولكنها مستيقظة، وعيناها حمراوان، فوقف مُتحاملاً على ساعديه، وأخبرها أنه ذاهب إلى مهمة ضرورية، فسألته:

-هل ستعود؟

-ربما.

-حافظ على نفسك.

غادر البيت مُحاطًا بكلماتها، ودون أن يعرف اسمها، مُتجهًا إلى بيت الملك، ورأى حراسه يطوفون ويأمرون السكان بالاجتماع عند جبل «الفراديس» الآن، لأن الملك يريدهم، ومن يتأخر عن الحضور ستنوله أيادي كائنات الظلام الجارحة، حفظ الصياد اسم «الفراديس»، وسار مع السكان في طريقهم إلى الجبل»... وأمام بوابة السور الرئيسية تأكد «ابن بيقاع» من أمان الجزيرة، وإغلاق البوابة بعد سلسلة من التجارب، وأرسل كتابًا للمُعظم الصغير، وطلب فيه البحث عن أسرته، ليُكمل عمله في تأمين الجزيرة عن طريق معارفه السحرية القديمة، وأخبره أنه سينفرد بنفسه في بيته ليقرأ كتاب «القدماء»، ويكشف الأسرار الساترة في طياته.

***

فاضت بيوت الجزيرة بطاقة سلبية كانت كامنة في النفوس، وانتظرت هذه الطاقة وقوع كارثة مثل الهجوم، وإغلاق البوابة، وما تلاهما من توابع، فقفزت من نفوس السكان، وقيدتهم بالخوف والقلق، واعتصرت القلوب وألقتها في جُب مُظلم. وخرج السكان من البيوت وساروا في خط مُستقيم خلف بعضهم مثل النمل، وكانت أعدادهم كبيرة، وحاوطهم على الجانبين عدد من الحراس، ووقف جميع الضباط أسفل جبل «الفراديس»، وفي قمته، تأمينًا لأسرة الملك أثناء خُطبته للسكان، وتشاءم الجميع من خطبه لأنها لا يرتب لها إلا في الكوارث الصعبة، وتُزيد همهم همًا سرمديًا. ووقف قُرابة خمسين حارسًا في مجرى البوابة الرئيسية لاستطلاع حالة البحر، والكائنات التي تطفو على سطحه، وانتشر الحراس في جميع بقاع الجزيرة، واعتلى جزء منهم الأبراج الخشبية، وحملوا الأقواس والأسهم والسيوف، وكان الصياد يسير وسط السكان، ويستمع إلى أحاديثهم، ويجول بعينيه في النهر الذي يحدهم من ناحية اليمين، وكان السكان ينظرون إليه باستغراب لملامحه الغريبة عنهم، ورغم أن السيدة السمراء

أعطته ثوبًا طويلًا وأنيقًا مثل أثواب الجزيرة المعروفة، إلا أنه لم يستطع التخفي عن الأعين. وشرد بذهنه إلى الإسكندرية، وعاد للجزيرة حين استمع إلى عجوز يحدث ابنه بصوت خفيض: «الملك جُن يا ولدي»، واستمع إلى سيدة تقول: «حادثة الباب العالي جلبت لنا الأوبئة، ولن تنتهي أبدًا إلا بهلاكنا». وكان الهواء نقيًا، ورائحة الأمطار مُنتشرة في الأجواء، وقدمه تغرز في الطين لأن أغلب أرض الجزيرة توحلت من الأمطار، واشتم أثناء سيره روائح عرق عنيفة اختلطت بروائح مصنوعة من الزهور، والنباتات الفواحة، ونبعت تلك الرائحة من الفتيات والسيدات، والتصقت رائحة العرق بالرجال. وكان أغلب السكان يرتدون أثوابًا ثقيلة، بأكمام طويلة من القماش، وتنتهي بحواف من خيوط ذهبية تلمع، وكان اللون الأخضر، والأحمر، والبني للسيدات والفتيات، واللونان الأسود والبرتقالي للرجال، وكانوا يرتدون في أقدامهم قباقيب من الخشب اتسخت من طينة الأرض، وأحذية من الجلد، ووجد الصياد شابًا ذا وجه متسخ يقفز من بين الجميع، ويقترب منه، وسأله:

-ما اسمك؟

لم يلتفت إليه الصياد، فقال الشاب بتأفف:

-أنت أخرس؟

لوح له الصياد بيديه، فتراجع الشاب وتوارى بين الجمع الغفير، وسمعه الصياد يقول:

-أخرس ابن أخرس.

مر الصياد بعدها مع السكان بين البيوت والأشجار، وظهر جبل «الفراديس» من بعيد شامخ، ولونه أخضر من الحشائش والنباتات الصغيرة التي تنغمس في أغلب أجزائه، وكان الجبل يحمل البيت العظيم بجلال وإبهار، وتخيله الصياد جنديًا ضخمًا يحمل علم بلاده في الحرب ليحميه من الدماء، والغبار، والطين، وأي مادة تقلل من زهوه، وجلالته. وقل الطين أسفل قدم الصياد، ومشى على أرض صلبة تنبع من الجبل،

وتألمت قدمه من الحصى والطوب، وتوقف الجميع أمام الجبل، وتطلعت رؤوسهم إلى جزء من قمته، منعزل عنه ويُشبه الشُرفة، ومُحاط بسور حديد لا يزيد ارتفاعه عن نصف متر، وبوق عسكري من قمة الجبل، فصمت الكُل، حتى الأطفال توقفوا عن الهمس والبكاء، وانتظر الجميع لوقت كبير لم يتفوه فيه أحد بكلمة، وظهر المُعظم الصغير، ووقف في الجزء الشبيه بالشرفة، ورفع يديه للسماء، فبوق خمسة حراس بصوت عالٍ جعل الطيور تهرب من الأشجار القريبة، وخفق قلب الصياد، وصرخ «الجراكو»، فنظر السكان خلفهم ثم عادوا بنظرهم إلى المُعظم، وكان الحراس والضباط يراقبون السكان ويتفحصون وجوههم، ووجد الصياد حارسًا ينظر إليه بتركيز، فهرب بنظراته إلى ناحية اليسار، ورأى سور الجزيرة الضخم والطويل يحدهم. وأنزل المُعظم يديه، وصاح السكان:

-الجد الأعظم، وابنه، وحفيده، والجزيرة.

وزغردت السيدات والفتيات، وأمسك الرجال بالزلط وراحوا يضربونه في بعضه ببطء، ووضع حراس الأبراج الأسهم في أقواسهم ووجهوها ناحية البحر، وأشار لهم المعظم، فأطلقوها، وطارت واحتكت بضوء الشمس وسقطت في مياه البحر، وزاد صياح السكان، وتكلم المُعظم بكلمة غير واضحة فصمت الكل، وأوقف الرجال ضرب الزلط ببعضه. وقال:

-الجزيرة تعرضت لخطر جَم كاد يغرقها في مياه البحر، ولكن الجد الأعظم مد ساعديه النورانيين، وثبت الجزيرة في موضعها، وأبعد البحر. والأيام القادمة ستعود الجزيرة كما كانت.

توقف ونظر خلفه إلى البيت العظيم، فكان يقف عليه الملك وعيناه مفتوحتان، ويسند بيديه على سور خشبي يغطي نصف جسده، وبجانبه الملكة تلف يديها على خصره، فحياه السكان وتعالت صرخاتهم، وأوقفهم المعظم، وقال باقتضاب:

-لا تجعلوا اليأس يتغلغل فيكم، ولا تخترقوا القواعد، وتذكروا أن عناية الجد الأعظم ترعانا مثل رعاية الأمهات لأطفالهم، وأعلموا جيدًا أن الأيام

المقبلة ستظهر فيها شائعات، وأقاويل مُغرضة، والملك لن يرحم مروجي الشائعات لأنهم ينهشون جزيرتنا مثل السوس. واجعلوا البيت العظيم مَرجعكم في أي معلومة تقال.

رفع يديه للسماء وأشار ناحية الملك، فصرخ السكان، وبكى الرضع من علو الصوت، وقفز الأطفال فرحًا وهم لا يدرون ما يُقال، ثم انصرف الملك والملكة، وبعدهما المعظم، وكان ذلك أمرًا صريح للسكان بالعودة إلى بيوتهم.

***

وقف الصياد حائرًا بَعد خُطبة المُعظم الصغير، ولا يدري جهته المقبلة بعدما أدرك صعوبة العودة إلى الإسكندرية، أو الهرب من حراس المعظم، فدفع قدميه وصعد على الممر الموجود في الجبل، وقابل حارسًا ضخمًا وأبيض قال بصرامة:

-توقف وإلا قتلتك.

-أريد مُقابلة المُعظم الصغير.

احتقره بنظراته، ثم أحفه:

-مَن أنت لتقابله؟

-أخبره أنني صاحب المسدس، وصدقني إن لم تخبره سيرميك بنفسه إلى «الجراكو».

لكزه الحارس في صدره وصاح:

-اغرب عن وجهي.

ضربه الصياد في أنفه فنزفت، وجاء حارس من خلف الصياد وضربه بقدمه قائلاً:

-كيف جاءتك الجرأة أيها المسجون لتهرب منا يوم إغلاق البوابة؟ تحرك

معي ليقرر المُعظم مصيرك الأسود، وأنت أيها الحارس الغبي كيف تتشاجر مع العوام؟

سحب الحارس الصياد وصعدا على الممر، ودخلا البيت العظيم، ثم وضع الحارس الصياد في بهو الطابق الثاني، وجاء المُعظم وقال له بكل رياء:

-أنت حقير ومُخادع، وهارب.

-أحتاج الكهرباء لصناعة السلاح.

-كهرباء؟

دخل البهو خمسة ضباط، وقال كبيرهم سنًا ومقامًا وكان يحمل سيفه في يده:

-أيها المعظم، وجدنا جثة «القازل».

التفت وسأله:

-كيف مات؟

-مقتولاً.

تدخل الصياد:

-أحتاج الكهرباء لصناعة السلاح.

جذبه المعظم من تلابيبه وصاح:

-ما هي الكهرباء؟

-لن تفهمني.

-لن أرحمك.

أخرج من جيب ثوبه القرمزي المسدس وقال:

-معك يومان فقط لتصنع لي هذا السلاح، وإلا قطعت رأسك.

قطع الضابط حديثهما:

- لقد رأيت هذا السلاح في أحد رحلاتي الاستكشافية بالبحر، تقريبًا منذ عام.

سأله الصياد بشغف:

-أين رأيته؟

قال الضابط للمعظم:

-في جزيرة قريبة تبعد عنا مسافة يومين تقريبًا.

فكر المعظم، ثم قال:

-سنذهب لهذه الجزيرة ونستطلعها، ونسرق أسلحتها.

-كيف والكائنات اللعينة تلتهم البحر؟

-عبر كهف «الجراكو».

صُدم الضباط، واهتز الصياد، وزاد المعظم من اضطرابهم:

-سنعبر من خلال الكهف إلى ممر عميق أسفل أرض الجزيرة، ونصل لمنطقة بعيدة عن الكائنات، نستطيع من خلالها الذهاب إلى الجزيرة.

قطعه الصياد:

-وماذا لو وجدنا كائنات في هذه المنطقة؟

-سيدركنا الموت.

التقط أنفاسًا سريعة، ورفع المعظم سبابته وقال للضابط بحزم:

-أعدوا أربعمائة حارس بالسيوف والأقواس والأسهم، وخمسين ضابطًا، والرحلة إلى الجزيرة ستكون غدًا أو بعد غد.

-أمرك يا سيدي.

أشار له المعظم لينصرف ويأخذ معه الضباط، وقال للصياد:

-هل تستطيع تدريب الحراس والضباط على استخدام الأسلحة إن وجدناها؟

هز رأسه بأسف، فقال المعظم:

-استعد لأن شأنك سوف يرتفع، وإن هبطنا إلى قاع الموت، تموت معنا.

-أنا طوع أمرك، ولكني لدي طلب وحيد.

-لا تتشرط أيها السجين.

-أريد العودة إلى الإسكندرية، ولا أدري كيف؟

رفع المعظم حاجبيه، وفكر لبرهة، ثم قال:

-الأهم الآن أثبت لي كفاءتك، وأعدك بتنفيذ طلبك، هيا لنستعد.

***

في جوف مخبأ مفعم برائحة الورد، وله مساحة كبيرة، ويقع أسفل البيت العظيم مباشرة، أناخت الملكة نفسها على مقعد أمامه طاولة خشب، فوقها علم من القماش، ومطرز عليه بخيط ذهب صورة ليد سوداء، وكانت الملكة تنتظر أعضاء تنظيم «اليد المطهرة»، وتداعب بعينيها جدران المخبأ الأربعة، والأوعية التي تحمل النيران فوق عاتقها، وتحك قدمها اليمنى بالأرض، وتحاول ثبط تصوراتها السوداوية للجزيرة، وكظم غيظها من مقتل الملك، والتستر عن إخبار السكان بحقيقة الأمر، ومن إرادة الحاكم الثالث بالبوح بالسر، مما يثير البلبلة والاضطراب، ومن قتلها «للغازل». وزمهرت العواصف الداخلية بنفس الملكة، وماع قلبها، وشعرت أنها ترغب بإزالة شعرها، والتحلي بالرجولة التي لاذ منها زوجها في سنوات حكمه الأخيرة... طرق باب المخبأ ثلاث مرات وانفتح ودخلت منه تاليا بجسدها الرشيق وأقدامها الثقيلة، وأرسلت للملكة تحياتها، ودخل بعدها عشرون فتاة شابة، أصغرهم سنًا بلغت الخامسة والعشرين ربيعًا، وربضت الملكة

غضبها في ثنايا صدرها حينما رأتهم، وأمرتهن بالجلوس، وهي تتأمل ملابسهن السرية الخاصة بخادمات البيت التي يرتدينها، ويخفين شعرهن أسفل أغطية من القماش، ودنت تاليا بعد جلوسهن من الملكة، وقالت بأدب:

-لم نجتمع منذ أسبوعين، وجلالة الملكة لديها رغبة عارمة لمعرفة أدق المعلومات والتفاصيل الخاصة بسكان الجزيرة.

كانت وجوه الفتيات مُشرقة، ولكن يلوح حولهم الاضطراب، وقالت الملكة بوجه يابس يُغيبه المرض:

-قبل الشروع في هدير الأحاديث، هناك عدة قواعد قمت بوضعها منذ فترة وآن لها التنفيذ، رقابة صارمة على بيت الحاكم الثالث وتحركاته، فلا تتركن دربًا يخطوه ولا تتبعنه. رقابة صارمة على أفواه السكان التي تتفوه بالجهل، ومن تسول له الأيام الماضية أنه حر ولا يتبع القواعد، اجلبوا لي رأسه، وافصلوا لحمه عن عظمه، وضعوا العظم أمام بيته ليكون مثالاً مُنيرًا لخارقي النظام، ولكن لا تتحركوا إلا في الليل لأنه حليفنا الوحيد هذه الأيام، ويغطي تنظيمنا السري بلا مقابل.

هززن رؤوسهن، ووضعت الملكة تاجها الفضي على الطاولة، وقالت:

-قريبًا بعد تولي المعظم الصغير كرسي الجزيرة، سيكون تنظيمنا واضحًا للكل بلا تخفي. أخرجن ما في جعبتكن.

رفعت فتاة ذات وجه دائري يدها، فسمحت لها الملكة بالكلام:

-فقدنا ألف شخص في الهجوم الذي تعرضنا له، وما تلاه من توابع سخامية.

-وما العدد الحالي للسكان؟

-يزيدون على الخمسين ألف برقم زهيد.

شردت الملكة قليلاً وسألت فتاة أخرى:

-يساورني أن مخزون القمح لن يكفينا أسبوعًا، هل ذلك فعلي؟

- يكفينا أكثر من أسبوعين يا مولاتي.

-حسنًا، أطلعوني على معلوماتكن الباقية.

قالت فتاة شعرها ينساب من غطائه، وبشرتها سمراء:

-الكائنات المسيطرة على البحر تهشم باطن الجزيرة السفلي.

-كلامك غائم بلا نتائج.

-النتائج يا مولاتي ستكون غرق الجزيرة خلال أسبوعين.

بصقت الملكة على الأرض وصاحت:

-أسبوعان وينتهي القمح وتغرق الجزيرة، ألا تحملن لي بشائر الفرج، وتزففن لجوانحي بعض الأمان؟ بعضه فقط؟

حط صمت بليغ، شقته تاليا بكلماتها المُنمقة:

-معلوماتنا تكلى من الأمل، لكن هناك بشائر بارة بجلالتك، المعظم الصغير توصل إلى حل مع الصياد.

نظرت لها الملكة وحملت بعينيها معنى مفهومًا، فاقتربت تاليا من أذنها وأخبرتها بما يخطط له المعظم، ويستعين فيه بالصياد ليبسط أرضه. ثم عادت لمكانها.

-أعتذر عن كلماتي السقيمة، عقلي ماع في بحر صاخب شديد الملوحة، وقلبي اغتم من مصير الجزيرة الملغز، أكملن خيوط حديثكن.

انبلج التأثر على عيون الفتيات، وقالت الفتاة ذات الوجه المستدير:

-جدب إيمان السكان بالجد الأعظم، واغترفوا ماء كائنات الظلام، وباتوا

يرغبون في النزوح عن السور العظيم، واكتشاف البحر ظنًا أن هناك جزرًا مجاورة لنا يعيش عليها سكان غرباء، واعتراهم الظلام ونسوا أن خارج هذا السور تقبع كائنات الظلام، التي حاربت الجد الأعظم قديمًا، وتحارب الآن خليقته.

أكملت الكلام فتاة غيرها كانت أنفها كبيرة، وعينها عسلي وأسنانها بيضاء:

-ووصل الأمر إلى أن بعض السكان ألقوا بقصة الجد الأعظم في المياه، ونشروا شائعات غريبة.

أضاقت الملكة عينيها ومالت برأسها ناحية الفتاة، وسألتها:

-ما هي؟

-يقولون أن الملك قُتل، والحاكم الثالث تعرض إلى محاولة اغتيال.

أمعنت تاليا التركيز فيما تقوله الفتاة، وتدخلت غيرها كانت تجلس جوار الملكة:

-دحض الشائعات عن الجزيرة مهمتي أنا وفرقتي، وما تقولينه غير حقيقي، ولم يتداوله السكان.

نظرت الملكة إلى تاليا وتبسمت، فذهبت تاليا إلى الفتاة التي تحدثت عن مقتل الملك ومحاولة الاغتيال، وقالت للملكة:

-ما العمل يا جلالة الملكة؟

-قتل مُروجي الشائعات يا تاليا.

صرخت الفتاة وتطايرت دماؤها على الطاولة الخشبية، وملابس بعض الفتيات، وارتاع الجميع لأن تاليا طعنت الفتاة بخنجر في ظهرها، وصاحت فيهم الملكة:

-لا مكان لخائن بيننا، حينما أسست هذا التنظيم كان هدفي الأمانة. أما

الخائنون، ومروجو الشائعات مكانتهم بين أسنان سمك البحر.

لم تقو فتاة على التحدث، وأكملت الملكة:

-تنظيمنا يقود خمسمائة فتاة عذراء في السر، وأنتن تعتليهن مقامًا، وفوقكن تاليا، وعليكن رحمتي، ولابد من الرضوخ وعدم الهوان وبذل أنفسكن لتحقيق أهداف «اليد الفظهرة». اجتماعنا انتهى اليوم، وانتظرن أوامري الساعات المقبلة.

خرجت الفتيات، وأغلقت تاليا خلفهم الباب، ودنت من الملكة قائلة:

-هذه الفتاة كانت لديها معلومات مهمة.

-شيطان أبلغها.

- مَن؟ ليس المعظم ولا أنا ولا جلالتك ولا ....

صمتت تاليا، وشردت الملكة بذهنها، ثم قالت بحزم:

-شددي رقابتك على مجلس التنظيم لأننا مخترقات، وهذا يعني أن أمر التنظيم أصبح عاريًا بلا غطاء سري، ولكن هذا لن يدوم قسمًا بالجد الأعظم، وسأقتلع رأس الحية الماكرة.

***

أعد المعظم الصغير الحراس والضباط اللازمين لرحلته القادمة إلى الجزيرة القريبة، وأشرف بنفسه على التجهيزات والأسلحة، وأخبر مسئول منظمة الأمن فقط بما يفعله، وأوكل له حرية التصرف حتى يعود من رحلته غامضة المصير. وزفِفت مكانة الصياد بين القوات الملكية، وأسكنه المعظم في حجرة واسعة من حجرات البيت العظيم، وكساه بالملابس الملكية، وخصص ثلاثة حراس لحمايته، ومراقبته، فلا يتعرض للخطر، ولا يفكر في الهرب مرة ثانية. وأذكى المعظم روحه بالرجاء، وبدد خيبة أمله، وصلى للجد الأعظم لينقذهم من الفواجع، وصرخ في جوف نفسه، وهزت نبرته وجدانه، فطرد الخور وأبرق ببذرة القوة، وانبثت الطاقة في أوصاله،

ولكن إحساسه بأنه سجين في مكان مُظلم مليء بالوحوش الضارية، لا يزال يطرق رأسه، ويدفعه من الخلف للسقوط في رمال صحراء ظلت شمسها ساطعة لألف عام، وحينما جاء ليلها مترنحًا ومريضًا غض عن الرمال قمره.... وجاء للمعظم كتاب من «الناظري» يخبره فيه بأنه يختلي بنفسه في بيته الذي أهداه إياه بعد إغلاق البوابة، لقراءة كتاب القدماء، وأنه يريد العثور على أسرته، وبداخل الكتاب ورقة بردي عليها رسمة لزوجته. فألزم المُعظم، الحراس بالبحث عن أسرته، وأعطاهم ورقة البردي، وانصرف الحراس بأحصنتهم. وبعد لحظات جاء ضابط وقال للمعظم إن الاستعدادات انتهت، والرحلة إلى الجزيرة غدًا، وصدق المعظم على طلب كتابي جاء من مسئول منظمة الأمن يحمل في طياته ميعاد الرحلة التي تستغرق أربعة أيام، وعدد الحراس والضباط، والعتاد والأطعمة، والمياه والأسلحة. وكتب المعظم بالحبر على ورقة رسمية، أن لمسئول منظمة الأمن حق التصرف أثناء غيابه، دون أن يُخالف سلطة الملك والملكة، وحق علو الحاكم الثالث بما لا يتعارض مع مصالح الجزيرة. وفيما بعد قص المعظم لوالدته عن رحلته، فارتاعت، ولم تجد حلاً آخر يخلصهم غير ذلك، ورفضت البوح بسر تهشيم رصيف الجزيرة السفلي من الكائنات، كي لا تثيره أكثر، وقبلته من رأسه وقالت:

-عد لي سالمًا، فنطهر الأرض الزراعية، والبحر من سطوة هذه الكائنات، وتعتلي أنت سماء الجزيرة، وتعزز قوة الجد الأعظم.

-أعدك ببذل روحي.

***

خرج الصياد بقامته الطويلة من حجرته بثوب ملكي قرمزي، وكان شعره مُرجلًا، ويرتدي في قدميه حذاء من الجلد، ينتهي عند الأصابع بحجر كريم لونه أزرق، وأوقف الصياد الثلاثة الحراس وسألوه: «إلى أين تذهب؟»، فقال إنه يريد التنزه في الجزيرة، فلم يقدروا على رفض الطلب، تنفيذًا لأوامر المعظم بتلبية جميع رغباته، وسار واحد أمامه واثنان خلفه

ونزلوا على سلم البيت الثعباني، ورأى الصياد خادمات البيت وهن يضعن الزيت في الأوعية، لأن الغروب يدنو منهم، بالإضافة لحراس وضباط يُغرقون البيت بأعدادهم، لحمايته، وتبادلوا مع الصياد نظرات تحمل احترامًا كبيرًا، ودلف الصياد من باب البيت، ووطئت قدماه قمة الجبل، ونظر ناحية البحر، والبيوت الخشبية المكونة من طابق واحد، ويقطنها سكان الجزيرة، ورأى السماء يتخللها انكسار ضوء الشمس الواهن، وهزت نسمات الهواء خفيفة الملمس، ثوبه القرمزي المفتوح عند قدميه، وتحرك الصياد ونزل على الممر مع الحراس، وحينما وصل إلى أرض الجزيرة، جلب له حارس حصان أبيض، صعد عليه وشد لجامه فسار الحصان وقدمه تحدث صوت احتكاك عالٍ، ومعه الحراس يمتطون أحصنة مثله. ومر الصياد على بيوت، وأشجار كثيرة، وكان النهر الطويل على يساره، ومياهه مليئة بالأعشاب الخضراء والأتربة، وضوء الأوعية الأصفر يلمع فوق أجزاء من سطح المياه النظيفة، وكان لكل بيت يمر أمامه، عمود خشب يرتفع فوقه وعاء ينير حوله، ونيرانه تتحرك يمينًا ويسارًا بفعل تأثير الهواء. وتسربل سور الجزيرة بالعظمة على اليمين، وكان صوت أمواج البحر شديد، ورائحة اليود قوية. وتابع الصياد بعينيه المشوشة الجزيرة بقلب منفطر على سماح ومرعي. وعلى المرأة التي أنقذها، بشرتها السمراء، وشعرها، والبرتقالتان اللتان يتعلقان فوق معدتها، وصوتها العذب، ونظرتها الحاملة لبقايا إنسانة تحطمت أسفل غزو وحشي، يرقرقون مشاعره ليحن عليها أكثر، ويكررون في أذنه صوت نشيجها وقتما دخل عليهما الحجرة، وقتل الحارس، ذكرى سيئة عليه سيتذكرها دومًا، لأنه رغم عمله لفترة عريضة مع الإنجليز، وإبحاره في شجارات عنيفة، لم يقتل ولم يزهق روحًا مِن قبل، لذا يحاول جاهدًا إقناع ذاته أن الحارس لم يكن يعرف شيئًا عن الرحمة، وما دنسه في أرض المرأة، وقلبها، لا يغتفر سوى بالقتل. أسرى داخل عروقه ذلك المبرر ليهرب من الذنب الذي طرق قلبه منذ يومها، وزاد طرقه عندما ترك المرأة وحيدة، وتتألم من كبواتها... مر الصياد بشذرات أفكاره والحصان على خمسة بيوت خشبية من طابق واحد، ينتهي كل بيت فيهم بسطح هرمي، ويبترهم عن الجزيرة سور

خشبي كبير، تراصت في أركانه أعمدة حملت أوعية مشتعلة، ويقف ثلاثة حراس على بوابته، وعلم الصياد من أحد الحراس أن هذه المباني تسمى بـ«دواوين الجزيرة»، وترعى الشئون العامة، مثل ديوان بيت المال، وديوان الأمن وغيرهما.. ووجد الصياد بعد مسافة سوق الجزيرة مغلقًا وفي أرضه ثمرات فاكهة متعفنة، وخضروات باهتة وتنبعث منها رائحة كريهة، وأدركه نفس الحارس، وقال:

-هذا السوق مغلق منذ يومين، لسبب جهيل.

بعد مسافة سأله الصياد عن حادثة الباب العالي، فصمت الحارس ولاذ بنظراته إلى النهر، وانتبه الصياد إلى أن الحارسين الذين كانا خلفه سبقاه للأمام، مما جعل الشغف يعلو داخله ليعرف قصة هذه الحادثة، وشاهد بعدما ابتعد عن السوق، مساحة رحبة من الأرض الزراعية، يحميها من الخارج سور حديد محاط بأحجار وصخور ضخمة، ولاصقه الحارس، وطلب بأدب الابتعاد عن ذلك المكان لما يحمله من أخطار، ولاحظ الصياد تدثر عين الحارس بالخوف، فسأله:

-لماذا؟

-هذه المنطقة الواسعة كانت مخصصة للزراعة، ولكن بعد هجوم الكائنات أصبحت منطقة محظورة ومنذرة بالشؤم، وبها كائنات قاتلة، فأمر المعظم بوضع هذا السور حولها، وغير المزارعين مجرى النهر، فكان في السابق يمر حولها، أما الآن ابتعد عنها، وجفت فروعه.

تذكر الصياد ما حدث له يوم هربه من البيت العظيم، والحارس الذي قفز عليه وتركه يموت داخل الأرض الزراعية، دون مساعدة رغم ما فجرته حنجرته وقتها من صراخات حطمت أذنه، فأغمض عينيه، وقال:

-الجزيرة كلها منذرة بالشؤم.

ابتعد الصياد والحراس الثلاثة، وجاس بعينيه بحثًا عن بيت المرأة وابنها، ومر على أرض يعشش فيها الصمت الكئيب، ويلفها سور خشبي

ارتفع بجانبه عمود حديد، وحمل لافتة دون عليها باللون الأبيض «المقابر»، وتلا المقابر ناحية اليمين التلة العالية التي يعيش عليها «الجراكو»، ودرى الصياد أنه يدنو من المرأة السمراء لأنه لما هرب ركض في هذا الطريق، وهدأت حركة الحصان لأن الأرض كانت غير مستوية، ومليئة بالحصى والزلط، وشد لجام الحصان فجأة، وقال للحراس أنه سيترك الحصان ليسير بقدميه، ويكفيهم متابعته من بعيد، ولا يقتربون. فناوله أحد الحراس سيفًا، وقال:

-لحمايتك.

أخذه وابتعد عنهم، وكان يركض بسرعة ويتلفت على ضوء الأوعية ليجد بيت المرأة، ثم جاس بين بيوت كثيرة ورأسه تصرخ. ومال عقله إلى فكرة مقتل المرأة، أو هدم بيتها لأنهم اكتشفوا مقتل الحارس، أو لعلها هاجرت ولملمت مُمتلكاتها إلى بيت جديد. وحاول تتويق احتمالاته ليهدأ، ففشل، واعتلاه مرض دفين. وكف جسده عن إيذائه عندما اصطدمت عيناه ببيت المرأة، وتذكره لأن له نافذة خلفية بها جزء مكسور، جرى ناحية البيت وطرق بابه، فلم يُفتح، اقترب من النافذة ونظر منها ووجد الظلام الدامس يعتلي البيت، والأوعية ثابتة ولا ينبعث منها الضوء، سار للأمام مبتعدًا لا يعلم ما الذي يدفعه كالمجاذيب هكذا، وانحرف النهر الطويل ناحية اليمين، فانحرف معه، حتى اختلا ببعضهما في منطقة فارغة من البيوت والسكان، ويكتنفها الليل البهيم الصامت، واستمع لأصوات أقدام خلفه، ونظر، فوجد الحراس يقفون ويشهرون سيوفهم في الهواء. واحترقت تصوراته السيئة للمرأة مثل الوقود ودفعته، ليستمر في بحثه عنها.
واجتذبت عينه أضواء صفراء تأتي من منطقة بعيدة يسري فيها النهر، ويتسع بمائه العذب النقي، فجرى ووصل إليها، ورأى فيها سيدات وفتيات يرتدين أثوابًا سوداء تغطي أجسادهن كلها، ويربطن شعورهن بخيوط ذهبية رفيعة، ويجثين على الأرض، ويمسكن قطع شمع مستديرة مشتعلة، ويضعنها في النهر، ويشرعن في تمتمات بصوت رخيم وخفيض،
ويتضرعن للسماء، ويضعن الشموع في النهر لتسير بتريث ووقار، وكان

النهر ساحرًا ومضاء بالشموع، ومياهه تتحرك بهدوء، وتنبعث منه رائحة ورد طيبة جاءت من ثلاث فتيات وقفن عند حافة النهر، وراحوا يزيننه بالورود، وكانت وجوههن صبوحة ومفعمة بالحيوية، ولاحظ الصياد أن عيون الجميع تحمل ألمًا دفينًا، وحزنًا شديدًا، ودموعًا حبيسة تستهوي الثبات، وترفض الإفاضة خارج العين، ولامسته يد خفيفة من الخلف، فنظر واصطدم بالمرأة، وتسمر للحظات، وقالت له وهي تبتسم وتضع زهرة بين خصلات شعرها:

-عدت، ولكن بهيئة أكثر زهوًا.

-أين كنتِ؟

-أنا هنا منذ وقت قليل.

-لم؟

-أسلوبك سقيم، ووجهك عابس ويحمل اضطرابًا.

لاحظ اندفاعه، فأراح بدنه على صخرة، فتركته وراحت تشعل الشموع، وتضعها في النهر، ثم تجثو مثلهن، وتتضرع بيديها إلى السماء، دنا منها وقال:

-بحثت عنك في بيتك، فوجدته مظلمًا وباردًا، وشمسك لا تظلله.

كان صوته مرتفعًا، وانتبه لفتاة تنظر له باحتقار، فأخفض صوته:

-آسف، أنا ذاهب.

أمسكته من يده، فاقشعر، وتأججت نار قوية في معدته، وشعر بدفئها وسط الجو الفاتر.

-اجلس ولا تضيع فرصة ما تراه.

-وما فائدته؟

أخرجت قماشة من ثوبها ومررتها فوق جبينه، ومسحت عرقه، ولاحظت

أن حرارته مرتفعة قليلاً، فأرست فيه بعض الراحة:

-اهدأ جسدك ساخن.

مررت يديها على خديه، ونظر الصياد إلى الفتيات واطمأن حينما وجدهن لا يعطينه بالاً.

-لحيتك غزيرة وغير مهندمة.

انتبه إلى أنه نسى أمر لحيته منذ قدومه إلى شاطئ هذه الجزيرة، أزال يدها برفق وكرر سؤاله:

-ما فائدة ما تفعلون؟

-نصلي هنا عِند نهر «الجلامش» إلى الجد الأعظم، ليعتق أرواح أحبائنا، الذين عادوا له بعد عمر قضوه على أرض الجزيرة.

-زوجك منهم؟

-نعم روحه حلقت إلى الجد منذ فترة.

-مَن هو الجد الأعظم؟

-كيف لا تعرفه؟ وأنت تعيش على أرضه الطاهرة.

اغتم ولم يجد ردًا، فأخبرته أن السماء التي تثبتت منذ عهد مديد، والأرض التي يسير عليها، والنباتات والحيوانات، والشمس والقمر، والهواء، خلقهم الجد الأعظم بطرفة عين في يوم مجهول. ووقفت فجأة، ودارت حول نفسها، ورفعت ساعديها لفوق، وتأمل الصياد قسماتها، وتغنت بصوت عذب:

-الجد الأعظم أعظم من كل شيء، خلقنا وحمانا بسور عظيم من كائنات الظلام التي حاربته، لكن عظمته أبغضتهم وردتهم للوراء، الجد الأعظم أعظم من كل شيء، خلقنا وحمانا بسور عظيم، وتعشش روحه بداخلنا وتُبدد بطهارتها دناسة كائنات الظلام الدفين، الجد الأعظم أعظم من كل

شيء.

عادت وجلست بجانبه، فسألها:

-ومن هي كائنات الظلام؟

لكزته برفق على قدمه، وقالت:

-كف عن الهذيان، كيف لا تعرفهم؟

-قصي علي قصتهم.

-هم سارقون بلا قصة، يحاولون بث الفساد في الجزيرة، ويرغبون في هدم السور وقتل الملك وأسرته، وطمس قصة خلق الجزيرة على يد الجد الأعظم، ويلفون سور الجزيرة من الخارج مثل الذباب، وسيف الجد الأعظم يمقتهم، وينزع منهم القوة، ثم يقيدهم بأغلال من نار، كلما حاولوا فكها، تتجدد وتحرقهم.

-كيف عرفتم قصة الجد الأعظم وعجائبه؟ وهل خلقكم في هذا الكون الفسيح، ليحبسكم في جزيرة صغيرة؟ ويكظم تطلعاتكم؟ وكيف تتحدثون العربية وأنتم منعزلون عن العالم؟ وما هي حادثة الباب العالي؟ ولماذا تركت بيتك باردًا ومظلقا، وكيف وقعت في حب...

وضعت أناملها على فمه، وبللت القماشة من مياه النهر الباردة، ووضعتها على جبينه، فاقشعر، واشتم رائحة عطرها، وأحس بدفئها، ولاصق عينيها السوداء بعينيه، وتفصد عرقًا غزيزًا، كأن مسامه منبعًا لبحر عميق، وفتح فاه ليتحدث، فلحقته:

-توقف، أسئلتك محرمة، وإن وصلت إلى الملك، سيرسلك إلى الموت.

بللت القماشة ووضعتها على رأسه بحنو، وأردفت:

-الجد الأعظم خلق هذه الجزيرة وما فيها منذ ١٠٠ عام وأكثر، ثم صعد إلى السماء، ووعدنا بأن من ينتظم في هذه الحياة القاسية يفوز بحياة أبدية سرمدية. وفي يوم ما ستتوقف بطون الأمهات عن الإنجاب، ويصاب

الرجال بالعقم، ويقل عدد سكان الجزيرة، ويختفون، بعدها يأتي «يوم القمر العظيم»، وتعود فيه الأجساد التي حوت أرواحًا طيبة من المقابر، وترتفع إلى عنان سماء الجد الأعظم، المفعمة بالهدوء والسكينة، بلا ألم، ولا مرض، ولا خذلان، أما الأجساد صاحبة الأرواح الشريرة ستكون سقيمة، ومليئة بالقرح والتعفن، وسيضربهم الجد الأعظم، ويحبسهم في جوف الجزيرة مع كائنات الظلام، فيتعذبون إلى الأبد.

صمت الصياد وحدث نفسه خرافات، مجرد خرافات بالية، هم لا يعرفون الإله الحقيقي، خالق الكون بمن فيه وعليه، الذي ترك لنا مطلق الحرية في تحديد مصيرنا، بدلاً من سجننا في جزيرة معتوهة ومشوبة بالخرافات المجنونة... كاد يندفع بهذه الكلمات إليها، لكنه تدارك موقفه، ومنع اندفاعه، وسألها:

- تتحدثون اللغة العربية ولا تعرفون العالم؟ وما هي حادثة الباب العالي؟

-ما هي اللغة العربية؟

-لما تهربين من حادثة الباب العالي؟

-نقي ذاتك، وجرد عقلك من سكاكين أفكار كائنات الظلام.

-صدقيني الجد، وكائنات الظلام، حدودهم لا تتسع خارج حدود الخيال.

-لا تجافيه هكذا، وتوقف عن إقصاءه من عقلك كي لا تُحبس في أرض اليباب القاحلة.

-ما اسم لغتكم؟

-الكلمات التي نتحدث بها هي نتاج لعمل ضخم، صنعه الجد بعد تأسيسه للجزيرة، فهو لم يغفل بطبيعة الحال تعليمنا نطق الكلمات، للتعبير عن فرحتنا، وأحزاننا، وأوجاعنا، فالكلمات شفاء لأمراض القلب، وعلمنا الكثير من أسس الطب، ومعالجة الأجساد، والهندسة لبناء البيوت، والاقتصاد ليرتاح سكان الجزيرة، وصنع الدواوين واختصاصاتها لتدير كل شيء، ثم

أمر ابنه الملك ببناء مدرسة لتعليم هذه العلوم المختلفة، وما نتكلمه عادة أو نتعلمه يدعى «لغة وعلوم الجد الأعظم».

أزاحت القماشة، وتحسست جبينه، فوجدت حرارته عادت طبيعية، ووضعت القماشة على الأرض، ونظر الصياد للسيدات والفتيات والشموع والورود، ولمح ابنها الصغير يداعب كلبًا، ويقفز حوله في سعادة وبلاهة، فتعثرت قدماه وسقط على الأرض، وضحك وحيا الصياد بيديه، فرد تحيته بوجوم، وسألها:

-لماذا لا تتكلمين عن حادثة الباب العالي، كأنها سر عظيم، من يبوح به تجف روحه، ويموت؟

- لك زوجة؟

-الباب العالي؟

-ماذا تعمل في الجزيرة؟

-الباب العالي؟

-انزع غشاوة عينيك، وكف عن التحدث وكأنك مغاير للقواعد التي تحتم علينا عدم الخوض في مثل هذه النقاشات، أسئلتك تجعلني حائرة بين هل أنت غريب عنا؟ أم أنك حصان سمائي من الأحصنة التي يعتليها الجد الأعظم، وهبطت إلى هنا بأمر منه، لتنقذني من يد الحارس الغليظة، قل لي من أنت؟ ومن أين آتيت؟ ولماذا تحمل عينك السوداء همًا دفينًا دومًا؟

-أنا صياد تاهت مركبته في ظلام الليل البهيم، فسبح بحثًا عن طوق يتعلق به، ليعود إلى الشاطئ من جديد، لكن كان للبحر رغبة مخالفة، وأسبل ستائره السوداء على صفحة حياتي الفتسخة، ونال مني رغم أنني كنت صاغرًا، ودربي معقوف عن منزلة الحظ الوفير، وتشتت في طريقي إلى هنا بين المثابرة والاستسلام، حتى وجدت معالم الجزيرة تتضح من بعيد، رويدًا رويدًا، ووطئت قدمي الجزيرة، فعصفت بي رياحها وكدت

أفقد حياتي، حتى...، حتى قابلتك.

-كلماتك منمقة، ولها سحر خاص، لكنها أقرب إلى درب من دروب الخيال الرحب، لا سكان في هذا الكون الفسيح كما تدعوه أنت، غيرنا، ولا صخب يهز السماء سوى صخبنا.

-الباب العالي؟

وقفت السيدة ونادت ابنها لينصرفا، اهتز قلبه وشعر بالفقد، فوقف وقال بحنو:

-لا تذهبي.

-تعالي معنا، بيتي المظلم الفاتر يحتاج لوعاء مليء بالزيت لينيره ويدفئه، ويفوح منه الحب.

درى الصياد أنا كلماتها تدفعه للعيش معها أمد الدهر، فدنا منها، ووجد الأرض تهتز، وسمع أصوات خيول تقترب من الخلف، التفت ورأى خمسة حراس ينزلون من أحصنتهم، ويتأملون وجوه السيدات والفتيات، وكان معهم حارس يمسك في يده رسمة على ورقة بردي لوجه امرأة، ويمرر نظره على الجميع، ووقف أمامها ودقق نظره فيها، وفي الرسمة، ثم أشار للحراس، لأخذها، أوقفها الصياد خلف ظهره، وصاح بصوت جهوري ليبتعدوا عنه، فاحترمه الحارس لأن ملابسه الملكية تدل على عمله بالبيت العظيم، وأخبره أن ذلك أمر ملكي واجب النفاذ، ولابد وأن يأخذها هي وابنها، فصمت وتراجع للوراء، وسمح للحراس بأخذهما، وذهبوا فوق أحصنتهم.

***

داخل قبو البيت العظيم كان المعظم الصغير يتابع بعينيه سريرًا عليه جثة والده الملك، وبجانبه رجل خمسيني له ذقن بيضاء طويلة، وجسد متناسق، يغترف زيتًا من وعاء فخاري ويوزعه على جثة الملك، وكانت الجثة مائلة للون الأزرق ومتجمدة. ولم يفارق عين المعظم ما قام به أثناء

خطبته الأخيرة، حين جعل ثلاثة ضباط مقربين منه، يحركون جثة والده من نصفها السفلي، ويثبتونها فوق سطح البيت العظيم، دون أن يظهروا، لإقناع السكان أن الملك حَي، وبعد انتهاء الخطبة، أرجعوا الجثة إلى ذلك القبو الفاتر، المفعم برائحة ورد مؤطرة برائحة عطنة خفيفة. انتهى الرجل الخمسيني الذي تظهر عليه الحكمة والورع من دهن جثة الملك بالزيت، ثم قام بزرعها بأعشاب خضراء تُشبه عناقيد العنب الأخضر، وكان لهذه الأعشاب رائحة طيبة مثل النعناع، وبعدها دثر الجثة بأوراق خضراء من النبات العطري المسمى «لقلقي»، وأزال كل النباتات، وأبقى على كينونة الزيت، وقال للمعظم بأدب كأنه يستجير به:

-الزيت والنباتات لن يحفظا الملك أكثر من ذلك يا سيدي.

-الحل؟

-دفنه.

-أنت طبيب خائب العلم، بهت عقلك مع كبر سنك، تفوه بحل غيره.

-علمي وخدمتي أسفل أقدامك يا سيدي، ومعرفتي البليغة في المداواة زهيدة أمام معرفتك، وأقسم بالجد الأعظم أنه لم يعد هناك حل بديل، ولابد من دفن جلالته اليوم.

طرق باب القبو ضابط وقال للمعظم:

-يا سيدي، الصياد يريد الاستشراق بوجهك.

صعد المعظم خمس درجات خشبية، وقال للطبيب قبل أن يخرج:

-تكتم على هذه المعلومة، مثلما تتكتم على مضاجعتك لزوجتك، وأعدّ جثة الملك للدفن.

ذهب المعظم لبهو الطابق الثاني، ووجد الصياد واجفا، ويحرك رأسه في توتر، ويرغب في البوح بأنه قتل حارسا من الحراس، ليعتق المرأة من المسئولية، أو العقاب، ظنا منه أنهم قبضوا عليها لمحاكمتها.

-لمَ تريد مقابلتي؟

-بداخلي شيء فشلت في....

قطع كلامهما دخول ضابط قال للمعظم:

-عثر الحراس على زوجة الناظري وابنه عند المنعطف الشمالي لنهر «الجلامش» يا سيدي.

-جيد، أرسلوهما إليه، وأبلغاه أنني أنتظر تفريغه لكتاب القدماء.

حياه الحارس، وانصرف بأقدام ثقيلة أحدثت صوتًا مرتفعًا على أرضية البهو، وقال المعظم:

-ماذا كنت تقول؟

أزاح بيديه أوهامه، وتيقن أن المرأة التي أنقذها هي زوجة الناظري، ورد بوجه يغالب الوسن:

-متى نبحر إلى الجزيرة القريبة؟

-فجر الغد، فيمَ كنت تريدني؟

-في هذا.

-أذهب وارتح، لأن الإبحار شاق.

انصرف بأقدام ترتجف، وجاهد رغبة عنيفة تزج بحلقه، ليصرخ وينفجر في البيت العظيم، ويصيب جدرانه بالحيرة، والدهشة، والشعور بالفقد والألم، وضربه الصداع بمطرقة من نار حينما دخل إلى حجرته، وألقى بجسده على السرير الوثير، ونام على ظهره، وراجعت أذنه كلمات المرأة الرقيقة عن الجزيرة والجد الأعظم، وأملها المتدثر بالغبطة، والرضا والزهد، في تدابير الجد، رغم ما حدث لها من فواجع، وغط بعد تفكير عميق، في نوم أعمق.

***

مجت الشمس ريقها على الجزيرة، وزعزعت برودة الليل التي تكمن دومًا أسفل ضوء القمر، وتختفي قليلاً عند بزوغ الشمس. وداخل بيت جديد وأنيق، يسيطر على مساحة رحبة شرق جبل «الفراديس» الشاهق، أراح الناظري جسده وعقله من شذب التخيلات السوداوية، التي رأى فيها زوجته وابنه طعامًا يبدد رمق «الجراكو»، أو الكائنات البوهيمية التي نفذت من بوابة القدماء، قبل إغلاقها، وشرد بذهنه طويلاً، فجافاه الصبر، ووقع في سبي الوهن والاضطراب داخل قلعة أسوارها تخترق السماء. وطرق باب بيته ثلاث مرات فلم ينتبه، وانتبه في المرة الرابعة، ففتح متثاقلاً، وخفق قلبه لما شاهد زوجته وابنه، وخلفهما خمسة حراس وضابط، وقال له الضباط كلمات منمقة بأدب لم يدركها انشغالاً ببشاشة وجه ابنه الأسمر، وعين زوجته السوداء، التي لم تكن تصدق أن زوجها على قيد الحياة، أدخلهما وأغلق الباب في وجه الضابط، واحتضنهما فذرفت زوجته دموعًا عميقة، وبكى ابنه، ونام، فرفعه الناظري على منكبه، وأرخاه على سرير صغير في حجرة تتفرع من بهو البيت الواسع، الذي تتفرع منه ثلاث حجرات، وكان ينير المكان أربعة أوعية معلقة فوق قطع خشبية، تخرج من الجدار، أطفأهم الناظري لأن نور الصباح اقترب، وأخذ زوجته، وجلسا على أريكة البهو التي تسع لأربعة أشخاص، وكان أمامها طاولة عليها فواكه مجففة ونبيذ قان.

-وجهك وملابسك البسيطة يحدثونني بما احتملتِه وحدك.

-لقد فقدت الكثير.

أحاط رقبتها بساعده الأيمن، وضمها لصدره، واشتم رائحة شعرها، ونام على ظهره وسحبها، فنامت على صدره.

-صدقيني لم ألمس غيرك من النساء كما نعتوني أمام الجميع بعد حادثة الباب العالي، وصفعوني بمصير داكن سوّد حياتي.

-كيف عدت؟ ظننتك أصبحت روثًا خرج من معدة «الجراكو».

قص لها ما دونته ذاكرته خلال عام كامل بعد قبض الحراس عليه من بيتهم القديم، ثم وضعوه مُكبل بالأغلال في السجن، وعزلوه عن باقي المساجين، وأخبروا الناس بأنه بات وجبة شهية «للجراكو». واختلسوا ممتلكاته، واتهمه الحاكم الثالث علنًا بخيانة الملك، والتآمر مع «رفيدة» كبيرة خادمات البيت العظيم، وبعض الخونة للإطاحة بحكم الملك، وقدم للملك أوراقًا باطلة تدينه دون دليل مادي واحد، وصدق الملك على قرار عزله من رتبة حامي الجزيرة وإعدامه، ودارت أمور لم يفهمها الناظري، انتهت بإخفائه في قبو السجن، وتشديد الرقابة عليه، وعدم الإفصاح بأنه مازال حيًا، استمعت بحزن، ثم قالت:

-غمرتني الدواهي، وزوى عودي، ولدغني أقاربي، وأقاربك، بسُم التخلي عنا، وقالوا لي يكفي ما فعله زوجك وطمس وجوهنا في الوحل، ظللت أبحث عن سبيل يساعدني في طرد المشقات، فوجدت نفسي مُعينًا لنفسي.

-صرخت أيامًا كثيرة في سجني، وضربت نفسي كالنساء حينما يفقدن أحباءهن، كنت حصانًا ضائعًا بلا فارس، وسيفًا مُلطخًا بدماء صاحبه الذي مات في معركة بائسة، لم يسمعني أحد، ولم يصدقني الجميع، لكن يقين عودتي إليكما سالمًا في يوم ما، كان نوري وسط اليباب.

-عدني بأنك لن تذهب، وتشملني أنا وابنك أسفل جناحيك.

-أعدك أن الأيام القادمة ستكون نورًا وخلاصًا من الآلام.

بكت وأخرجت في الدموع ما كبّل وجدانها الكسير خلال الأيام الماضية، فوقف وضمها إلى صدره، ولثمها بقبلات في رأسها وشعرها، وسحبها من يدها إلى حمام البيت، وأغلق بابه من الداخل بالمزلاج، ونزع ثوبها الأسود، ورباط شعرها، وخلع ملابسه، وجلس على كرسي خشبي، بجانبه وعاء فخار كبير مليء بماء ساخن، يهرب منه البخار، واغترف الماء بيديه، وغسل جسدها بحنو، وكانت هي تكافح الوسن، وتفتح عينيها بصعوبة،

ولولا ساعده الأيسر الذي وضعه خلف ظهرها، لسقطت من نقرات أنامل التعب فوق رأسها. وأمسك قماشة قطن كبيرة جفف بها جسدها الأسمر البدين، وألبسها ثوبًا قطنيًا أبيض مؤطرًا باللون الذهبي عند الحواف، ورفعها بساعديه، ودخل إلى حجرة نومهما وأغلق بابها، ووضع زوجته على السرير، وقال:

-انزعي من هذه اللحظة دثار التعب، وانتحي عن كل ما يؤذيكِ، وأخرجي من عقلك كلام الناس الممجوج في نزاهتي، وثقي أن الحاكم الثالث سيدفع تكلفة ما مررنا به.

جاهدت كي لا تغلق عينيها وتأملت قامته متوسطة الطول ونحافته، وجذبته بيديها، فدنا منها واعتلاها، ولثم مناطق مختلفة في جسدها بقبلات عميقة، وخلع ثوبه وثوبها، وأبحر في شحمها باشتياق شديد، تجلى في تأوهاتها.

***

قبل ذلك في وقت الفجر، أيقظ المُعظم الصياد، وأعطاه رداء ثقيلًا له قلنسوة حمراء، وغمدًا وسيفًا، وقال:

-ارتدِ الثوب، ودس رأسك في القلنسوة، واستعد، سوف نتحرك أنا وأنت أولاً، ثم تتبعنا القوات الملكية.

ارتدى المعظم نفس الثوب وكان له مهابة غريبة وهو يخفي رأسه بالقلنسوة، وانصرفا بعد لحظات بسيطة، وركبا حصانين كانا أسفل الجبل، وركضا بعجالة، وسأل الصياد المعظم إلى أين يتجهان، فسبقه بحصانه، واضطر الصياد لمجاراته، حتى وصلا إلى التلة التي يعتليها «الجراكو»، ونزل المعظم من الحصان، وترقب نزوح الحراس والضباط ناحيته، ونظر حوله، وتأكد من ثبات الحراس في الأبراج الخشبية التي تغطي حواف الجزيرة كلها. وانتزع أذنه صوت أقدام الحراس والضباط وهم يقتربون منه، وشاهد الحماس يقفز من عيونهم، واقترب ضابط أربعيني له وجه

نحيف منه، وقال بحزم:

-مستعدون يا سيدي.

-نفذ.

صعد الضابط وخلفه القوات الملكية، وانتشر الجميع على التلة وخرجوا عن دائرة رؤية المعظم والصياد، وكانت حلكة الليل تحتجب، والديكة تنتحب مثل النساء، وصفحة السماء تُنير بمرور الثواني، وداهم المعظم صوت صفارة، فسحب الصياد بإشارة، وصعدا على ممر حجري في التلة له درابزين خشبي، وخفق قلب الصياد حتى كاد ينفجر لأنهما اقتربا من كهف «الجراكو»، وعاين الصياد ما فوق التلة من كهف ضخم بثلاثة مداخل مغلقة بأبواب حديد، وبها أقفال من نفس المادة، وتنزوي بعيدًا في أركان صغيرة ناحية اليمين، وكانت المخارج مجوفة للداخل، وتغرق في غسق فاحش الاسوداد، وتفرق الحراس إلى أربعة فرق، وقال الضابط الأربعيني للمعظم:

-الجراكو يغط في سبات.

-ضع الفرقة الأولى بالأسفل، وفرقها بالشباك المدججة بالخوازيق الحديدية، وثبت الفرقة الثانية، والثالثة، هنا أمام المخارج، والرابعة ستتبعني بالمؤن، والطعام والمياه، إلى مسافة بعيدة، وانتظر إشارتي للبدء.

ذهب الضابط محملًا بالتعليمات، وأمر الحراس بالترتيب مثلما طلب ابن الملك. ونزل المعظم و«تومكس»، والفرقة الرابعة، مبتعدين عن التلة بمسافة تسمح برؤية سلسة. وكان حراس الفرقة الرابعة يحملون حقائب جلدية مليئة بالطعام، والماء، والسيوف، والأسهم والأقواس، بالإضافة لقوارب صغيرة بطول ذراع إنسان بالغ، استعجب «تومكس» من أمرها، ولم يرغب أن يسأل المعظم، لأنه غارق في تخيلات عميقة وشارد الذهن، واختبأ الاثنان، والفرقة الرابعة داخل خندق واسع بالأرض، وحوله صخور ضخمة، ويعتليه سطح من أعمدة الحديد، وبين كل عمود والثاني مسافة

تسمح بالرؤية الواضحة. وانتظر الضابط من فوق التلة إشارة المعظم الذي رفع ساعده، وكور يديه وهز رأسه، فتحرك الضابط وخلفه أربعة حراس يحملون جوال مغلق، وفتحوه، وأخرجوا جثة لرجل، فشل الصياد في مطالعة ملامحه، ووضع الحراس الجثة أمام المداخل دون إحداث ضجيج، وتراجعوا للخلف، ودنا الشروق من الجزيرة، فبانت نورانيته مقبولة في السماء، وتقهقر القمر للوراء كمصابي المعارك، ودوى صوت «الجراكو» العنيف في الأرجاء، فوضع الجميع أياديهم على آذانهم، وارتاعت القلوب، وكان الصياد يرقب بعين راسخة ظهور ذلك الوحش، ثم اختفى صوته الشبيه بعواء الذئاب، وظل الكل ثابتا بأقدام مرتعشة، وأخرج «الجراكو» يديه وكانت حمراء، من المخرج الثالث، وسحب الجثة ببطء مثل سارق يهابه الناس، فيفعل ما يحلو له بالنهار والليل، وصاح الضابط:

-أنزلوه الآن.

صرخ الحراس في حماس، وأنزلوا سيفًا ضخمًا بطول مترين، وله يد خشبية كان يمسكها ستة حراس، وقطعوا يد «الجراكو»، تأوه «الجراكو» وكادت حنجرته تنفجر لشدة صوته، وتألمت القوات من صراخه، لكن حماسهم وضع سدودًا منعت تدفق الصوت إلى آذانهم، ورفع الحراس السيف لفوق، فأخرج «الجراكو» يده الثانية، وأمسك بالجثة في عناد وسحبها للداخل، ثم أمسك بذراعه المقطوع، والدماء كانت تنفجر منه وثغرق ما أسفلها، فأنزل الحراس السيف على ذراعه الثاني، وقطعوه مما جعل النزيف يزداد، وقفز في الكهف، وصدم رأسه في السقف من شدة ما انزل عليه من آلم، فتهاوت عليه صخور صغيرة، وخرجت فرقة من الحراس وأطلقوا عليه أسهم كثيرة، أصابت جسده في مناطق متفرقة، وكان جلده سميكًا والأسهم لا تسكن فيه بسهولة، وهرب للداخل وصوته يزداد فُجرًا، واستيقظ السكان القريبون من التلة، وخرجوا من بيوتهم الخشبية، فوجدوا الحراس يمنعونهم من الخروج، ويجبرونهم على إغلاق الأبواب والنوافذ، وإلا خضعوا لسجن الملك، وسأل الصياد المعظم:

-لما قطعتم يديه، بدلاً مِن قتله؟

-لأن قوته في يديه، يجري ويأكل ويقتل بهما، وقتله بالأسهم والسيوف قبل قطع يديه كان مُستحيلاً.

وخرج المعظم من الخندق وجرى إلى التلة وأمر الفرقة الثانية والثالثة بالجري وراء «الجراكو» وقتله، وفتح لهم الضابط الأربعيني المنافذ الثلاثة فعبروا منها، وركض وراءهم المعظم، وأشار للفرقة الرابعة بالانتظار في الخندق، ولم يجد الصياد مفرًا سوى بالركض وراءه، وكان الكهف مظلمًا ورغم أن الشمس أشرقت بنور قوي، إلا أنه لم يدخل الكهف، وأشعل الحراس مشاعل معهم وأنار ضوؤها الكهف، وركضوا وراء «الجراكو» الذي كان يصرخ ويختفي في الظلام. واستعجب الصياد وهو يركض من ضخامة الكهف ومنافذه الثلاثة، وعلو سقفه الصخري، واشتم رائحة قذرة، فوضع يده على أنفه، ورأى على يمينه عظام وجماجم، ولحوم بشرية متعفنة ينهشها الدود، وكانت هناك بعض الهياكل العظمية المعلقة في سقف الكهف، والذباب يضاجعها بنشوة، وكانت أرض الكهف صخرية ومليئة بحفر صغيرة وحصى وزلط. وقف ليلتقط أنفاسه، واستند بجذعه على صخرة كبيرة، وتفصد عرقًا كثيفًا خنقه، وجعله يشعر أن روحه تُسحب، ووجد المشاعل تبتعد عنه فعاد للركض. وهدأت رائحة الكهف القذرة، بعد ابتعاده عن بدايات الكهف، وضاق المكان بالجميع وهبطوا في طريق شديد الانحدار، ومليء بالحصى ولونه أسود قاتم، وجرى عليه الجميع، ولم يسقطوا، وتماسك الصياد كي لا يتعثر، وتنفس بصعوبة، وجف حلقه، فالتصق لسانه بفمه وأسنانه، لكنه غالبهم وفتح فاه ليتنفس، وقل الهواء، وضرب المكان حر شديد، وعرقت الأجساد، وخفقت القلوب، وبدأ نور المشاعل يقل تدريجيًا وتباخست الطاقة داخل الكل، وضرب اليأس الصياد فأعطى أطرافه أمرًا لتتوقف تدريجيًا عن الحركة، واختفى صوت «الجراكو»، ونظر «تومكس» حوله، فلم يتبين وجهًا يعرفه، كأن الحراس والضباط أصبحوا بوجه واحد غريب الملامح، واضطرمت رائحة العرق في كل شيء، فزاد اختناق الصياد وتقززه، وانفرج قليلاً عندما وجد

أن نهاية المنحدر تقترب، وفجأة وقف الكل كأن القيامة قامت، واعتلت وجوههم علامات كثيرة بين الخوف والذعر والترقب، ورأى الصياد بعين مشوشة «الجراكو» يقف أمامهم وملامحه واضحة على ضوء المشاعل الصفراء، كان طوله يصل إلى مترين، وعرضه متر ونصف، وجسده أحمر قان، ورأسه مستديرة وتحوي عينين كبيرتين لونهما أسود، وشرخين أسفل عينيه يتنفس منهما، وأسنانًا طويلة مثلثة. ويداه مقطوعتان وتتدفق منهما الدماء، وله ذيل قصير لا يحتك بالأرض، وكان جسده يتدثر بشعر أسود يغطي ثدييه الضخام، ومعدته الكبيرة التي تتدلى منه، كأنها ستسقط، وعضوه الذكري. وفتح فمه وصرخ وخرجت من فمه رائحة تحلل الأجساد التي أكلها، وركض باتجاه القوات وضرب بعضًا منها بقدمه. وصاح صوت مفيز وعال:

-اقتلوه، لا تخافوا.

وتبين الصياد أنه صوت المعظم، فتأججت الحماسة في الجميع، وظهرت فرقة من رماة الأسهم، وأطلقوا أسهمًا مشتعلة عليه، وانتشرت الأدخنة داخل المكان، وابتعد الصياد، وصعد على المنحدر مبتعدًا عن الساحة التي يتعارك فيها الجميع مع «الجراكو» الوحيد، وكان غير قادر على الدفاع عن جبروته لأن ذراعيه قُطعا، وتبخرت طاقته، مثل نهر طويل كان يروي بلادًا كثيرة، وتغوص في أعماقه التماسيح، فجف وماتت تماسيحه، والبلاد التي حوله، من الظمأ. وقفز «الجراكو» على عدد من الحراس وقضم بأسنانه بعضهم، ولم ترحمه الأسهم، وهاجمه عدد كبير من الضباط، كان المعظم في مقدمتهم، ولم يجد «الجراكو» شاطئًا يلجأ إليه من طغمات القوات، فخرج من ثقب كان يختفي وراء ضخامته، وظهر نور الشمس من ذلك الثقب الكبير الذي توسعت مساحته، بعدما هرب منه وتبعه الجميع، وصاح المعظم بضرورة قتله، ودلف هواء فاتر من الثقب، فأنعش جسد الصياد الغارق في العرق، وجدد روحه وطاقته، ونحى القنوط جانبًا، وقام بجذعه وركض، وخرج، فكان أمامه البحر والسماء، وجزيرة صغيرة جدًا تبتعد عنه، ووقف على رصيف صخري ضخم وواسع يخرج من الكهف، ويلف

المكان حوله، ولاحظ أن مياه البحر التي بأسفل قدمه، عميقة، والتفت خلفه فرأى الثقب الذي خرجه منه مزروع في حائط صخري ضخم، وطويل، يصل إلى أكثر من عشرين مترًا، وكان الهواء قويًا ويرتطم في جسده. ووقف الضباط والحراس على الرصيف الصخري يتابعون هروب «الجراكو» في المياه، وكان يسبح بقدميه وصدره الضخم، بمهارة، والدماء تتسال منه، وتلوث مياه البحر باللون الأحمر، وصاح المعظم:

-أطلقوا عليه الأسهم.

فوقفت فرقة من عشرين حارسًا، وأطلقوا عليه أسهمًا كثيرة حجبت ضوء الشمس، وكان بعضها يصيب جلد «الجراكو» السميك، وبعضها لا يقترب منه، فيصرخ من الألم ويكمل السباحة، وبسرعة عظيمة وصل إلى الجزيرة القريبة، واصطدم بالسفن الخشبية الستة، والضخمة، الراسية على الشاطئ، وقفز عليها، وهشم نصفها، واستمر في زحفه، ووصل إلى أرض الجزيرة جثة هامدة بلا حراك، صمت الكل، حتى المعظم كان يتابع بعينيه بلا كلام، وظل «الجراكو» ثابتًا، وفجأة وثب وصرخ بصوت غليظ من قوته اقتلعت بعض أشجار الجزيرة اليافعة، ثم انفجرت معدته، وتكاثرت دماؤه على المياه والأرض، وسقط. تنفس الصياد الصعداء، والتقط بعض الطاقة من صوت البحر المحبب لقلبه، وانفرجت أساريره من رائحة اليود التي يعشقها منذ عهد مديد. وأمر المعظم عشرة من الحراس السباحين بالذهاب إلى الجزيرة، وحصر السفن السليمة والمهدمة، والتأكد من مقتل «الجراكو»، فخلع الحراس ملابسهم، وقفزوا في المياه وسبحوا، ولما وصلوا، اقترب ثلاثة من «الجراكو»، وسحب واحد منهم سيفًا طويلًا، وضرب الوحش الأحمر، فلم يتحرك، ودرى المعظم أن الأسطورة انتهت. وصعد الحراس على متن السفن وتأكدوا من عدم قدرة نصفها على الإبحار، ثم قسموا أنفسهم على ثلاث سفن، واقتربوا من الرصيف الصخري، وصعد المعظم على واحدة من السفن، وعلم من الحراس أن هناك ثلاث سفن لن يبحروا، وانزوى المعظم يفكر في هذه الكبوة، وكيف يضع هذه الأعداد من الحراس والضباط والأطعمة والأسلحة والقوارب

الصغيرة في ثلاثة سفن فقط، وكان غضبه وحيرته يدفعانه ناحية سماء بلا شمس ولا قمر.

***

ليلاً عَبر أمواج الظلام المُتتابعة على الجزيرة، صَرفت الملكة الضباط والحراس الذين يحفون الجبل، والبيت العظيم، إلى أسفل الجبل، والتحفت بالصمت المُقبب باليباب والأسى، وسارت خارج البيت العظيم تسبقها تاليا، وتحمل صندوقًا مصنوعًا من الذهب، يكتنف جثة الملك التي نحلها الموت، وماع لونها بين الأزرق والأسود، وعاونها على حمل الصندوق ثلاث فتيات من تنظيم «اليد المطهرة»، يرتدين ملابس خدم البيت العظيم البيضاء الطويلة، وكانت ابنة الملكة تسير بجسد يعتليه الوهن، وحفرت فيه النحافة علاماتٍ صَريحة، وتقوس ظهرها قليلاً، وانسلخ وجهها ونضب ماؤه العذب، وتشققت أرضه، وكساه لون أصفر مرير، ولم تسعفها أقدامها للسير، فكانت ترتجف وتترنح مثل السكارى، وضحايا الظمأ في الصحاري الحارقة. انتبهت لها الملكة فتأبطت يدها اليمنى وعاونتها على الحركة، وانحدرت تاليا والثلاث الفتيات بالصندوق من ممر سري يتواري خلف البيت العظيم، وينتهي بأرض محاطة بسور صخري كبير، وأوعية تُنير المكان، وتضم هذه الأرض جثث العائلة الملكية منذ زمن، وأنهت تاليا الممر، وخلفها الملكة وابنتها، وعبروا من بوابة السور الصخري، بعدما فتحت تاليا مزلاجها، وعاينت الملكة القبر الملكي، فكانت أرضه مربعة وواسعة، ومليئا بالشواهد الصخرية المدون عليها أسماء الموتى. أنزلت تاليا الصندوق على الأرض ونظرت للمكلة، فأمرتها دون كلام، بدفن جثة الملك عند الشاهد الأخير المدون عليه «جلالة الملك، حفيد الجد الأعظم»، ففتحت تاليا الصندوق وحملت جثة الملك بمعاونة الفتيات، واقتربوا من الشاهد، فانفلتت منهم تاليا، وسحبت بابًا حديذا أسفل الشاهد مباشرة، وكان مجوفًا لداخل الأرض وله سلم صخري يندرج للأسفل، نزلت عليه تاليا وخلفها الفتيات، مرت دقائق بسيطة عادت بعدها تاليا بمفردها، ودنت من الملكة، وقالت:

-وضعنا جثة جلالته في مكانها المخصص يا مولاتي.

-ليعلم الجد الأعظم أنني كنت أرغب في عمل جنازة ودفنه ملكية تليق بجلالة الملك، ولكن لحماية الجزيرة أحكام، انتهي من الدفن وبعدها أخبري الضباط والحراس بالعودة لأماكنهم، وتشديد حماية الجزيرة والمناطق الحساسة.

انصرفت الملكة وابنتها، وعادت تاليا لمكان دفن الملك، وخاضت الملكة بعينيها الثاقبة في جسد ابنتها، وقالت:

-آلت إلينا بلايا جمة مَرَ بعضها، وما زال باقيها، فلا تحملي روحك ذنبًا سيغفره لكِ الجد الأعظم، وأسبلي عقلك ليرتاح من منحدرات التفكير الخسيسة، جسدك أشبه بأجساد الموتى يا فتاتي.

تفوهت بالصمت، وعطب لسانها عن الحديث، وانتحت برغبتها في الموت عن كلام والدتها المفعم بالصدق والنصيحة الجليلة، وبكت ألمًا من وداع والدها، وما فعله «الغازل» حين سلمت له أرضها، بلا مقايضة أو ثمن، فعاث فيها فساده، ومات ضحيته. وأردفت الملكة:

-الخدم أعدوا لنا مائدة بسيطة بناءً على رغبتي، ستأكلين معي لنتحدث بعدها في أمور هامة، وأرجو أن تتخلي عن حزنك وقلة طعامك. صحيح الخدم يقولون لي أنك تأكلين نصف رغيف في اليوم، مما لا يتوافق مع حاجة جسدك اليومية للطعام المناسب.

-معدتي مُجهدة جدًا، ولا تشتاق نفسي للطعام.

كظمت الملكة سؤالًا ملحًا عن ملامسة الغازل لرحمها، ومنعت لسانها من إخبار ابنتها أن الغازل قبل قتله، قال لتاليا إنه مدفوع من الحاكم الثالث، ليضع رأس الملك في الوحل، ويبدد وقار الأسرة الحاكمة.

-سأبعث بطلب طبيب البيت العظيم، ليطمئن عليكِ، وأعدك بعودة شهيتك بعد زيارته.

-أتمنى.

دخلت الملكة للبيت العظيم، وأوصلت ابنتها لحجرتها، وأرسلت لطلب الطبيب، الذي حاول الحفاظ على جثة الملك بقدر المستطاع من التعفن.

***

في الهزيع الأول من الليل جاء الطبيب بعينين تُحاربان الوسن، وهو يرتدي ثوبًا كتانيًا حوافه مؤطرة بالأسود، وطلبت الملكة أن يطمئن على صحة المُعظمة الصغيرة، ثم طرقت حجرتها، ودخلت قَبله، وقالت لابنتها إن الطبيب جاء، ثم أمرته بالدخول، ورأى الطبيب شحوب وجهها ونحافة جسدها، وعلم بالأعراض التي تظهر عليها، فأخرج من حقيبة جلد كانت تتعلق على منكبه الأيمن، وعاء فخار صغير، وصب فيه ماءً عذبًا، وأذاب عليه زهرة مجففة، وطلب من المعظمة الصغيرة تَجرُّع الماء، تجرعته على مضض، ووثبت وتقيأت الماء، فقال لها:

-أرخي جسدك على السرير.

نامت على ظهرها، وعلا صوت شخيرها بعد وقت قليل، وقال الطبيب للملكة بأدب:

-المعظمة تعاني من إجهاد شديد لأنها لا تأكل، وتحمل في أحشائها مولودًا، مما يزيد من إجهادها.

توقعت الملكة ما قاله الطبيب، وخالفت اعتقاده بأنها ستصاب بالدهشة، وأظهرت ثباتًا غريبًا على وجهها، وأمرته بالتكتم على ما عرفه، ثم صَرفته، وجلست في بهو الطابق الثاني، وعقلها يجوس، ليجد حلاً.

***

الفصل الثالث عشر

انبلج الصباح كئيبًا، وشدا هواء شهر نوفمبر البارد، بالحزن، عندما ارتطم

بوجدان الإسكندرية المُعذب من ويلات الحرب، ونوائب توابعها. وانغمرت الأقدام في الشوارع بحثًا عن الرزق، وتفوهت الألسنة بتخوفات مَريرة من المعارك القاسية التي تقع في ميدان الحرب العالمية الثانية، والهجرات الدؤوبة من سكان الإسكندرية إلى المحافظات والقرى القريبة، فزعًا من الغارات المُتقطعة... وقد قامت قوات فرنسا الحرة بمعركة الجابون، وحاربت قوات فيشي الفرنسية، واستطاعت ضم مستعمرة الجابون أسفل ذراعيها، ومواظبة معاركها مُخاصمة في دول المحور. ومنذ خمسة أيام تحديدًا في ١١ نوفمبر، وقعت معركة بحرية بين الأسطول البريطاني، والأسطولين الإيطالي والفرنسي الفيشي، واستطاع الأسطول البريطاني فرض سيطرته وهزمهما، في معركة عرفت باسم «تارانتو». وقبل هذه المعركة بيوم واحد، ضرب زلزال قوي منطقة فيرجينيا في رومانيا، وقتل أكثر من ألف شخص، وترك آثارًا نفسية ومادية قاسية. وبين أوزار الحرب والكوارث الطبيعية، كانت «سماح» لا تتحدث مع مرعي، في مُجاهرة صريحة، لرفضها عمله في البحر، فكانت تضع لهُ الطعام في الصالة أثناء عودته ليلاً، وتدلف بأقدام خفيفة إلى غرفتها، وتغلق بابها، وبدوره كان يبتاع أدويتها ويضعها فوق طاولة داخل غرفتها، وينسحب بوجه كظيم. واستمر ذلك الأمر عدة أيام، خاب خلالهم مرعي من إيجاد وسيلة، يصدع بها حاجز الصمت الذي يقف حائلاً بينهما. وقد لاحظ أن جسد والدته توقف عن نزوحه ناحية النحافة، وثبت عِند وزن مُعين، ولكنها ما زالت تتقيأ مرتين على الأقل يوميًا، والهالات السوداء كما هي تترنح أسفل عينيها... وأظهر حميدو وجهًا سوداويًا غير مألوف لسكان حارة اليهود، حيث وقف أسفل نافذة شقة الصياد ووبخ سكان البيت، وأخبرهم أنهم مطرودون منه، وأمامهم ثلاثة أيام فقط، ليرحلوا، ومَن يَرفض يتعرض لرأسه الشرسة، والأرذال من رجاله، ولن تحميهم سلطة ولا قانون، ارتجف السكان، ولم يقدروا على الخروج من البيت، حتى رحل حميدو وجلس في القهوة يكركر الشيشة، ويتابع بغيظ وحنق سكان البيت وهم يرحلون من بابه الخشبي العتيق، إلى الحارة، ويتلفتون حولهم بحثًا عنه. وعاد مرعي ليلاً وجلس في الصالة يُريح قدمه من الإرهاق، وجلبت له سماح طبق أرز،

وطبق فاصوليا خضراء تغطيها الصلصة، ووضعتهما على طاولة خشبية بجانبه، وقالت:

-سنرحل خلال ثلاثة أيام.

رفع عينيه ناحيتها وانتبه إلى دموعها، وشحوب وجهها، واندهاشه لأنها كلمته بعد مقاطعة طويلة، كانت الأولى من نوعها منذ ولادته.

-لمَ؟

-إرادة الله.

-الله لا يرضى بالهوان، هي إرادة حميدو.

-سنرتدي الهوان حقًا، إن عارضنا رغبته يا مرعي.

-عم دسوقي أخبرني بما فعله حميدو، وأوصاني بتنفيذ أمره، لكن إن فعلت، إلى أين نذهب؟ ما أحصل عليه من بيع السمك يكفي دواءك، وطعامنا الشحيح، والقليل من السكر والشاي والقهوة، ولولا أن هذه الشقة ملك والدي، لكنا تشاجرنا مع مُشردي الحارة لننام مكانهم.

-نوفر ثمن علاجي لمدة شهر، ونؤجر شقة رخيصة في منطقة القلعة.

-ولمَ لا نظل مكاننا، ويذهب حميدو إلى الجحيم؟

اغتاظت من نبرته الهجومية، وانفعاله، فصاحت به:

-أنت أهوج، ولا تدري عواقب تحدي رأسه الشيطانية.

-لتلك الرأس، رقبة، وللرقبة جلد يمكن قطعه بسكينة، وما أسهل من قتله بالرصاص.

-وتتحول من مراهق يسعى لكسب رزقه، إلى قاتل فتوة الحارة وحاميها؟

-حاميها لا يطرد حاميته يا أمي، وأنا لن أرحل.

رفعت ساعديها وضربت رأسها ووجهها ورأسها، وتعالت أصوات الضرب فأغضبت مرعي، فصرخ وزعق، وضرب الأرض بقدمه، وسقط على الأريكة وبكى، فتوسدت صدره، وزملته في البكاء والعويل، واستعطفته بحنو:

-أرجوك ارحل معي، ونترك الحارة لحميدو، والإسكندرية كلها.

-لن أترك إرث والدي يا أمي.

-لا فائدة من إرثه المؤطر بالخطر.

ضجت الحارة بضجيج صرخات فتيات، وصوت تكسير أثاث منزلي وزجاج، وهرولت سماح إلى الشباك واستندت عليه، ورأت حميدو يخرج من بيت بدرية التبع والغضب يَعتلي وجهه، ومعدته الكبيرة تهتز، ويمسك نبوته بيده اليسرى، ويجذب باليمنى فتاة من شعرها، كانت ترتدي قميص نوم شفاف، ينجاب من أسفله مكمنها، ولها بشرة بيضاء، وجسد متناسق، وتصرخ استنجاذا برجال الحارة الذين هرولوا داخل بيوتهم ودكاكينهم، خوفًا من بطش حميدو، ورمى حميدو الفتاة في نصف الحارة، وزعق:

-من الآن لن يجوب هذا البيت رجل، إلا ياذني يا حارة النسوان.

وركض رجاله إلى بيت بدرية المكون من طابقين، ولهُ مدخل أنيق، وأخرجوا خمسة رجال بالضرب والسب، وألقوا بآثاث بيت بدرية من شباك الطابق الأول والثاني، وصفعوا فتياتها على وجوههن وعجائزهن، ثم نزلوا وأغلقوا بوابة البيت، بجنزير حديد، ولوحوا لسكان الحارة الواقفين في الشبابيك، والمشربيات بالنبابيت، تهديدًا ووعيدًا. وجلسوا مع حميدو في القهوة، وكانت ضحكاتهم عالية جدًا. واستندت الفتاة التي رماها حميدو في الحارة، على جذعها ووقفت بصعوبة، وجلست بالقرب من الباب، وظلت تبكي، وتنتحب، وترتجف من البرد، وتضع يديها على منكبيها لتدفئتهما، ونهشها رجال الحارة بعيونهم، ودنت منها سيدة في العقد السادس، معها ملاءة ووضعتها عليها، وانصرفت بسرعة كي لا يراها الناس، ويعيبونها بالكلام.

وقال «شنديلي» بصوت عالٍ سمعه الجميع:

-اليوم بيت بدرية مجاني للكل.

فضحك حميدو وهو يقلب الفحم، ويضع فيه قطعة حشيش صغيرة. وجاءت بدرية بعد ساعة من الواقعة، ووقفت أمام حميدو بكبرياء وجسدها يهتز، وقالت:

- مفتاح الجنزير يا حميدو؟

دس يديه في جيب جلبابه الأسود، وألقى لها بالمفتاح على دبش الأرض الأبيض، فمالت بجذعها والتقطته، وأزالت الجنزير من البوابة، وأدخلت الفتاة، وقالت بصوت عالٍ وصل لحميدو:

-أوانك قرب يا ابن الأبالسة.

-عاهرة تتوقع أواني، وتتخطى معرفة الله بعمري المديد، كيف أصدقها؟

انفجر رجاله في الضحك، ووثب شنديلي بعين حمراء غاضبة ناحيتها بمطواة قرن غزال، فأجلسه حميدو:

-أسلحتنا لا تداعب أجساد النساء، لا تتعجل نهايتها الوشيكة.

ودخلت بدرية إلى بيتها وأغلقت بوابته، وقالت:

-سأريك قدرة العاهرة.

***

أغلقت سماح الشباك ونظرت لمرعي، فهرب بعينيه إلى الأرض، فقالت:

-سطوة حميدو طالت بدرية وعلاقاتها الخطيرة، فما بالك بما سيفعله فينا ونحن بلا ثمن، ولا رقيب؟ أنت ظَهري يا مرعي، وعوض الله لي بعدما فقدت أباك، أرجوك، أرجوك كن حكيمًا واتبعني، فلا أفقدك، وتغوص في وحل من الظلَمات.

-حاضر يا أمي.

لفت ساعدها على كتفه، وقبلت رأسه، وأردفت:

-اشترِ لنا خمس كراتين كبيرة لنضع فيها الأواني، والأكواب، ومحتويات المطبخ، والملابس سأضعها في الحقيبة الجلدية الضخمة، وأطلب من عم زكريا المكاري أن يوصلنا بعربته الخشبية إلى منطقة القلعة، فهو يدين لوالدك بثلاثين قرشًا، اقترضهم منذ شهر ونصف لأن زوجته كانت مريضة، ولم يرجعهم.

-طيب.

***

على الجهة المقابلة للبحر في منطقة مهجورة بها الكثير من السفن الخربة، والتي تعشش فيها الحشرات، والعقارب، والقليل من الفئران، وتنام الكلاب أسفل حوافها الصدئة، ارتفع صوت ارتطام المياه في صخور الشاطئ المظلل بموجات الظلام، وجلس حارس شاب بجلباب رمادي وشارب طويل عِند مخزن ضخم من طابق واحد، به مدخل مغلق بباب خشب ضخم، وفي منتصفه مزلاج نحاس مربوط بجنزير، وينتهي بقفل ضخم، وكان يلوك الشاب «ذرة مشوي» ببطء، ويتألم، ويدخل إصبع السبابة في فمه، ويمرره على ضروسه، وينزع منها شذرات الذرة الصغيرة، ووجد بعد أكله للذرة ضرسه ينزف، فقال بلهجة صعيدية:

-ضرس مهبب.

ووثب من كرسيه لأنه سمع فحيح أقدام يتحرك خلفه في الظلام الدامس، اقترب بأقدام مرتجفة خائفًا من ثنايا الظلام، وصوت أمواج البحر يفزعه، واصطدمت رأسه فجأة بنبوت قوي، فسقط فاقدًا للوعي على الأرض، وماعت رأسه في الدماء، ونبت من الظلام فجأة رجال ملثمو الوجوه، ويرتدون سراويل قماش، ومعاطف صوف، وبعضهم يمسك بالنبابيت، والباقي بأسلحة بيضاء وبنادق، وسحب ملثم منهم جسد

الحارس ووضعه مع خمسة حراس، فوق رصيف يتوارى خلف المخزن، وربطهم بحبل سميك، وكمم أفواههم بقماش بالي، وأوقف أمامهم ملثمًا ضخم الجثة، أشهَر في وجوههم بندقية «إم جراند ١». واتجه الباقي إلى باب المخزن وأطلقوا رصاصتين على القفل، وأزالوا الجنزير، وفتحوا الباب، وصَفَر شخص منهم، فركض إلى المخزن رجال كثيرون يحملون مشاعل نار، وبحثوا في المكان عن شيء معين، وعثروا عليه معبأ في أربعين صندوقًا، فأشاروا لثلاثة ملثمين يقفون خارج المخزن، فاندثروا في الظلام وعادوا بعد دقائق بسيطة، بشاحنة حمراء ضخمة، عجلتاها الخلفتان أصغر من الأماميتين، ولها مصباحان مستديران نورهما قوي ويشوب الرؤية، وسطحها المُخصص لحمل البضائع واسع وعميق، وأحدث محركها ضجيجًا مرتفعًا، وقفز منها ملثم، وأشار لمن في المخزن بنقل الصناديق إلى سطح الشاحنة.

***

ركبت بدرية التبع سيارتها السوداء التي لها بابان من الأمام فقط، ودست جسدها في الكنبة، وأمرت سائقها الشاب بالذهاب إلى قسم الشرطة، فأدار السائق المقود، وألقى بسيجارته من النافذة، وتحرك بسرعة، وكان يرتدي بذلة زرقاء قاتمة تُداري نحافته الشديدة، وقبعة طويلة من نفس اللون. ودخنت بدرية سيجارة وكانت تُخرج دخانها من النافذة الملاصقة لها، وتُريح ساعدها الأيمن على مَسنَد جلد، وأغمضت جوهرتيها لحظاتٍ ثم فتحتها، ووقعت على فتاة قصيرة تقف ناحية اليمين، على رصيف بالٍ، وترتدي فستانًا أحمر قصيرًا، يُبرز نهديها الكبيرين، وشعرها أصفر وطويل، وتلوك لبانة في فمها، وتدور برأسها وعينها السوداء الجريئة في الشوارع المُظلمة المُحيطة بها، وحينما لاحظت اقتراب السيارة منها فتحت فمها، وتبسمت، فبانت أسنانها بيضاء على ضوء السيارة القوي، وداعبت السائق بضحكة وغمزة، فلم ينتبه لها انشغالاً بالطريق. وتبسمت بدرية لأن ملامح هذه الفتاة ذكرتها بنفسها منذ عشرين عامًا، بعدما توفي والدها وهجرت بيتها بحثًا عن الرزق، ولم تُفكر طويلاً، فدخلت مجال البغاء بلا تردد،

اعتمادًا على خبراتها السابقة مع جارها ابن صاحب البيت، الذي كان يأتي لها ليلاً ويستغل نوم والدها الكفيف، ويجامعها بقوة في غرفتها، ولما عشقها وعدها بالزواج وكان صادقًا، لكنه أصيب بمرض الشل، ومات، وهو يتألم من المرض، ومن فقده لها، وما فعله فيها. واستباحت بدرية خلال العشرين عامًا طرقًا وعرة وكثيرة، وتعرضت أكثر من خمس مرات للاغتصاب من الزبائن، ثم هروبهم دون دفع ثمن إفراغهم لشهواتهم، وثابرت لسنوات، وعاشت في الكباريهات والبارات التي كانت تعمل بها، ووطئت أقدامها حواري، وأزقة وشوارعًا، وبيوتًا ومصانع ودكاكين، إرضاءً لنيران أصحابها الرجال. وظل الليل حبيبها الوحيد ويداريها عن العيون اللوامة، ويضعها في أحضان العاشقين المشتاقين، حتى عشقتها الظروف، ومالت بدلالها عليها، فزادت مكانة بدرية، وادخرت أموالاً طائلة جنتها من العساكر والضباط الإنجليز، واستطاعت شراء كازينو صغير في محطة الرمل، ومنه اتجهت لشراء بيت في نفس المنطقة، ومكون من طابقين، ومخصص للبغاء، والسكر، والعربدة، وبعد عشرة سنوات تكاثرت بيوتها، وظلت تملك كازينو وحيدًا فقط، لأن البيت الواحد يأتي لها بثلاثة أضعاف ما تتحصل عليه من الكازينو. وبرقت شمسها باسقة في سماء الكون، وانبلجت خبرات فتياتها بين شوارع وحواري الإسكندرية، وتزوجت علنًا من رجل ثري يعمل في القصر الملكي، عشق خصرها وجسدها وشعرها، وعاش معها لسنة كاملة، أغدق عليها خلالها ببحر من الأموال، والممتلكات، والمعاملة الطيبة الوقورة، كأنها ملكة، وأنجبت منه حبيبة، ومات الرجل، وأصبحت حبيبة يتيمة الأب، ويتيمة سمعة الأم.

***

وقفت السيارة عند القسم، ونبه السائق بدرية أنهما وصلا، فسحبتها كلماته من بحيرات الذكريات اللاذعة، وفتح لها السائق الباب وأخفض رأسه للأرض احترامًا لها، نزلت بدرية من السيارة ودلفت بغضب ناحية بوابة القسم، وطلبت من عسكري واجم الوجه وحزين، إدخالها للمأمور، فسار وتبعته، وطرق باب المأمور ودخل، ودخلت خلفه، وأغلق عليهما

الباب، وكان المأمور يجلس على مكتبه ويدخن سيجارة، ويبتسم بهدوء، وخلفه صورة الملك فاروق وعليها تراب قليل، وسبح بعينيه في بدرية التي كانت ترتدي تاييرًا ورديًا ضيقًا يظهر قسمات جسدها، وفوقه معطف أسود ثقيل، وتغطي يديها بقفازين من نفس اللون، وتضع قبعة مستديرة على شعرها، والقليل من مساحيق التجميل، وقال لها:

-ارتاحي، ما وقع وصلني.

جلست على كرسي مقابل له، وقالت:

- جئتك في حادثة قتل العبد، وتعهدت لي بأن أفعال حميدو الشيطانية لن تتكرر معي، ولكن الأمر ساء للغاية، وعلاقاتي الكثيرة جفت لأنني لم أعد استخدمها، احترامًا لك، لذا لا تلومني فيما سأفعله لمعالجة جفافها.

-تحدثي معي بشكل يليق يا بدرية هانم.

-هذا ما يناسبك.

-حميدو أسطورة انتهت، وما تبقى منه ينازع حاليًا بلا فائدة.

-قلت هذا في المرة السابقة، ومرت أيام كثيرة ولم تصدق كلماتك.

وقف المأمور واقترب من نافذة المكتب، وقال:

-خلال يومين ترين مفعول كلامي.

-أتمنى، لأنه بعد اليومين سيكون لهشام باشا عقاب ليس بعده عقاب.

-لا تهدديني بعلاقتك بعضو مجلس الشعب هذا يا بدرية هانم، فأنتِ تدرين أن عقلي يهدم القوي والضعيف، ولا تهاب نفسي شجوب أيادي الظالمين، ولا تنسي يا بدرية حادثة اغتيال عضو مجلس الشعب باهر الكفكاني، الذي سبق هشام باشا في منصبه.

امتعض وجهها، وسألته:

-وما دخلي بها؟

-ألم يقتله عماد السكاكيني ذراعك اليمين يا بدرية هانم، في مقابل تعيين هشام باشا مكانه، وتسهيله لجميع طلباتك؟

صمتت ولاذت بعينيها ناحية الأرض.

-مدام التاريخ مُدنس بالنجاسة، فلا تجعلي الحاضر طاهرًا ونقي يا بدرية هانم.

-تتحدث وكأنك طاهر غير دنس، لا عليك، المهم عندي أنه خلال يومين ينتهي حميدو من الإسكندرية، وما قلته لا يشغلني، فمثلما تخلص هشام باشا من باهر، سيتخلص من أي صرصار، يثرثر كثيرًا.

دنا منها وحياها بيديه:

-أنارت قداستك الطاهرة مكتبي.

وقفت ، وقالت وهي ترفع سبابتها وإصبعها الأوسط معًا:

-يومين، ثالثهما سيكون هنا في هذا المكتب الطاهر، مأمور جديد.

فتح فاه ليرد، فرنَّ هاتفه الأرضي الأخضر الموضوع فوق مكتبه، وله قرص دائري أسود مكتوب عليه الأرقام تصاعديًا، من رقم واحد حتى تسعة وصفر، ورفع سماعته الثقيلة، ورد، ثم قطب حاجبيه، وتعالت علامات الغضب على وجهه، وأغلق الهاتف وألقاه من نافذة القسم، فضحكت بدرية وخرجت.

***

كان مرعي يجوس في شقته بحثًا عن الملابس الصيفية والشتوية، ويطبقها في حقيبة جلد كبيرة فوق البلاط، وكانت سماح تجلس على أريكة الصالة وتضع أواني المطبخ والمعالق والسكاكين في كراتين مربعة، وحين تمتلئ تربط الكرتونة بحبل أبيض متين، وتضعها بالقرب من باب الشقة المدثر بالسواد، والثقوب المستديرة، وكان حميدو الجن يجلس في

القهوة ويشاهدهما من نافذة الصالة المفتوحة على مصراعيها، ونشاطهما يثير حفيظته، لما آلت إليه الأمور بعد إرغامه من المأمور، والإبقاء على شحنة الأفيون سجينة في الميناء الشرقي، وتبديد سلطته على يد التاجر اليهودي. وصبا إلى مجده السابق قبل تدخل التاجر في الحارة، واستشعر أن فتونته تدنو من الزوال والانتهاء، و«أدين» سيحتل كُرسيه بالمال والدهاء، بلا نبوت، أو دماء تُسال لتخيف الناس من بطشه وغضبه. وتحول حميدو بمرور الدقائق إلى رائي يعاين المستقبل القريب، بعينين لذعتها الشمس بالنهار، فمخضت رؤيتها ليلاً الكوابيس، والآلام العصيبة المُقببة بالدماء، والغدر، وأصبحت أذنه سبيلاً يناوله يباب القدر، وسبيلاً يرجوه بالابتعاد عن حارة اليهود، لئلا يهلك بتدبير طالح من المأمور والتاجر..
أمطرت السماء، وأفاضت بماء خفيف داعب دبش الأرض، ورؤوس الأطفال والمارة، وأغلقت سماح شباك الصالة تفاديًا للمياه التي قد تتلف الملابس والكراتين، واختلست نظرة إلى الجن رأته فيها حزينًا، والأفكار تطوق رقبته، وتخنق صدره، ولمحت علامات من الخوف تظهر عليه لأول مرة. وتراجع حميدو وسحب كرسيه خلفه، وجلس داخل القهوة، وطلب من حسنين الصبي شايًا ثقيلًا بخمس ملاعق سكر، وكوب ماء، وإغلاق أبواب القهوة. وبصق عقله شذرات مشاهد متفرقة من الذكريات، كان فيها شابًا تجدده أمواج العنفوان، ويطمح في طمس فتوات الحارات المجاورة بعدما طمس فتوة حارة اليهود، وقتله بضربة رأس، ليحتل بعدها كُرسي الفتونة. وتلا ذلك تجارته في الأفيون بشكل موسع، ثم تحذيره من الشيخ عبد الجليل والد «تومكس»، بمخاطر التجارة في الأفيون، لأنه يبدد الأموال والعقول وقوة الشباب، ويؤثر بزيادة معدل الجريمة، والاغتصاب، والسرقة، والطلاق، والخلافات بين متعاطيه وأهاليهم. وكان الشيخ له هيبة وملامحه هادئة وكلماته حكيمة تتناسب مع لون شعره وذقنه الأبيض، وصوته عذب، ومعانيه تفرد احترامًا وتبجيلاً، فرفض حميدو نصيحته، وأمره بألا يفتح معه هذا الموضوع مرة ثانية، ولكن بأدب كي لا يخسر حبه واحترامه. وبعد يومين جاءت قوات من القسم وداهمت مخزن الأفيون، فاغتاظ حميدو، ونثر أتباعه يحطمون ويقتلون ويعاقبون

كل أعدائه في الحارات المجاورة، وكان انتقامه مجزرة دامية. ودفع رجل من رجاله إلى بيت الصياد فجرًا، وفتح باب شقته بسلكة حديد رفيعة، وقتل الشيخ عبد الجليل دون ضجيج وهرب. وأنكر حميدو الجن تلك الواقعة حينما سأله الصياد خوفًا من كره السكان له، لأنهم كانوا يعشقون كلمات الشيخ الحكيمة، وتدخلاته التي تنقذ العباد من التوغل في المشاكل والصراعات، ووقف بجانب الصياد وعاونه خلال العزاء. وكان الغضب مسيطرًا على الناس، وجعلهم يرمون حميدو بدلائل الاتهام، وأنه قتل الشيخ عبد الجليل، ووصل الأمر إلى أن البعض رفض إعطاء حميدو الإتاوة، وتشاجروا مع رجاله، وقتلوا اثنين منهم، لكن حميدو كظم غيظه ولم ينتقم، وفي يوم الأربعين ذبح عشرة عجول في الحارة على روح الشيخ، وطلب من الناس الدعاء له، ووصفه بملاك حارة اليهود. وكما أن الغضب كافر، فالجوع أكفر، فنسى الكثير من الناس كره حميدو، وأحبوه، لأن بطونهم امتلأت من اللحوم الطازجة، وجعلوا الشيخ عبد الجليل ذكرى طيبة معلقة في أمخاخهم، ويدعون له كلما جاءت سيرته العطرة، ويدعون لحميدو بالستر ودوام الفتونة. وبعد شهرين حزن حميدو حزنًا شديدًا لأنه علم أن الشيخ عبد الجليل لم يبلغ عنه القسم، بل صبي من رجاله خانه عند فتوة السيالة، انتقامًا له، لأن حميدو شاجره وانتصر عليه في منطقته، ثم وصفه بالمعتوه وجعل الأطفال يرددونها في السيالة. وحاول حميدو خلال السنين التالية معاونة الصياد، والوقوف في ظهره، فلا يضايقه، ويأخذ منه إتاوة بسيطة ليكسر بها عين الناس، ولا يتساءلون، ومن يتعرض له يذيقه من كأس الموت، ودرى الجميع أن حميدو يكتنف الصياد، وتحاشوا مضايقته أو إغضابه.

***

وضع حسنين كوب الشاي والماء على طاولة خشبية أمام حميدو، وسأله:

-شيشة؟

-ماشي.

فتح الصبي باب القهوة لأن المطر توقف، وعاد ليجهز الفحم والشيشة، ودخل مامور القسم فجأة، وكان يرتدي بذلة سوداء عليها نياشين وأزرار حديد، وتلمع من إضاءة القهوة، ويلف حزام جلد حول خصره يتعلق فيه غمد، به مسدس، وخلفه «أدين» ببذلته الرصاصية المعتادة، وعيونه الخضراء الخبيثة، وقطب حميدو حاجباه، ورفع قدمه اليسرى على الثانية بصعوبة لبدانته، ومعدته الكبيرة، وقال المأمور:

-كيف تجرؤ؟

-لا تؤاخذني، ساقي تؤلمني.

-كفاك مراوغة، ولا تتخفَّ من سؤالي.

-يكفيكما مراوغة، طلباتكما تنفذ على قدم وساق.

-وهل طلباتنا نصت على سرقتك للمخزن؟

وثب حميدو، وسأله:

-أي مخزن؟

تدخل «أدين»:

-المخزن الذي سرقت منه شحنة الأفيون الخاصة بك.

-سرقت شحنة أفيون خاصة بي؟ الجملة حتى لا تتناسب مع بعضها، ولكن ماذا تقصد أيها اليهودي؟

قال المأمور بغضب:

-أنت سرقت شحنة الأفيون يا حميدو وستدفع الثمن.

-حدثني بكلمات واضحة.

-شحنة الأفيون نقلناها من الميناء الشرقي، ووضعناها في مخزن يملكه «أدين»، مؤقتًا حتى تنفذ شروطه، وتأخذها، ولكن اليوم المخزن تعرض

لهجوم ونهب ما فيه.

-نهب ما فيه؟ أنت تمزح معي صحيح؟

علا صوت حميدو، فقال المأمور:

-اخفض صوتك وإلا وضعتك في السجن.

أمسك حميدو «أدين» من تلابيبه، وقال:

-أقسم برب الكون، إن لم تجدوا سارقي الشحنة لأقتله، وأقتل أمه الشمطاء التي تعيش في حي مصر الجديدة ورجالي يراقبونها ليلاً ونهارًا، ثم أقتل أسرتك وليعلم الناس فضائحنا.

نظر المأمور «لأدين» بشك، ثم حميدو، وقال:

-لا أصدقك، أنت سرقتها، لا تنكر أيها الشيطان.

-لا أنكر، وصدقني زوجتك وابنتك لن ينعموا بالراحة، أنا وضعت كل أموالي في الشحنة، وخسارتي لها تعني خسارتي لكل شيء، ولا تدخل عراكًا مع خاسر أبدًا.

كان «أدين» يختنق من يد حميدو ويحاول فكها، فأزاحها المأمور، وحذر حميدو:

-سأجد الشحنة خلال يومين كما قلت، ولكن إن اكتشفت أنك سارقها، سأقتلك علنًا أمام الناس، وأخبرهم بأنك قتلت الشيخ عبد الجليل.

-أقسم برب الكون، وبسمائه وأرضه، أنني سأقتلك أنت وأسرتك إن لم تجدها، وبعدها أنشر فضائحك الكثيرة وتجارتك في الأفيون، والأسلحة، وبيعك للمقبرة الفرعونية التي عثرت عليها في شارع اللبان منذ عامين.

-لا تهددني لأن ورائي جيشًا جبارًا.

-جيشك لن يصمد أمام رأسي، وفضائحك النجسة.

-لا داعي لهذا الحوار، الفيصل بيننا يا حميدو، ويا سيادة المأمور هو الحق والصدق، ومعرفة من سرق الشحنة، فإن كان حميدو فله منك ما يُمليه عقلك، وإن كان غريبًا سيكون لحميدو حق لن يدفعه، إلا أنا، فلنذهب الآن، ولا تنسَ يا حميدو طرد سكان البيت، فما حدث لن ينهي طلباتي.

-لن أطردهم إلا بعد العثور على الشحنة كاملة.

نظر حميدو لحسنين الذي كان يقف مشدوهًا، ويتابع بصمت، وأردف:

-رش أرض القهوة بالمياه يا حسنين لتنظيفها من النجاسة، ودماء حرائق هتلر الجماعية.

خرج «أدين» وسحب المأمور من ساعده، واختلس نظرة لحميدو وابتسم بسخرية. وجلس حميدو على كرسيه، وسار المأمور منكس الرأس، وخلفه التاجر اليهودي يلتقط أنفاسه بصعوبة، ويتحسس رقبته في خوف، وضرب حميدو كرسيًا بقدمه، فاصطدم بالرصيف الذي يفصل القهوة عن الحارة، والتفت له المأمور بتحدٍ، ثم ركب سيارة سوداء ضخمة بها سائق بشارب طويل، وأصدر محركها صخبًا عاليًا، أزعج سكان الحارة، وجعل سماح تفتح شباك الصالة وتنظر منه في قلق ناحية حميدو.

***

فجرًا دلف حميدو من بيته الثاني في نهاية حارة اليهود، بجلباب شتوي ثقيل، ولف رقبته بكوفية صوف خضراء، وسار على قدميه ببطء حتى صعد إلى حنطور أسود وعجلاته من الخشب، وأمر الحوذي بالذهاب إلى المنطقة السرية، ودس نفسه في المقعد الوثير، وأغمض عينيه، وكانت نسمات الهواء الباردة ترتطم في وجهه أثناء سير الحنطور بالشوارع، وأمواج البحر مرتفعة، وتثير هزيزًا مزعجًا في رأسه، ففتح عينيه، ورأى البحر عن يمينه، وبيوتًا قديمة ومهجورة عن يساره، وتتكون من طابقين كحد أقصى، جزء منها مهدوم ومشوب بالسواد والقذارة، وجزء ثانٍ جعله الناس للقمامة، وما تبقى من هذه البيوت كان قليلًا ويتسامر فيه

المشردون، ويتجرعون الويسكي، والكونياك، والنبيذ، ويشربون الحشيش، ويضاجعون المشردات البالغات، والأطفال، وبعضهم يختلي بنفسه خلف هرم صغير من الصخور ليمارس طقوسه الخاصة. ترك الحنطور هذه المنطقة، وظل البحر كائنًا على اليمين، وكانت الناحية المقابلة له خالية تمامًا، واستمر هذا الحال طويلاً، ونام حميدو، ثم استيقظ من شدة صوت الأمواج وأقدام الحصان، ورنا بعينيه ناحية السماء، فوجد الشفق الأحمر يلونها، ويجعلها بهية، وظهر من بعيد سور طويل من الطوب الأحمر، وله بوابة واسعة يقف عليها خمسة رجال يرتدون جلابيب رمادية، ويمسكون بنادق، ولما بلغهم الحوذي أوقف الحصان، ونزل، وعاون حميدو على النزول، لأن يده لم تُشف بعد من آثار الرصاصة. ودنا حميدو من بوابة السور ودخل منها، وسار في ممر ضيق يحاوطه سور ثان من الطوب الأحمر، وينتهي بباب حديد ضخم، طرق عليه ثلاث مرات، ففتح «شندويلي»، ودلف وأغلق الباب، وسار في مكان رحب ومغلق، وأرضه زرعها البلاط، وجدرانه لونها أبيض، وتتعلق عليها مصابيح كهربائية كثيرة، جعلت المخزن نهارًا واضحًا، وكان المكان مخزنًا تابع لحميدو يؤجره للتجار، ومغلفًا برائحة عطن قوية، وترتكز ناحية اليسار، أخشاب، وغرف نوم، وسرائر. وعشرون رجلًا يحملون البنادق، وموزعين بشكل منظم. وتقدم حميدو، حتى وصل إلى باب حديد فتحه، ودخلا ، وسأله الثاني:

-فين؟

مال بجذعه للأمام وأزال سجادة كانت في الأرض، وظهر أسفلها باب خشب، فتح قفله ونزل منه على أدراج من الصخور، وعاون حميدو حتى وطئت أقدامهما أرضية المخبأ، وقال بفخر:

-أوامرك سيف يا معلم حميدو.

تبسم، ولثمه بقبلة على رأسه، وقال:

-أقسم بربي أنك أرجل رجالي، وصلة قرابتي بك جعلت دماءك مثل دمائي، وعقلك مثل عقلي، ومن بعدي ستكون فتوة للحارة والحارات

المجاورة.

-طولة العمر والصحة والعافية لك يا معلم.

- كيف علمت بما وصلت إليه؟

-قبل المشاجرة مع الحفناوي بيومين، فكرت في زيادة المراقبة على المأمور ليلاً ونهارًا، ولاحظت في اليوم التالي أنه ذهب لمكان المخزن الذي سرقنا محتوياته بالأمس، حاولت معرفة ماذا يحدث أو يوجد بالداخل، ففشلت، ولم أجد أمامي سوى خطف واحد من الحراس وضربه وتهديده، فقال لي إن المأمور يخبئ في هذا المخزن شحنة ضخمة، جلبها من الميناء الشرقي، لكنه لا يعلم ماهية هذه الشحنة، فسألت رجالنا الذين يراقبون الميناء، وعلمت منهم أنه لم تأتِ شحنات ضخمة للميناء منذ فترة، وأن المأمور جاء لهم ومعه رجال كثيرون لثلاث ساعات، ثم ذهب. وعلمت أنه نقل شحنة الأفيون خلال هذه المدة، لذا أخذت أوامرك بعدما أخرجت الرصاصة من ذراعك يوم المشاجرة، ونفذت.

-ترى لماذا سرق المأمور الشحنة، وأنا نفذت طلبات التاجر اللعين؟

- كان سيتخلص منك، ويفوز بالشحنة.

-أصبت، تفكيرك شيطاني صحيح.

-هاهاها، تعلمته منك يا معلم.

-وماذا عن بدرية؟

-نفذت ما اتفقنا عليه، وأعطيتها مبلغًا ضخم تعويضًا عما فعلناه في بيتها، وأخبرتها كما قلت لي، بأن تذهب إلى المأمور وتقول إنها لم تعد تتحمل أفعالك.

-بدرية أظهرت وجهًا حسنًا لم أتوقعه من عاهرة مثلها.

أخرج سيجارة وأشعلها وناولها لحميدو، وقال:

-ما خططت له يا معلم وضع المأمور والتاجر في مأزق، خاصة وأن وقت تهديدك لسكان بيت الصياد، ومشاجرتنا الكبيرة في بيت بدرية، كانت في نفس وقت هجومنا على المخزن، ونهب الشحنة.

-الخداع أهم من الذراع أثناء اللعب مع الملاعين، ومن هذه اللحظة بدرية في حمايتي بدون مقابل، وشدد الحماية على بيت حودة تومكس، وأخبر ساكنيه أن المعلم حميدو صفح عنهم، فلا يتركونه.

-أوامرك.

-اتركني مع الأفيون، وجهز عربات الشحن، وقسم عليها الشحنة لنقلها إلى التجار في القاهرة، أريد إخراج هذه الشحنة من الإسكندرية في أقل من يوم، ولا تنسى أن ألعاب المأمور والتاجر كثيرة، وربما يراقبوننا الآن.

-لا أشك في ذلك، أوامرك يا معلم حميدو.

***

خرج «شندويلي» من باب المخزن، ووقف في الشارع وتحدث مع رجلين، ثم ركب حنطور حميدو، وأمر الحوذي بالذهاب إلى محطة الرمل، ليأتي بالشاحنات وينقل الأفيون إلى تجار القاهرة، وكانت الفرحة ترتسم على وجهه، ويدخن سيجارة بشراهة، ويخرج دخانها من أنفه، والحنطور يتحرك بسرعة. وعلى مسافة بعيدة من المخزن خلف هرم من الصخور كان يقف برياء، والغضب يعتليه، ويقذف بشرة إلى البحر والمخزن ورجال «الجن»، وسبهم في سره، ثم توارى مثلما جاء وابتعد عن المخزن، وكانت بذلته الرصاصية مليئة بالأتربة، وعينه الخضراء تكاد تقفز من محاجرها غضبًا واستياءً، وتوعد بالفواجع والخراب إلى الفتوة ورأسه الشيطانية.

***

الفصل الرابع عشر

مَرَّ يومان على رحلة الصياد والمعظم، إلى الجزيرة المليئة بالأسلحة، عطبت خلالهما جزيرة الجد الأعظم، وما آلت إليه الأحوال لم يكن في الحسبان، ففي اليوم الأول ليلاً، بعد دفن الملك سرًا في المقابر الملكية، ومعرفة الملكة أن رحم ابنتها يحمل طفلاً من «الغازل»، اضطرمت النيران في مناطق متفرقة في الجزيرة، مثل الدواوين، وجزء كبير من موقع تدريب الضباط والحراس، الذي يقع غرب الجبل، فأمرت الملكة بإرسال أكبر قدر من الحراس للسيطرة على الحرائق، ومات خلال عمليات الإطفاء أكثر من مئة حارس، لشدة لهيب النيران الذي ارتفع لمترين وأكثر، وجعل الملكة تشرف بنفسها على محاولة الإطفاء، وضاقت نفس السكان، وتوسدت قلوبهم الألم والعذاب على المتوفين، وذهب جمع غفير من السيدات والفتيات إلى المنطقة التي ينزوي فيها نهر «الجلامش»، ووضعن شموعًا كثيرة في النهر، وجعلن شكله حزينًا. وتعرض مسئول منظمة الأمن لمحاولة اغتيال، من شخص مجهول تسرب إليه وهو جالس داخل غرفة اجتماعات تقع بالقرب من الجبل، وسدد له طعنة بخنجر، فانتبه، وتراجع بصدره للوراء، وضرب ذلك المجهول بسيف في عينه اليسرى، وأنزله على الأرض، واستجوبه، فأخرج خنجر وانتحر به، ولم يعرف مسئول الأمن من نسه، وأخفى هذه الحادثة داخل مكمنه، كي لا يسبب بلبلة، وأخبر بها الملكة فقط. واغتمت المعظمة الصغيرة بعدما علمت من والدتها أنها حُبلى، وساءت حالتها أكثر، وهجرت الطعام، وانزوت في غرفتها، ورفضت الكلام مع الجميع. وفي فجر اليوم الثاني تزاور السكان، وتناقلوا معلومات خطيرة، كان أهمها مقتل الملك، والقضاء على «الجراكو»، وانتقلت همساتهم وكلماتهم إلى أرض الجزيرة، فعلم أفراد تنظيم «اليد المُطهرة» وأخبروا الملكة، وبدورها أمرت مسئول الأمن بسجن من يُجاهر بهذه المعلومات. وزادت الأمور سوءًا، حين كتب عجوز من بيته في منتصف الجزيرة، وظل يصرخ وينادي الجد الأعظم، وملك الجزيرة، ويتوسل لهم كي يَخرج، ويكتشف ما يخفيه البحر في ثناياه، ويعلم ما إذا كانت هناك جزر أخرى أم لا؟ وتعاطف معه جمع من السكان، وتعامل معه الحراس

بهدوء إلمامًا للموقف، لكنه صرخ فيهم ووبخهم، وصفع حارسًا، فسحبه الحراس ليسجن، وفي طريقهم إلى السجن وثب عليهم شباب ورجال وتعاركوا، فقتلهم الحراس، ومات العجوز دون أن يلمسه أحد، مما أثار الحنق في نفوس السكان، وهاجموا سيرة الملك وحراسه ومسئول الأمن بكلام ممجوج، وانتثر خوفهم، وما عاد يقلقهم مصير الموت في معدة «الجراكو». وشجعهم على الاحتجاج معلومة تسربت بأن المعظم الصغير خارج الجزيرة ولن يعود مجددًا، وخلال أيام ستلحقه الملكة والمعظمة الصغيرة، فتدثر عدد من السكان بالتوغن، وذهبوا إلى أسفل الجبل وأعلنوا احتجاجهم، ورفضهم البقاء خلف الأسوار مكتوفي الأيدي، والسنين تسرقهم ويموتون بلا إدراك كامل عن ماهية البحر، وما يحمله من جزر، وسكان قد يكونوا على قيد الحياة، وطالبوا الملك بالكلام معهم، فرفض الحراس، وهددهم مسئول الأمن بالسجن مدى الحياة، فهرب القليل، وكافح الأغلب ضربات الحراس بالعصى والسيوف، واستطاع مسئول الأمن فرض السيطرة على الجزيرة، ونشر الضباط والحراس في كل بقعة وركن وزاوية، وأغلق السوق، ومنع خروج السكان من بيوتهم لمدة يوم. وانتحت الملكة على تاليا التي كانت توافيها كل ساعة بتقرير شفهي عن ما يقع في الجزيرة، وهي مغتاظة. وهاج جسدها بشدة، وهشمت أوعية حجرتها، وألقت همها إلى البحر تشكوه، ورفعت صلاتها نحو السماء، واستجارت بخالق الجد الأعظم، وابتغت أن تدركها رحمته وقوته السرمدية. وجلست على سريرها ودخنت غليونًا، وأثرها شفق الغروب المُحلق في السماء، ورأته يلون السحب بريشته المليئة باللون الأحمر، ويحتضنهم بحنو، وسحبها من الشفق طرقات سريعة على الباب، فأمرت صاحبها بالدخول، فانفتح الباب ونظرت الملكة بقلق لتعرف مَن الطارق؟ فكانت تاليا، وقالت:

-سيدتي البلايا استباحت جزيرتنا.

-تليني يا تاليا بمصائبك.

-جزء كبير من المنطقة المخصصة لتدريبات القوات الملكية انهارت في

البحر، وكادت تسحب معها سور الجزيرة، والكائنات اللعينة دنت بشدة من السور.

-ما السبب؟

- لأن الكائنات تبتلع باطن الجزيرة السفلي.

ألقت الملكة بالغليون من النافذة، وصرخت في تاليا:

-وكيف نتصرف؟

اكتست الملكة فجأة بالصمت، وتبعتها تاليا لما وجدت يد ثقيلة توضع على منكبها من الخلف، واستمعت إلى صوت تعرفه يقول:

-منذ اختيارك لتاليا، وخاطري تراوده الشكوك، وتتغزل في ثناياه، ولم أعتقد يومًا بأنها كما قلتِ للجميع حارستك الشخصية يا زوجة أخي.

امتعض وجهها وقالت:

-تختبئ مثل النساء، فلا نعرف لك مكانًا وقت الكوارث مثل النمل، ثم تطل علينا بأفكارك وشكوكك الدنيئة.

-حذارِ أيتها الملكة الجريئة، فمنذ هذه اللحظة كلماتك محسوبة، أنتِ وتنظيمك السري.

استأذنت تاليا لتنصرف، فجذبها بكلماته:

-لا تذهبي يا قائدة التنظيم، ولتدوني بقلم ذكرياتك تحذيري، موت الملك وإخفاؤه، وسفر المعظم إلى جزيرة بعيدة، وفضيحة المعظمة الصغيرة مع «الغازل»، واختفاؤه الغريب، وجماع الملك لخادمات البيت العظيم بالإجبار، وتنظيم سري يدير الجزيرة، ويقتل ويسجن مَن يتخلف عن رغباته الجامحة. الجزيرة تترنح الآن فوق بحيرة زيت مشتعلة بالنيران، والاحتجاجات لن تتوقف، وستزداد إن علم السكان الحقيقة.

-كف عَن سرقة الوقت بكلماتك التافهة، وقول ما تريد.

-أخشى عليكِ من الصدمات صدقيني، يكفي أن قلبك انفطر على ابنتك العذراء، الجميلة، ذات الوجه الصبوح.

-لا صدمات منك بعد تورطك في حادثة الباب العالي، وما أبليته من شر، وخبث، ودهاء، وجعلت الملك مثل الرمال في يديك، يتدنس بدفئك المخادع ثم ينثال بغشامة على أرض الضلال.

-لكل نتيجة متطلبات وخطوات سابقة يا زوجة أخي، فلا يمكن طهي الأسماك قبل اصطيادها، وحادثة الباب العالي كانت معاونًا لي، وناقوس شوق السكان لمهاجرة الجزيرة.

تدخلت تاليا بحدة:

-خراب الجزيرة مسئولية أسرة الملك، وأنت أخيه أيها الحاكم الموقر، واليباب حينما يأتي لن يميز بينك، وبين الأسرة الملكية.

ضحك، ولف بوجهه ناحيتها، وأضاق عينيه وهو يقول:

-لا ملك بلا مناصرين يا تاليا، ومناصريَ كثيرون، وسوف ينتشرون لأنني سأسمح لهم بالخروج من الجزيرة، واكتشاف ما وراء البحر، وبعد موتي سيصبح حكم الجزيرة اختياريًا بالإجماع، وليس إجباريًا من أسرة الجد الأعظم.

-لا تنس يا زوج أخي أنه لا حياة للجزيرة إلا بالقضاء على الكائنات، ولن يقضي عليها ابني ما دمت تريد الحكم.

-وهل يتركَكم تموتون جوعًا أو قتلاً مثلاً؟ كفي عن ملاعبتي فوق أرضي الخضراء الفحاطة بأسوار عقلي البديع، وأفكاره العظيمة، عظيمة أكثر من الجد الأعظم.

بصقت الملكة عليه، فزعق:

-صدقيني لن أتردد لحظة في كشف حقيقة الجد الأعظم للسكان، وملئي الدائم لبطونهم باللحوم والأسماك خلال الفترة الماضية، يُشبه ملئي

لقلوبهم بحبي ومناصرتي، لذا فالكثير منهم رهن إشارتي، وأجسادهم سيوفًا تحارب من أجلي، إن اضطررت، فكوني حذرة لأن نيراني تلتهم الجزيرة وتقتل السكان كل لحظة.

-أنت وقح وكاذب، والجد الأعظم سيضعك في الظلام أمد الدهر، ولن يغفر لك طمعك في جسدي منذ سنين حينما طلبت مني التآمر على الملك وقتله.

-كنتِ جميلة، ولكِ قسمات فشلت في إيجاد مثلها.

كادت تصفعه فأمسك بيدها، وقال:

-أمامك وقت شحيح، سأعود بعده لأعرف رغبتك، هل هي دفن بحيرة الزيت بالرمال؟، أم الاستمرار في تأجيج نيرانها الطاغية؟

خرج من باب الحجرة، وسألت تاليا الملكة بقلق:

-ماذا نفعل؟

حط صمت بليغ على الملكة، دنت بعده من تاليا وقالت بصوت خفيض:

-نفذي تعليماتي التالية بدقة شديدة.

***

طلح هواء حجرة المعظمة الصغيرة من ندبات عذاب نفسها، وتضخم الألم ولكزها في جوانحها الرقراقة، وانتحى بها جانبًا نحو بيت عتيق، له أرض رملية سوداء، وسقف يابس خبأت فيه الثعابين أجسادها، وازدانت الشقوق برؤوسها، وأخرجت ألسنة مشقوقة وطويلة لامست رأس المعظمة ثم اختفت. وتململت المعظمة في سريرها، وفقدت القدرة على الحركة، ونزفت دماءً سوداء من رحمها، وحاولت الوقوف، لكن أبى بدنها تنفيذ المحاولة، وأحست بنيران تلتهم صدرها وتصيب فمها ولسانها بالدخان، وارتجفت ثلاثة مرات، فسقط غطاءها الثقيل، وبانت قسماتها نحيفة ويابسة، وما عاد وجهها صبوحًا، بل باهتًا وأصفر، وتشنج فمها

وخرجت منه رغاوي بيضاء لزجة، ولفظت المعظمة أنفاسها الأخيرة، وصورة تاليا منذ دقائق وهي تعطيها شرابًا أخضر محلى بعسل النحل، وبه مرارة قليلة، تراود عينيها الثابتة.

***

الفصل الخامس عشر

كان مد البحر قويًا، والأمواج ترتفع وتهبط وترتطم ببعضها، فيتشكل فوق سطح البحر زبد أبيض ناصع يتلاشى سريعًا، وظلت السماء مظلمة ومكدسة بسحب غليظة حجبت ضوء القمر، وصارعت السفن الثلاث مياه البحر في محاولة للحفاظ على التوازن، وكان الصياد يجلس، ويضع تصوراته لاقتحام الجزيرة المليئة بالأسلحة في غرفة صغيرة داخل سفينة ضخمة، ومجوفة في المنتصف، وفي مقدمتها عمود من الخشب يحمل رأسًا خشبية منحوتة بملامح ملك الجزيرة، وكانت كل سفينة تتحرك بقوة مئة مجداف، مقسمين إلى خمسين ناحية اليمين، ومثلهم في اليسار، ويحركهم حراس أشداء يجلسون على مقاعد حديد مثبتة في نهاية كل سفينة، وصاح المعظم في قباطين السفن، وأمرهم بالابتعاد لمسافة مناسبة حتى لا يصطدمون ببعضهم من شدة الأمواج، والمد، فأخبره قائدهم بأن الابتعاد يؤدي لابتعاد السفن عن بعضها، ومن الأفضل بقاؤهم معًا، فهز رأسه ونزل إلى ممر غرف السفينة، واختلى بنفسه وصلى للإله. ثم دلف إلى غرفة الصياد، وكانت السفينة تهتز وتتأرجح في نواح مختلفة، والمعظم يهتز معها.

-كم تبقى من الوقت؟

جلس المعظم على مقعد، وقال:

-زمن الذهاب المقدر يومان، ومر اليومان بالفعل.

-أنا غير مطمئن.

-قتلنا «الجراكو»، وعبرنا إلى البحر، وتركنا نصف الحراس والعتاد

والسلاح والطعام هناك عند الرصيف الصخري، كي نصل للجزيرة بعدما حطم الوحش الأحمر ثلاث سفن من أصل ستة، وما زال لديك قلب يشعر بالقلق؟

-لدي أسرة تنبض بقلبي، قد تُنسيني الأيام شوقي لها، ولكنه يعود مجددًا، ومنذ رؤيتي لعودة أسرة الحامي كما كانت، وعقلي يلكز جسدي بأمواج مُتتابعة من رغبة العودة إلى الإسكندرية.

-أتعهد أمام الجد الأعظم بأنك ستعود للإسكندرية، ولكن لن يُرضيك أن تترك جزيرتي والبياب يحلق فوقها، ويذبذب جوانحها، ويضع ندوبه في أجسامنا.

اجتمعت الدموع في عين الصياد اشتياقًا لأسرته، وخوفًا أن يكون كلام المعظم كذبًا، وقد يقتله في النهاية. وبعد ساعة طرق باب الغرفة ضابط شاب، وقال للمعظم بأدب:

-معالم الجزيرة تتضح، والقباطنة أوقفوا الثلاث السفن، وينتظرون إشارتك.

-لتشملنا رعاية الجد الأعظم.

صعد المعظم إلى سطح السفينة، وخلفه الصياد، والضابط الشاب، وكان السطح مليئًا بمياه الأمطار، ويتوزع على حوافه القليل من الضباط، ودنا المعظم من الحافة الأمامية وكانت عالية عن باقي السفينة، وأخذ نظارة معظمة بعدسة واحدة وطويلة ولونها ذهبي لامع، وثقيلة، ونظر فيها، وناولها للصياد، ورأى الصياد من خلالها جزيرة على مسافة بعيدة مُحاطة بسياج حديد مرتفع، وخلفه يقبع خمسة جنود يحملون البنادق ويتحركون في مسارات مُحددة، وبالقرب منهم ثلاثة أبراج عالية، ويقف في كل برج جندي يمسك ببندقية قنص، وأمامه مثبت في حديد البرج كشاف ضخم تتوجه إضاءته ناحية سياج الجزيرة، وعلى بُعد يوجد عمود طوله يتخطى الأبراج الثلاثة، دقق فيه الصياد بعينيه فوجده أحمر وفي منتصفه دائرة بيضاء عليها رسمة سوداء، فأنزل النظارة من عينيه وقال

للمعظم:

- الجزيرة تابعة للقوات الألمانية النازية.

-فسر.

-الاشتباك معهم لن يكون سهلاً، سأنزل بنفسي إلى الماء وأستطلع الجزيرة بأكثر قدر مناسب من الأمان، وأريد معي طاقمًا من عشرة حراس يحملون الأسلحة.

-سأنزل معكم.

دنا قبطان السفينة من المعظم، وقال في أذنه:

-الأمان يتطلب تواجدك على متن السفينة يا سيدي، فلا تتعرض للخطر في الجزيرة.

استمع الصياد لما قاله الضابط، وقال للمعظم:

-ما قاله صحيح، ابقَ هنا، وانتظر إشارتي للبدء فيما اتفقنا عليه بالأمس، وعليك بقتل الجنود الذين يقفون في الأبراج الثلاثة بالأسهم.

هز المعظم منكبيه في ضيق، وأمر ضابطًا بإحضار أفضل عشرة ضباط شباب ماهرين في السباحة، وما يحتاجونه من أقواس وأسهم وخناجر وبِذَل مائية. وبعد وقت قليل عاد الضابط، والمكلفون بالمهمة، وأعطاهم بِذَل مائية لونها داكن ومصنوعة من الجلد، ارتدوها ومعهم الصياد، وربطوا الأقواس والأسهم في ظهورهم، ووضعوا الخناجر في أقدامهم، وطلب الصياد من المعظم أن تبتعد السفن للوراء أكثر، وطلب من قبطان السفينة حبلًا طويلًا وسميكًا، فناوله واحدًا، وربطه في حافة السفينة وقفز في الماء، وتبعه الضباط ببطء كي لا يحدثون ضجيجًا. كان الهواء فاترًا، والبحر باردًا، والظلام بهيمًا، وارتجفت أجسادهم لما احتكت بالماء ولفحتهم الرياح، وتوكأ الجميع في سباحتهم على أضواء كشافات الجزيرة الضخمة، وكانت نفْس الصياد رجراجة من الخوف والبرد، وصوت اصطدام

يد السباحين بالماء يزعجه، وأراد أن يتطبب بخليلته رائحة اليود، ويُضائل إحساسه بالخوف من الجزيرة، وعدم عودته لأسرته، فتعثر، وخادعته أفكار ماكرة أكدت لعقله أن زوجته ماتت تأثرًا بمرضها، ومرعي مُشرد في الحواري والأزقة، وربما استعبده حميدو وجعله من شياطينه، يبيع له الأفيون والحشيش خلسة بعيدًا عن عيون الرقابة، وفي نهاية يومه يقتات نصيبه من بيع المخدرات، مخدرات يشربها في الأزقة القذرة التي يقطنها المُشردون، واللصوص، والقتلة، وقد يتعرض للاغتصاب الجنسي إن لم يقدر على حماية عجيزته، وربما يترك نفسه ليأخذ بقايا مالية شحيحة، ويسد بها عجيج معدته، وعويل عظامه، وحاجة جسده لتجديد الطاقة، ويملأ مثانته الفارغة بالماء، ثم يقضي حاجته في نفس الرقعة النتنة، التي يتوسد ذراعه وينام فيها محاذاة للكلاب والقطط والفئران... لامس الصياد رمال البحر وانتبه إلى أنه دنا من شاطئ الجزيرة، فأمر الضباط بالتزام الصمت والوقوف خلفه، وتقدمهم وسبح إلى منطقة منزوية ومُظلمة لا تجوبها الكشافات الثلاث، وخرج من الماء ووضع حجرًا على الحبل الذي ربطه في السفينة ونزل به في المياه، وأحنى ظهره وسار على الرمال بمعدته، وبلغ صخرة ضخمة فضية اللون، واختبأ أسفلها مع الضباط، وقال بصوت خفيض:

-سنقسم أنفسنا إلى فرقتين، الأولى تدور حول الجزيرة من ناحية الشرق وتدون ما لاحظته في عقلها، والثانية تكون معي وسنجوب الناحية العكسية، حاولوا بقدر المستطاع التخفي بشكل جيد فهنا لا حليف لنا سوى الظلام، انتشروا الآن.

تحرك الضباط كما أمرهم، وسارت فرقته محنية الظهر وتمر بجانب السياج الحديد، وأخفت أمواج البحر صوت أقدامهم، وحركة الأقواس والأسهم، وكانت الجزيرة ذات مساحة صغيرة، وحولها حزام من الصخور فضية اللون و تتناثر عليها حبات بيضاء صغيرة. وتأكد الصياد من عدم وجود أبراج أخرى، وأحصى عدد الجنود، والضباط المسلحين، فتخطى عددهم الخمسين، وكانوا منتشرين في أكثر من مكان، بعضهم يجلس

حول نار مشتعلة ويضع الحطب للتدفئة، وبعضهم يحرس المكان، وبعضهم يمسك بأوراق بيضاء، ويدونون عليها بعض الكلمات، وكان أقلهم حركة وانتباهًا هم الضباط الكبار في السن والرتب، وكان الجميع يرتدي البذل العسكرية الرمادية، ويثبتون في رؤوسهم خوذًا حديدًا سوداء، ويلفون حول الخصر أحزمة بنية يضعون فيها خِزَن من الجلد مليئة بطلقات نارية، للبنادق التي يحملونها، ويرتدون أحذية حربية طويلة تصل لقبل الركبة، ولونها أسود داكن. وقبل نهاية الدوران حول الجزيرة لاحظ الصياد أربعة طائرات حربية مثبتة، وعليها علم ألمانيا النازية، وخلفهم فتحة في الأرض، ونظر حوله وتيقن من خلو المكان، فاقترب بعينيه وعَلِمَ أن هذه الفتحة تؤدي إلى خندق كبير ينام فيه الجنود، ويتطاير منهم صوت شخير مُتقطع ومزعج، ويقف بعد مسافة منهم جنود يحملون بنادق، ويتحركون في مسارات محددة، ثم يعودون لمكانهم. وصاح جندي ألماني ظهر فجأة من العدم بكلمات لم يفهمها الصياد والضباط، وتراجعوا للخلف، والتقطوا خناجرهم استعدادًا للقتال، ونام الصياد على ظهره وكتم أنفاسه، وزاد صياح الجندي وسار ناحية الصياد، وأزال قنبلة يدوية من الأرض، وذهب إلى الطائرات الحربية، وتشاجر مع جندي كان ينام أسفل طائرة منهم، فنظر الصياد بطرف عينيه، وهَدَّأ الضباط الذين معه. وسحب الجندي زميله ودفعه للأمام بغضب واختفى الاثنان في الظلام. وأكمل الصياد التفافه حول الجزيرة واستمع إلى أقدام تقترب منه، فأشهر خنجره وخفق قلبه، واصطدم بالفرقة الثانية، فأشار لهم بالانخفاض ونام الجميع على الرمال المبتلة بمياه البحر، وسألهم، فقالوا إن الناحية الأخرى خالية من الأبراج، ويحرسها تقريبًا عشرون رجلًا، وفي المنتصف توجد خمسة أرائك يجلس عليها بعض الجنود الكبار في السن، ويشعلون النيران ويضعون سياخًا حديدًا فيها لحم وبصل وطماطم، وكانوا يتجرعون نبيذًا، ويتضاحكون، ويتراقصون. وقبل نهاية هذه الجهة كان هناك جنود يمسكون بأسلحة ثقيلة، ويحرسون مبنى من طابق واحد ذهابًا، وإيابًا كأنهم مزارعين ويضعون بذورًا في الأرض. وضع الصياد يدَه على ذقنه وفكر مليًا في ملاحظاته هو والضباط، وأمر ضابط شاب بالعودة إلى

سفينة المعظم وإخباره بأن الصياد ينتظر إلقاء الفيل في المياه، استعجب الضابط من كلامه لكنه هز رأسه، وسار بمعدته على الرمال وأخذ الحبل الذي وضعه الصياد أسفل الصخرة، وسبح في المياه مُستعينًا بالحبل. سمع الصياد صوت حارس يتغنى بالألمانية بالقرب منهم، ويحمل بندقية آلية من نوع «إم جي ٣٤» طويلة ونحيفة وسوداء، ووضعها على الرمال وخلع ملابسه كلها، وأصبح عاريًا ولم ينتبه لوجود الصياد والضباط، وكان ثملًا بشدة، ونزل إلى المياه، فدنا منه الصياد ببطء وهو ينظر حوله، وأمسك برأسه من الخلف ليكسرها، فصرخ الجندي وصاح بالألمانية وضرب الصياد في صدره، لكن الصياد تفاداه وضربه بصخرة على رأسه فسقط قتيلاً، ووجد بعدها الكشافات الضخمة توجه ناحيتهم، وتكشف موقعهم، فانتبه إلى حقيبة جلدية كانت مع الجندي، وفتحها وعثر على الكثير من القنابل اليدوية، وظهر من بعيد جنود كثيرون يركضون ناحيتهم بالأسلحة، ودوت صافرات الإنذار الحمراء في الجزيرة بصوتها المزعج، وصاح الصياد في الضباط بالركض خلفه ناحية خندق أمامه صخرة ضخمة جدًا وطويلة، وأصيب ضابط بطلقة نارية في قدمه فسقط، ورفعه الصياد على منكبيه وركض به.

***

على سطح السفينة وقف المعظم بمفرده وتابع بالنظارة المعظمة الجزيرة من بعيد، ورأى جلبة غريبة وحالة من المرج غير مفهومة، فخفق قلبه، واستشعر بالخطر يدق أبوابه، ويتحرش بالضباط والصياد، فأنزل النظارة والتف بقدميه واصطدم برجل ملثم ويوجه ناحيته سيفه، تراجع المعظم للخلف ولف سطح السفينة بعينيه، فلم يز الضباط والحراس لأنهم نزلوا إلى باطن المركب للاحتماء من الأمطار الشديدة، فسحب سيفه وبارز الرجل، وسقطا من مياه الأمطار، فسدد له ذلك المجهول ضربة كادت تفصل رأسه لولا أنه حركها، وصاح:

-يا حراس، يا حراااس.

لكن صوت البرق والرعد في السماء كان عاليًا، ويصم الآذان، فوثب المعظم على الملثم، وضربه بيديه، فنزفت أنفه، وركض هربًا من المعظم، لحقه الثاني وقطع رأسه بالسيف، فسقطت على سطح المركب الخشبي، واختلطت الدماء بمياه الأمطار، وركض المعظم ناحية باطن المركب وصرخ:

-يا حراس، يا ضباط، أيها القبطان أين أنتم؟

سمع المعظم بعدها صوت طرقات قوية على باب قاعة الطعام، فنزل على أدراج خشبية وسار في الممر المؤدي إلى الغرف وقاعة الطعام، ورأى شخصًا ملثمًا يقف أمام الباب، ويتأكد من إغلاقه بالمزلاج، فانقض عليه المعظم وقطع ساعده الأيمن بالسيف، وأمسكه وسأله بحزم:

-من أنت؟ وكيف جئت إلى هنا؟

رفض الرد، وحاول الهرب بقدمه إلى الخلف، وأصاب المعظم بجرح في ذراعه الأيسر بخنجر صغير، فاغتاظ، وقطع رقبته بالسيف، واستند على الحائط، ووقف وفتح مزلاج باب قاعة الطعام، فخرج منها الضباط والحراس وقبطان السفينة في ذعر شديد، واطمأنوا على المعظم، واستمعوا إلى صوت جسد يتخبط فوق سطح السفينة، فركضوا جميعًا إليه، ووجدوا الضابط الذي أرسله الصياد، ولما صعد المعظم، قال له الضابط وهو يلهث من فرط الإرهاق وجسده مبتل ويرتجف:

-ألقي الفيل في المياه.

انفتحت عين المعظم على آخرها، وأمر ضابطًا كان بجواره بتنفيذ خطة الفيل بسرعة شديدة، وفي هذه اللحظة أصيب حارسان كانا يقفان عند حافة المركب بسهمين، فركض الحراس بأسلحتهم إلى حافة السفينة الأمامية، ووجدوا مركبة محملة برجال ملثمين تبتعد عنهم، فأمر المعظم بإطلاق الأسهم المشتعلة عليها، لكن سرعتها جعلت إصابتها مستحيلة.

***

ظل الصياد والضباط يحتمون بالصخرة ويجثون على أقدامهم في الخندق والطلقات النارية تطلق عليهم بكثافة، فسحب الصياد فتيل قنبلة يدوية من الحقيبة وانتظر لثوانٍ ثم ألقاها، فانفجرت في الجنود القريبين منه، ولم ينتظر فألقى بالثانية ومات عدد أكبر، ولحقت الإصابات بعدد آخر، وتراجع باقيهم وارتكزوا في خنادق محفورة في الأرض، وأطلقوا وابلًا من الرصاص على الصياد والضباط، فاختبأ يسار الصخرة الضخمة ووضع فوهة البندقية الآلية «إم جي ٣٤» التي كانت مع الجندي الذي قتله، في ثقب واسع مطموس في الصخرة، وضغط على الزناد، فكان خفيفًا وسريع، واندفعت الطلقات عبر ماسورة البندقية، وأصابت ثلاثة جنود في صدورهم كانوا يقتربون بخبث من الصخرة، ووضع الضباط أياديهم على آذانهم من شدة صوت الطلقات النارية المندفعة من الجهتين المتصارعتين، وفرغت الطلقات من الصياد فجأة، فبحث عن حزام طلقات ولم يجد، فأمسك بقنبلتين وشد فتيلهما، وانتظر ثم ألقاهم، فانفجرا في بعض الجنود، وهرب الباقي إلى خندق بعيد يتوارى خلف مجموعة من الصخور الصلبة، والأسلاك الشائكة الحادة، والتفت الصياد للضابط وقال:

-أعدوا الأسهم في الأقواس، وتفرقوا بشكل متوازي خلف هذه الصخرة، وانتظروا إشارتي.

اصطدم الصياد بقنبلة تنفجر على مسافة منه، وصاح في الضباط ليطلقوا الأسهم عندما رأى عشرة جنود يتحركون على بطونهم مثل الحيات ويدنون منهم، فأصابت الأسهم نصفهم، وهرب الباقي للوراء في الخندق البعيد، وألقى عليهم الصياد قنبلة فشلت في إصابتهم. وبعد وقت شحيح، اندهش الصياد لما رأى جنودًا يضعون فوق تلة مرتفعة بالقرب من الأبراج الثلاثة القاذف «نيبل فيرفير» الذي يحمل في جسده الصلب ستة مخارج للقاذفات، يطلق منهم قاذفاته في أسرع وقت، ليدمر الطائرات والأجسام الصلبة، ووضعوا مخارجه الست في مواجهة الصخرة الضخمة حليفة الصياد ومعاونيه، فصرخ في الضباط:

-اهربوا إلى البحر فورًا.

ووضع جندي قصير القاذفات في المخارج من الخلف، وأعد نفسه للإطلاق، وهرب الضباط إلى البحر، وظل الصياد واقفًا يتابع وقلبه يخفق بشدة، وقبل أن يطلق الجندي ظهرت فجأة في السماء مجموعة ضخمة من الأسهم المشتعلة، وسقطت على الجنود فقتلت منهم الكثير، وركض الباقي كالمجانين، وتصايحوا بالألمانية، وأشار الصياد للضباط بالاقتراب منه، وراح يجذب فتيل القنابل اليدوية ويقذفها على الجنود الذين كانوا يجرون في كل ناحية، ويحاولون التصويب بأسلحتهم ناحية الصياد، لكن الأسهم كانت تطير في السماء بعلو شامخ، وتسقط في أجسادهم البيضاء وتلوثها بالدماء والفزع. ونظر الصياد ناحية الأبراج الثلاثة فكانت تحترق وجنودها قتلى، ودنت السفن الثلاث الكبيرة من الجزيرة وتوقفت عند مسافة مناسبة، وظلت الأسهم المشتعلة تحلق في سماء الجزيرة، وأمر الصياد الضباط بإطلاق الأسهم التي معهم كلها، وكانت الطلقات النارية تدوي بصوتها العالي في الجزيرة، والجنود الألمان يموتون، ومن يهرب من شبح الموت تُصيبه الأسهم في جسده، فيسقط على الأرض ويدخل في وصلة طويلة من العويل والاستنجاد، ومع الدفعة الأخيرة من الأسهم المشتعلة كانت النيران تلتهم أجزاء كبيرة من الجزيرة، وتبقى حوالي عشرين جنديًا هرولوا جمعيهم ناحية مخبأ في الأرض، ونزلوا فيه ثم أغلقوا بابه، وتابعهم الصياد، ومرر عينيه على الجزيرة وتأكد من انتهاء خطر الجنود الألمان، فأمر الضباط بالانتشار في المكان، ودنا من الأبراج الثلاثة، وأشار بيديه إلى المعظم، فأمر المعظم القوات الملكية بالقفز في المياه، بعد إلقاء القوارب الصغيرة التي استعجب منها الصياد قبل قتل «الجراكو»، ورفض أن يسأل المعظم على أمرها. وسبح الجميع حتى وصلوا إلى الجزيرة، وكان معهم المعظم الذي دنا من الصياد وسأله عن مكان الأسلحة، فأخبره بضرورة استكشاف الجزيرة، فقسم المعظم الحراس والضباط إلى فرق، وطافوا في الجزيرة بحثًا عن الأسلحة، لكنهم لم يعثروا عليها، مما دفع الصياد إلى التفكير في مهاجمة الجنود المختبئين أسفل الأرض، لأنه لربما تكون الأسلحة موجودة عندهم، فأخذ

بندقية آلي كانت تتعلق في جثة جندي، وسحب معه بعض الضباط، وقسمهم ناحية اليمين واليسار من باب الخندق الخشبي، وثبت فوهة البندقية وأطلق وابلًا من الرصاص، وتفجرت مع الطلقات صرخات عالية من الجنود المختبئين، وفرغت الخزنة، فرمى البندقية، وتنحى جانبًا، وفتح الباب وألقى بقنبلتين، فركض من الباب ثلاثة جنود فتلهم الحراس بالأسهم، وانفجرت القنبلتان، ومات الباقي بالداخل، ودخل الصياد للمخبأ بحذر بعدما أخذ بندقية آلية جديدة، وتأكد أن خزنتها معبئة بالرصاص، وكثب خلفه بعض الضباط والحراس، ونزل على أدراج خشبية، ثم سار في ممر ضيق أرضه امتلأت بجثث الجنود وأشلائهم، وكانت الرائحة مقززة جدًا، فوضع الصياد ملابسه على فمه، وتقزز من نفسه لما وطئت قدمه جثث الجنود، وفي نهاية الممر الضيق، دلف يمينًا إلى غرفة واسعة، اصطدم فيها بجندي يقف خائفًا وتبول على نفسه، وكان نحيفًا وله ذقن صفراء وشعر طويل وعين خضراء، ورجا الصياد العفو عنه بالألمانية، فسلمه للحراس وأخرجوه من الخندق، وتأمل الغرفة، فكانت مزدحمة بالأسلحة المختلفة الموضوعة فوق رفوف من الحديد والخشب، وتشبه رفوف المكتبات الضخمة، وتنوعت الأسلحة بين قنابل يدوية مصفوفة فوق بعضها بأعداد رهيبة، داخل صناديق خشب، وبنادق آلية، ومسدسات بأحجام مختلفة، وقنابل يدوية عصوية، وبنادق قاذفة للقنابل، وبنادق قنص، وألغام أرضية، وذخيرة كثيرة للغاية. وخرج الصياد من المخبأ وأمر الضباط بعدم مساس هذه الأسلحة، وطلب منهم إخراج الجثث والأشلاء من الممر، لتسهيل عملية نقل الأسلحة، ونفذوا طلبه في وقت سريع، واختار فريق من الضباط، وشرح لهم طريقة التعامل الصحيحة مع الألغام، والقنابل اليدوية، والأسلحة الحساسة، كي لا تنفجر فيهم، مُتعكزًا على خبرته التي تعلمها من الإنجليز في معسكراتهم.

ونقل الضباط الأسلحة في حذر شديد، ووضعوها فوق القوارب الخشبية الصغيرة، وسبحوا بها في المياه، ونقلوها على السفن الثلاث، وأثناء نقل الأسلحة طلب الصياد من الحراس صنع حفرة كبيرة في الأرض، ودفن جثث الجنود والضباط الألمان فيها، وجمع أسلحتهم، ووضعها مع الأسلحة

الثانية، ونقل جثث القوات الملكية الذين قتلوا أثناء الاشتباك، إلى السفن. وكان الهواء في الجزيرة قويًا، وباردًا ويعرقل الحركة، لكنهم عملوا ما بوسعهم. ولما انتهى كل شيء، ذهب الجميع، ومشط المعظم والصياد وفرقة من الضباط الجزيرة، ليتأكدوا أن كل شيء يحتاجونه أخذ، والجثث دفنت في الحفرة. وبعدها سبحوا في المياه حتى وصلوا للسفينة، وأمر ابن الملك القباطنة الثلاث بالعودة إلى الجزيرة. ولما سأله «تومكس» كيف يعرفون الاتجاهات في المياه؟ لاذ بعيدًا، وذهب إلى غرفته، ليستريح.

***

بزغت الشمس في السماء عالية، وكان ضوؤها مفضضًا وينطلق باتجاه البحر وما يحتويه، وما يعتليه، وخمد عراك الأمواج، وتعاضدت الطبيعة، وانتصبت درجة الحرارة، ففاض البرد، وسارت السكينة في نفوس طاقم الثلاثة سفن، وبدل الحراس مع بعضهم، فارتاح مجدفين الليل، وعمل مجدفو الصباح بهمة ومثابرة، وكانت السفن تشقّ المياه وتدنو من الأوصال الخفية لجزيرة الجد الأعظم. وكان المعظم ينام بظهره في غرفته، ويلامس بأنامله جَرح ذراعه الذي صنعه المجهول بالأمس، وابتغى قتله، لولا أنه كان منتبهًا. وباغته شعور بزوال مُلك الجد الأعظم من غزارة الدسائس، والمؤامرات، والقتلى المأجورين، فصلى للجد الأعظم بفؤاده، وحاول إرساء الهدوء في جوانحه المُلبدة بالخوف، وترقب الفواجع. وسمع فحيح أقدام خلف الباب، فوثب وأمسك سيفه استعدادًا، وطَرق الباب، ودلف الصياد، وقال بأدب:

-تسمح لي بالجلوس معك؟

-بالطبع، تفضل.

-سنعود إلى الجزيرة بعد يومين، وترتيبات التدريب وما سنقوم به وضعتها على الورق وينقصنا التنفيذ، لكن بداخلي بعض التساؤلات المهمة، هل سمحت بها؟

-تفضل.

-قبل حديثي، أردت الاطمئنان على ذراعك، وقد علمت بما وقع.

-لا عليك، اسألني ما تريد.

-ما سر احتفاظكم بـ«الجراكو» السنين الماضية؟

-كان عقابًا عظيمًا لمُخالفي القواعد، واستخدمناه لسنوات في إرهاب المُذنبين، والسارقين، والمُقصرين، والراغبين في الخروج من الجزيرة.

-وكيف جاء إلى الجزيرة؟

-ما لي بذلك؟ ولكني سأجيبك، لا أعلم، كل ما أعرفه أنه موجود منذ قدوم الجد الأعظم إلى الجزيرة.

-لمَ يُعاقب الراغبين في الخروج من الجزيرة؟

امتقع وجه المعظم ورد:

-لأن الجد الأعظم خلقنا داخل هذه الأسوار، وحذرنا من الخروج، فلا نقع فريسة لكائنات الظلام.

-التي تُحاربه، وتحاربكم دومًا؟

-أصبت، يحاربوننا لأن الجد الأعظم خلقهم قبلنا، ثم خلقنا وميزنا عنهم، وأمرهم بطاعتنا، وتلبية احتياجاتنا، فأبوا أمره، وتهكموا عليه، وحاربوه بنيرانهم، فقضى عليهم بسيفه، وجعلهم أقل ضعفًا، ولجمهم خارج أسوار الجزيرة، لمحاسبتهم في يوم القمر العظيم.

تذكر الصياد كلام زوجة الحامي عند النهر، عن الجزيرة والجد الأعظم، ويوم القمر العظيم الذي ستعود فيه الأجساد الطيبة، وستعذب الأجساد الشريرة مع كائنات الظلام في مكان واحد.

-مَن هو الجد الأعظم؟ ولماذا خلقكم في هذه الجزيرة، وفصلكم عن

العالم؟

قطب المعظم حاجبيه، وسأله:

-ماذا تقصد بالعالم؟

-مصدر وجودي معك.

-هل تريد العودة للإسكندرية مرة ثانية صحيح؟

خفق قلبه، وقال بسرعة:

-بالطبع.

-لا تسأل كثيرًا.

تفصد عرقًا غزيزًا، واستنشق رائحة عرق خفيفة تنبعث منه، وانبلج الاضطراب عليه، وارتجف جسده.

-صحيح ما اسمك؟

-حودة تومكس.

-ها ها ها، الحقيقي أم لقبك؟

-الحقيقي حسام عبد الجليل.

- وحودة تومكس؟

تبسم الصياد رغمًا عنه، وكانت ذاكرته تُراجع سِنيه الماضية مع سماح ومرعي، ورد رغمًا عنه:

-حودة مستنبط من حسام، أما «تومكس» فكان ذلك لقبي عند الإنجليز، أطلقوه علي لأنهم وجدوني خير من تعاملوا معه، فكنت أجلب لهم الطعام والمشروبات، والعصائر، والكحوليات، والفتيات، وأنجز مهامهم الصعبة، ومتطلباتهم المستحيلة بإتقان وسرعة، فسموني «تومكس» حبًا في فيلم كارتون مشهور عندهم، يتكلم عن فأر قوي وسريع وذكي وتهابه

الحيوانات، ويستثمر طاقته وقوته في مُساعدة الفئران الفقراء والمحتاجين، ومَن يتعرض لهم بالشر، يكون مصيره العذاب والموت، لذا أحبه ملك الفئران، وزوجه من ابنته الجميلة، وأنجب الفأر ثلاثة فئران ذكور، حملوا ملامحه. وفي يوم شتوي سيئ تعرض لمأزق شديد وحاصرته قطتان لقتله، وأكله، وتصارع الثلاثة أسفل مياه الأمطار، وصوت البرق، وقتل «تومكس» قطة، وهربت الثانية فزعًا، فزادت شهرته بين الفئران، وعرف بقوته الخارقة في الأزقة البعيدة عنه.

-الإنكليز؟

-الإنجليز لهم قصة كبيرة، المهم أنك علمت أسمي، ما اسمك الحقيقي؟

-المعظم الصغير يا «تومكس».

ضحك المعظم، فصمت الصياد للحظات، وسأله بقلق:

-ما هي حادثة الباب العالي؟

هربت الفرحة من عين المُعظم، وعاد له الضيق من جديد.

-اعذرني، أنا أ...

-سكان الجزيرة غير مسموح لهم الخروج، ومسموح به فقط للقوات الملكية، بالأخص لجزء معين يعمل في حرفة الصيد، وغير مسرح لأحد بالسباحة أو السفر، أو معاينة البحر. ومنذ عام تصدع جزء من السور المُحيط بالجزيرة، يسمى بالباب العالي، لأنه أعلى منطقة في السور، وبه باب خشب ضخم صنعه الجد الأعظم بيده، ويخرج منه الصيادون، ليعملوا في البحر، ثم يعودوا قبل الليل، وفي أحد الأيام سقط الباب وجزء من السور، فثار بعض السكان على الملك، وطالبوه بالخروج واكتشاف البحر، وقالوا إن السور تصدع وسقط، ولم يحمِه الجد الأعظم، ولم تهاجمهم كائنات الظلام، مما يعني أن الجد مُجرد أسطورة، ولا توجد كائنات ظلام من الأساس، ولم يكن هناك حل سوى ردعهم بالقوة، فقبض عليهم الملك ووضعهم في السجن، وقدمهم وجبة دسمة لـ«الجراكو» أمام الجميع،

وشاهد السكان أحباءهم وأقاربهم يصرخون ويموتون على يده، فثار جزء كبير منهم، وكسروا مناطق مهمة في الجزيرة، وقتلوا مسئول منظمة الأمن السابق وبعض الحراس، والضباط، وأيقن الملك أن ذبح الأبقار خير حل لتهدئة السكان، فذبح الكثير من الأبقار ووزع لحمها على السكان، واعتذر لهم عن ما بدر من قمع لرغباتهم، ووعدهم بمحاسبة المسئولين عن سقوط الباب العالي، وسلم لما قاله الحاكم الثالث، واتهم فيه حامي الجزيرة «الناظري ابن بيقاع»، بأنه اندس في بيت الملك واتفق مع كبيرة خدم البيت العظيم، وضابط كبير، لهدم جزء من السور، وزعزعة الاستقرار، ومحاولة قتل الملك والسيطرة على حكم الجزيرة، وأصدر الملك أمره بإرسال الثلاثة لـ«الجراكو» وقتلهم دون دليل على إدانتهم، فتدخلت أنا في الخفاء، وأنقذت الحامي، ووضعته في جزء مخفي من السجن، لا يدخله الحراس إلا بإذني، وأعلمت مسئول منظمة الأمن الجديد بذلك، دون أن يدري أنني أعرف، حيث كتبت له ورقة سرية، ووضعت عليها ختم الملك، وقولت فيها «اعتني بالحامي فقد نحتاجه يومًا» ، وبعد خمسة أشهر أعلمت الملك بأن الناظري مازال حيًا وسنحتاجه قريبًا، وبالفعل جاء ذلك اليوم واحتجناه، ووقتها أظهرت أمام مسئول منظمة الأمن أنني لا أعرف أنه ما زال على قيد الحياة لعدة أمور سرية.

-أحيي ذكاءك، ولكن لماذا يرفض السكان الحديث عنها؟

-لأن الكلام عنها مُحرم، ويقع قائله تحت طائلة المُحاكمة، وقد يُقتل منعًا لإثارة السكان.

وقف المعظم وتمطى، فسأله:

-الحاكم الثالث تسبب في الحادثة صحيح؟

-أمضينا وقت طويل وأحتاج للنوم.

-عندك حق، فلتسمح لي بالذهاب إلى غرفتي.

أشار له وكان مُبتسمًا، فخرج الصياد من الباب وأغلقه، والأسئلة الكثيرة

تقفز في عقله مثل الأرانب، وتصيبه بالصداع.

***

غمرته المشقة، فنام على ظهره، والتحف بدثار خفيف، ولما فتح جوهرتيه عاين نفسه صغيرًا في الخامسة عشرة من عمره، ويقف في ساحة تدريب القوات الملكية الواسعة، ويرتدي سروالًا قصيرًا من الجلد وباقي جسده عارٍ، ويُبارز بالسيف مُحاربًا يافعًا وشديدًا، وحليق الرأس، صمد أمامه لوقت جيد، فاشتد عوده، وساخ في العرق، وثابر حتى تعثر في حجر وسقط، فوضع المُحارب السيف عند عنقه وقال:

-التعثر عند الدفاع عن نفسك يعني هلاكك، ارتح قليلًا لنكمل دروسنا.

وثب المعظم الصغير، وأمسك بسيفه وصاح في المُحارب:

-بارزني لا ترحل.

تبسم المُحارب وعاد إليه، وبارزه، فأظهر المعظم جانبًا قويًا من قدراته، وكان يتحرك بخفة مثل الريشة، وسقط مرة ثانية، فاحمرت عيناه وكادت تنفجر من الغضب.

-الغضب وقت المُبارزة يعني هلاكك، قف أيها المُعظم ولتأتِ معي لاستكمال دروس العقل، فالمبارزة والقتال يعيشون في رحم العقل لا القوة.

مدَّ المُحارب ساعده للمعظم، لكن الثاني أبى واستند بجذعه على الأرض وانتصب. وضع المُحارب ساعده على منكب المعظم، وسارا معًا، واقتربا من عملية تدريب شاقة يقوم بها مجموعة من الحراس والضباط، وهربا من ضوء الشمس العنيف بالجلوس أسفل شجرة عالية وضخمة، وأوراقها خضراء وكبيرة، وتابع المُعظم تدريب مهم لضباط يقفون بشكل نصف دائري، ويشهرون سيوفهم لفوق، وخلفهم ضابط له خمسون ربيعًا ويحمل ملامح جادة، وفي الجهة المقابلة تسمرت مجموعة من الحراس وأشهروا سيوفهم أيضًا في وجوه الضباط، وبدأ القتال، وارتفع صوت السيوف

اللامعة، الحادة، وكانوا يتدربون ببسالة كأنهم في نزال حقيقي، واستمر التدريب لوقت طويل، ثابر فيه الضباط والحراس، حتى فقد الحراس قوتهم، وفرض عليهم الضباط سيطرتهم، وأخذوا منهم سيوفهم، ولاحظ المعظم اختفاء الضابط الخمسيني، فسأل المُحارب:

-أين اختفى الضابط الكبير؟

-طار مع الطيور.

-ماذا؟

-طار مع الطيور لتهدأ الأوضاع ويعود بعدها من جديد.

-؟؟؟

-وجهك الصبوح مليء بالتساؤلات، حسنًا هذا جيد، الأيام أيها المعظم تحمل دائمًا لملك الجزيرة السيئ والجيد، وقد تقع بعض الاضطرابات أو محاولات الاغتيال، وفي بعض الأوقات تتطلب الأمور اختفاء الملك لوقت حتى تهدأ الأحداث، ويعود من جديد بلا خطر يُهدد حياته ويبسط سيطرته.

-هل حدث ذلك من قبل في جزيرتنا؟

-حدث مع أبيك الملك.

-وماذا فعل؟

-طار مع الطيور.

-وإن لم يطِر؟

-يُطَيرهُ السكان.

-ولِمَ لا يقف ويواجه ببسالة بدلاً من الهرب؟

-في بعض الأوقات الخطيرة المواجهة تجعل الأمور أكثر سخونة، وذاكرة

سكان الجزيرة لا تصمد طويلاً أمام اللحوم، ويتناسون بمرور الوقت التحريضات الكاذبة التي تضر بمصلحتهم.

- ولماذا يوجد محرضين ووالدي يوفر لهم كل سُبل الراحة؟

-كائنات الظلام تبتلع العقول، وتغمر العيون بالسواد، فتعميها عن ما يقوم به ملك الجزيرة من خيرات... دعك من التفكير في مثل هذه الأمور، عليك الآن بالراحة، يومنا انتهى.

-حسنًا.

***

مرَّ يوم ونصف على رحلة العودة إلى جزيرة الجد الأعظم، ولم يستكن الصياد، وكان يجلس بالساعات أمام الأسلحة ويجرب بعضها، بل وصل الأمر إلى أنه كان ينتقل بين الثلاثة سفن، ليتمم ويدون ملاحظات مهمة عن استخدامات الأسلحة وطريقة عملها، وتابعه المُعظم بفرحة مكتومة، ونَفْس تميل إلى الجلوس على عرش الجزيرة، فيكون الملك الرابع الذي يحكم بعد والده، وجده، والجد الأعظم. وقبل الوصول إلى الجزيرة بلحظات قليلة انفرد الصياد بالأسلحة، وجالت ذاكرته في أيام قديمة مَرّت، عمل فيها مع الإنجليز، بعد مَقتل والده الذي منعه دومًا من التعامل معهم، وحرم مالهم، ولم يَكل من وصفهم بالمُحتلين، فكانت وفاته تُمَثل انفراجة، وباب رزق جديد بدلاً من الاعتماد على الصيد فقط. وبعد عدة سنوات غنم الصياد بثقة الإنجليز، وفضل العمل مع مُعسكر تابع لهم في محطة الرمل، وأصبح يجلس في المعسكر كثيرًا مع الضباط والعساكر أثناء غياب قائدهم، ويتجرع معهم النبيذ، ويدخن السجائر، ويقتني مالهم الفياض الوفير، بالأخص عندما يجلب لهم أفضل أنواع الأسماك الطازجة، والنبيذ المعتق، وكان يتدرب معهم ويتعلم كيفية الدفاع عن النفس، ومن ثم اتجه إلى تعلم استخدام المسدسات، والبنادق، والقنابل اليدوية، وحتى طريقة تركيب الألغام الأرضية. ولما وصل لذروته في خبرة الأسلحة، بدأ في الاتجار بها، وكان يخرج ليلاً بحجة الصيد، ويقابل رجال المعلم

دسوقي الضبع فتوة منطقة القلعة، ويأخذ منهم مسدسات وبنادق مهربة ومسروقة، ويبيعها إلى التنظيمات السرية، والملاهي الليلية للحراسة، والمصانع، والدكاكين، ولرجال المعلم حميدو، مما وطد علاقته أكثر من السابق بحميدو. وكبر الصياد، وكان معه مال وفير، لكنه كان يصرفه سريعًا، ويقول في باله: «المال الحرام مثل الثلج، سريع الذوبان».
وتوطدت علاقته ببدرية التبع، بعدما باع لها شحنة كبيرة من المسدسات «اللوجر»، ووزعتها على بيوت البغاء التي تملكها لحمايتها من اللصوص، والفاجرين، وكانا يتقابلان ليلاً كل خميس. وقضى معها ليالي لم ينسها، حتى شعر بالملل بعد مدة، فبحث عن غيرها، وكانت معاملته لسماح وابنه فائقة الاحترام والتقدير، حتى إنه ذات مرة سأل نفسه كيف يتعامل بهذه الطريقة معهما، ويتعامل بشكل متناقض في الخارج؟ وتيقن أنه مريض، ويحمل بداخله شخصيتين، إحداهما خطيرة، والثانية هادئة، وعنوانها الورع الدائم، وتظهر هذه الشخصية عادة حينما يكون في بيته مع أسرته، وتختفي بمجرد نزوله إلى الحارة، واختلاطه بالإنجليز، والمجرمين. وبعد أربع سنوات توطدت علاقته بـ«شندويلي» قريب حميدو، وذراعه الأيمن، وتوسع نشاط تجارة الأسلحة على يدهما، وابتلعا الإسكندرية، ولما حاول رجل يدعى الحاج نعيم العطار الدخول في سوق السلاح، لقى قوتهما حائلاً يمنعه، فاستشاط غضبًا، ودفع الكثير ليشتري رجلاً يساعده، لكنه فشل في نهاية الأمر، ووجد قوة حميدو تظلل الصياد و«شندويلي»، ولما صمم على عناده في دخول سوق السلاح، مات متأثرًا برصاصة أصابت رأسه ليلاً.

***

الفصل السادس عشر

سرقه الوقت البهيج مع زوجته وابنه، وغاب عن وعيه بالجزيرة ومسئولياته تجاهها، وكان يغوص ليلاً في بدانة زوجته السمراء، وفي الصباح يتنزه مع ابنه في الحديقة الصغيرة القريبة من بيته، ثم يعودان، ويتناولان الطعام، والفاكهة، ويجلسان في الحجرة التي تظل نافذتها على

السور، ويتناغمان بالهواء القوي الآتي من البحر، والأحاديث الطويلة. ولم يطلع على كتاب «القدماء»، لمعرفة ثناياه الخفية حول البوابة التي أغلقها، ورجع بعد إغلاقها البحر لمكانه الطبيعي، وعاد الاستقرار لأرض الجزيرة بطيئًا، ومملاً، تضربه الدواهي والبلايا، فتهشم أطرافه، لكنه عاد في النهاية. وفي الليلة الرابعة لخروجه من السجن وإغلاقه للبوابة، استيقظ قبل الفجر بساعات، بسبب كابوس مزعج، كان فيه «الجراكو» يركض وراءه ويبتغي قتله بأسنانه، فقفز في مياه البحر وسبح وابتعد عن الجزيرة، وشاهدها تحترق من بعيد، ويطمسها البحر في طياته، ولما التفت ليكمل هربه، تذكر أنه نسي أسرته في الجزيرة، فحاول العودة لها، وأثناء سباحته، سحبته أذرع ضخمة وسوداء للقاع، ووُضِعَ بأيادٍ خَفية داخل قفص حديد في قاع البحر مليء بالثعابين، وأسماك القرش، ويظلله من فوق أخطبوط أحمر ضخم، ويضع مجساته الطويلة على القفص. ولما فتح فمه وصرخ في المياه، ضربه الأخطبوط، وسارت قشعريرة مريرة في جسده، ثم انعدمت الرؤية، ولما عادت كان الخراب يلوك قاع البحر بأسنانه الحادة، فماتت الكائنات البحرية، واحترق الأخطبوط، وامتلأ قاع البحر بدماء غزيرة غطت الرمال والصخور، والشعب المرجانية. وانعدمت الرؤية للمرة الثانية، ولما عادت وثب «الناظري» من سريره وقلبه يخفق، وجسده يتفصد عرقًا شديدًا، ونظر بجانبه فكانت زوجته تغط في نوم عميق، والجزيرة هادئة، ارتدى ملابسه، وسحب كتاب «القدماء»، وأزال مزلاج باب بيته، وأخذ وعاءً مشتعلًا، ودلف إلى شجرة قريبة وضخمة، وحولها أعشاب خضراء قصيرة، جلس أسفلها ووضع الوعاء بجانبه ليضيء له، وفتح الكتاب وتصفحه بقلق. كان الكتاب كبيرًا، وصفحاته صفراء ولا تزيد عن المئتين، وغلافه من الجلد الأسود، ومكتوب عليه «القدماء» بخط أسود منمق، وبخط رقيق وصغير «منظمة أرون»، وكان الكتاب مكونًا من أربعة فصول، مقدمة ضك بوابة القدماء، والعظيم أرون، وغربلة سيد الأكوان، وطقوس انبلاج بوابة القدماء. وبعد ثوان بسيطة بدأ «الناظري» قراءة في الكتاب، بالفصل الثاني، لأنه قرأ الفصل الأول وقت إغلاق البوابة.

***

العظيم أرون

كما أن للسماء سكانها من الطيور الجارحة الحرة، للأرض اليابسة الصلبة سكانها المسجونين بربطات الطياشة الطالحة، الناجمة من المعتقدات المُغايرة، فكل طائفة تعتنق ما تراه حصيفًا ولا جدالاً فيه، ولا حائلًا يمنعهم من التصارع لإثبات أحقية وقوة وحقيقة كل طائفة عن غيرها، لذا تضطرم النيران في البيوت والشوارع، وتنال الأيادي اللعينة من الطيب والشرير، ويتهاوى الرجال، ويصبحون جثثًا تتعفن، ويأكلها الدود، ولا تدفن انشغالاً بالصراعات الدؤوبة، الحقيرة، مُتدنية الأهمية. ولدث في الجليل بعد ميلاد المسيح بسبعة قرون ونصف، لعائلة يهودية في يوم صيفي قائظ، ظلت فيه الشمس قاسية، وثابتة في السماء، حتى جاء القمر بجنوده الليلية وقاتلها مثلما تتقاتل الطوائف، ودحض أشعتها الصيفية الحارقة. انبلجت السعادة في بيتنا الواسع، وتفاخر بي أبي بين سكان مدينة الجليل، لأنني أول ذكر ينجبه، بعد ثلاثة فتيات. ومع ولادتي زاد عدد الصيادين العاملين أسفل يد والدي، واغتنى أكثر، فانتقلنا إلى بيت أرقى، مكون من طابقين، وله باب خشب ضخم، وخمس نوافذ من الخشب الزان، وحديقة تحاوطه من جميع الجهات، وحظيرة رحبة للماشية ناحية الشرق، تتقدمها أرضًا زراعية منبسطة وتفتح يدها، وترحب بالقادمين ناحيتها، وقرر والدي زراعتها بالفواكه على مدار العام، ومع جمع المزارعين لكل محصول فاكهة، كان يسافر بنفسه إلى المدن القريبة، ليبيع المحاصيل بنفسه إلى التجار. وفي بداية نبوغ عقلي وإدراكه لماهية الحياة، أرسلني أبي للتعلم من الطبيب النابه «إسحاق السامري»، الذي كان يبلغ من العمر وقتها خمسين عامًا، وكان شعره أبيض، وعينه زرقاء، ولسانه جاف عن الكلام المعسول، ولم أرَ أحدًا يبارزه في الذكاء، والخبرات الجسيمة في العلوم المختلفة، مثل الهندسة، والفلك، والطب، وكانت علاقته بالملك وطيدة، خاصة حين شفاه من مرض غامض سكن جسده، لعامين ونصف. وكنت أذهب إليه ثلاثة أيام في الأسبوع، لأتعلم الطب

والهندسة، وعلوم الفلك، وشئون التجارة والزراعة، حتى أتممت عقدي الثاني، ولم أعد أذهب إليه، ولا أسأل عنه، وبادلني نفس المُعاملة. مرت سنواتي العشرون الأولى هادئة، مفعمة بالراحة والسكينة، وقد أحببت القراءة في كافة المجالات، وكل كتاب يقع في يدي أنهيه، وأدون ملخصًا في صفحة واحدة عنه، فاتسع عقلي، وكبرت معرفتي بالعلوم والتاريخ والطب والهندسة والفلك. ورفضت تصديق حقيقة وجود خالق أو صانع للكون، بعدما رأيت الشر يُحدق في مدينتي، وسائر المُدن المجاورة، بسبب الخلافات الطائفية، وكان الأقوى دائمًا هو المُسيطر، بلا رادع. وأيقنت أن مفهوم العدل الذي علمني إياه «إسحاق السامري»، ما هو إلا كلمات كاذبة لا تتحقق على أرض الواقع الأليم، ويتغير هذا المفهوم على حسب قوة مَن يَحكم. وطمست رفضي لوجود خالق عن أسرتي كلها، حتى لا أقع في جدالات حادة تنتهي لصالحهم. لم أعانِ يومًا من شيء، إلا النيران التي كانت تتأجج كل يوم أسفل معدتي، وتسوقني كالحيوان ناحية المكان المخصص لقضاء الحاجة، لأختلي بنفسي، وأعرقل حركة النيران في جسدي. وذات ليلة انتبهت إلى فحيح أقدام يمر من أمام حجرتي، فوثبت وفتحت باب الحجرة، ورأيت والدي البدين يرتدي ثوبًا أبيض ثقيلًا ويُناسب برد الشتاء، ويسير على أطراف أصابعه، ويتلفت حوله مثل اللصوص، تبعته دون أن يدري، ورأيته يدخل إلى الحجرة التي تنام فيها خادمات بيتنا، ويغلق خلفه الباب، فاقتربت من الباب، ووضعت أذني عليه، وسمعت صوت تأوهات، ذكرتني بتأوهات أمي التي كنت أسمعها في العاشرة من عمري، عندما كان يأتي أبي من سفر طويل ويختلي بها. عدت إلى غرفتي وضربتني النيران، ولكن هذه المرة فاقت ما لي من قدرة احتمال، فتلصصت على والدي وانتظرته بشغف شديد، حتى عاد إلى حجرته، وركضت ناحية الخادمات، فزادت النيران مِن ركضي، وفتحت الباب ودخلت، وأغلقته بهدوء، كي لا يحدث صوتًا، كانت الحجرة واسعة ومقسمة إلى حجرات أصغر، ولكل حجرة سرير تنام عليه خادمة، اصطدمت بوجهي في شعر طويل وناعم وله رائحة مغرية، كان شعر «أريلا» كبيرة الخدم، التي دائمًا تسير مع أمي وتحمل أسرار بيتنا، وكانت

في الأربعين من عمرها، ولها عينان سوداوان، وبشرة بيضاء، وجسدها ممتلئ، وترتدي ثوبًا قانيًا مشقوق عند صدرها، وقَبل نهاية ساقيها. ابتسمت لي، وقالت بصوت عذب:

- يا سيدي، ماذا تريد؟

قلت واللعاب يهرول من فمي مثل طفل صغير:

-لا أدري.

ضحكت، فأثارتني أكثر، وتفصد جسدي عرقًا، لم أرَ مثله مِن قَبل طوال حياتي.

-أنت جائع؟ أحضر لك طعامًا؟

هززت رأسي بالإيجاب، فسحبتني بأطراف أصابعها للخارج، واستنشقت عطرها الهادئ، ودلفنا إلى الحجرة المُخصصة للطعام، ووضعت لي أرزًا ولحمًا وسلطة على طاولة خشبية، وسحبت كُرسيًا من كراسيها، وأشارت لي بالجلوس، سحبتها ناحية صدري، فقالت:

-جميع الخادمات تحت أمرك، فهم غير متزوجات يا سيدي.

وضعت إصبعي على فمها لتصمت، وجلبت وعاءً مليئًا بالماء العذب وأطفأت به السراج الكبير الذي ينير الحجرة، وأغلقت الباب علينا، ولما اعتلينا الهواء، طرنا ناحية السماء، وركبنا سطح القمر المضيء، ووجدنا عليه نهرًا من الماء العذب، فسبحنا فيه، وتجرعنا منه، وأرتني «أريلا» ثنايا خفية كانت مستورة عن عيني لسنوات، حتى فرغنا من بعض، وانتحبنا من الألم، ثم ركبنا سطح القمر مرة ثانية، وثالثة، فدنت مننا الشمس بضوئها الجريء، وأعادنا القمر سريعًا إلى حجرة الطعام، وهرب، وراحت خطوط الشمس الضعيفة تتسرب من نافذة الحجرة، وتفضح بضوئها ما ستره ظلام الليل البهيم، فسحبت ثوبي الشتوي وركضت إلى حجرتي وأغلقت بابها، وارتديته ونمت على سريري، ووضعت دثارًا من الصوف على جسدي، ليدفأ، وخفق قلبي لما رأيت باب حجرتي يفتح ودققت

نظري المشوب، فرأيت «أريلا» تقف على عتبة الباب كما ولدت، وتبتسم لي بخبث، ثم غطت بدنها السمين بثوبها، وأغلقت الباب واختفت بخطوات مُتثاقلة، سمعت صوتها بقلبي. في الأيام التالية لهذه الليلة المُلغزة، كررت ما قُمت به مع «أريلا»، والخادمات، ولما فاضت شهواتي ولم أستطع كبحها مثل الماضي، عرف والدي بأنني أذهب كل يوم إلى حجرة الخادمات، فحذرني من فرط المُجامعة، ونصحني بالزواج، هَربت من كلماته، ومن عقلي، ومن تأنيبي الدائم لنفسي، وكنتُ أنام طوال النهار، وأستيقظ في بدايات الليل وأتجه إلى الحجرة اللعينة، وأخرج منها قبل الصباح الباكر. أمضيت شهرين على هذا المنوال، فسمن جسدي، وقلت طاقتي، وأحببت النوم، وعشقت الفراش الذي تدفئه الخادمات، وبلغت مدى العقل بجنون كاسح، وظللت أتجرع الألم المُمتع، وعقلي مغمور بالاندفاع الجامح. وفي بدايات الشهر الرابع، أصابني إرهاق شديد، فبقيت في حجرتي ثلاثة أيام، زارتني في اليوم الرابع ليلاً، «أريلا» وأخبرتني بمعلومة أذابت قلبي، وآلمت رأسي من كثرة التدقيق في تفاصيلها، حيث قالت:

-أنا حامل يا أرون.

-وما المعضلة؟ أنتِ متزوجة من «أران» وأنجبتِ منه بنتًا منذ عشر سنوات.

- «أران» وقعت له حادثة أثناء عمله منذ عامين، وأصيب بالعقم.

-وما دخلي بذلك؟

-فلتسأل الظلام، ليُخبرك.

صحتُ فيها بصوت مرتفع كاد يشق جُدران البيت، فخرجت من حجرتي غاضبة، وطلبت في اليوم الثاني إجازة من والدتي، وتعللت بأنها مريضة وجسدها يفتقر للراحة. بعد شهر كانت علامات الحمل عليها واضحة بشدة، ولم تقدر على إخفائها. وفي فجر أحد الأيام خرجت من حجرة الخادمات، ونمت من الإرهاق على سريري، واستيقظت بعد وقت قليل

على صوت صراخ، فارتديت ثوبي، وخرجت من البيت واتجهت ناحية الصوت، فرأيت جمعًا غفيرًا من الناس يقفون أمام بيت «أريلا»، واقتربت منهم، ونظرتُ، فرأيت زوجها يقف بالداخل، والدماء تتناثر عليه، و«أريلا» مذبوحة وملقاة على الأرض، ألمتني نفسي، وذرفت عيني دموعًا غزيرة، وركضت وصعدت إلى حجرتي وبقيت فيها لأيام متواصلة. بعد أسبوعين من الحادثة، شب خلاف في المدينة بين طوائف دينية مختلفة، وتجهزت كل طائفة بالسلاح والعتاد والرجال، وكانوا يقفزون على بعضهم ليلاً، فيقتلون النساء، والأطفال، والرجال، ويصرخون إلى آلهتهم، ويرجونها، لرحمتهم، ووضعهم بعد موتهم في مكان آنيق بالسماء، استحقاقًا على ما يفعلونه من قتل، وتحطيم، وانتهاك للحرمة الإنسانية. حاول الملك القضاء على حدة الخلافات، ونجح، ولكن بقي منها القليل، وفي الأسبوع الثالث من حادثة مقتل «أريلا»، هاجم خمسة رجال ملثمون والدي وهو يعطي أوامره لأحد المزارعين، وقتلوه وسرقوا أمواله، وتصايحوا بأنه يستحق هذا المصير السوداوي لأنه مختلف عنهم طائفيًا، ولا يتبعهم في شيء، ثم هربوا، ولم أستطع اللحاق بهم، لضعف جسدي. واقترب الصيف، وجاءت رياحه الجافة فهدأت حدة الخلافات بين الطوائف، وأفقت لنفسي، وظلت دماء والدي تدفعني للتركيز على مشاق الحياة، بدلاً من الاهتمام بمنحنياتها الملتوية، فتزوجت من فتاة حسناء ونحيفة قليلاً، ولها عينان زرقاوان، وشعر أصفر قصير، رشحتها لي أمي. ولم أعد أزور حجرة الخادمات إلا ثلاث مرات في الشهر فقط، وارتقيت بتجارة والدي، فأصبح لي اسمًا بعد عدة سنوات من وفاته، وكان يتهافت على تجار الفاكهة، والسمك، وأضفت لتجارة والدي القديمة، التجارة في الأقمشة، فكنت أجلبها من الشام، وأبيعها بثمن زهيد، وضربتُ بثمني جميع تجار الأقمشة في مدينة الجليل، وانتفخت حقائب مالي، وتزوجت شقيقاتي من رجال أقوياء يعملون في القصر الملكي، وسعدت أمي بذلك، وكان عمرها خمسًا وأربعين، وقد رفضت عروض الزواج التي انهالت عليها، وجعلت لأبي وجودًا حقيقيًا بداخلها. وخوفًا من تكرار ما وقع مع والدي، اشتريت حرسًا ووزعتهم على أنحاء البيت، والأرض الزراعية، والمخزن الذي أضع فيه

منتجاتي. وعادت الاضطرابات من جديد بين الطوائف الدينية، ولامست نيرانها الطوائف التجارية، فاختلف التجار مع بعضهم، وتقاتلوا، ومات منهم الكثير. وفضلت في هذه الفترة البقاء في بيتي حتى آمن الأيام، وما تحمله من فواجع خطيرة. بعد عام امتلأت أحشاء زوجتي، وسعدنا بذلك جدًا، بسبب انقطاعنا عن الإنجاب منذ زواجنا، وتذكرت وقتها ابني الذي مات قتيلاً في رحم «أريلا» المسكينة، لا لم تكن مسكينة، بل لعوبًا، وخبيثة، ولها حيل مُريبة في الظلام. مرت تسعة أشهر، وجاء الطلق يضرب زوجتي، فانتحبت، وصاحت، وظلت تصرخ، فجلبت لها أفضل طبيب في الجليل، وبعد وقت طويل، صمتت، ولم أسمع صوت المولود، ففتحت باب الحجرة، ورأيت الطبيب يغطي وجهها، صرخت فيه:

-ماذا تفعل؟

صمت، ولاذ ناحية الجدار بالفرار، وعلمت يومها أن ألم حزني على مقتل «أريلا» كان ضئيلاً، رخيصًا، أمام ألم حزني على وفاة زوجتي وابني. ساءت حالتي، ولكني أفرغت كل طاقتي في التجارة، وممارسة النيران في حجرة الخادمات دون انقطاع. بعد شهر اشتعلت الأحداث، وزادت حدتها، ومات الكثير نتيجة لاختلاف العقائد، والطوائف الدينية، وأغلقت شوارع عديدة، وأزقة كثيرة، وكان بطش الناس ببعضها مُخيفًا، ومرعبًا، ويزلزل الوجدان، ويعصف بالفؤاد، وزويت الشوارع بالدماء، وأغلقت الحدائق والأسواق، لأن المُتصارعين دمروا أكبر حديقة في مدينة الجليل، ولم يكتفوا بذلك، فكانوا يقومون بتحطيم الأشجار ورميها في الشوارع فوق جثث الموتى، وبعد أيام قليلة انتشر وباء غريب قضى على هذه الصراعات، وأقسم ذلك الوباء على أنه سيكون القاتل الوحيد في المدينة، ولن يعاونه اختلاف الطوائف، فقتل الكثير، ومن شدته، هرب ملك الجليل إلى مدينة بعيدة، وعين مكانه مسئولي القصر لفترة غير معلومة، وضجت المدينة بالوباء، فهجر الناس بيوتهم، وتحولت بعض المناطق إلى فراغ تام، يسوقه الصمت المُخيف، وفسر الأطباء بعد بحث دقيق أن هذا الوباء جاء من تحلل جثث الموتى في الشوارع، وقالوا أنه سينتهي بمرور الوقت، ولا

علاج له سوى بعض الأعشاب التي ربما تفلح، وربما لا. وفي ذروة وفتك الوباء بكل شيء، مَرِضت والدتي، فبحثت عن الأطباء، بعضهم هرَب، أو قتل، ووجدت واحدًا بعد عناء دام ليوم ونصف من البحث، ولما جاء إلى منزلنا، وعلم أننا طائفة دينية مختلفة عنه، رفض الكشف على والدتي، ووبخني بكلام سقيم مثله، وذهب. وخلال الأيام التالية انتفخ المرض مثل بطون الموتى، وعصف بوالدتي، فماتت وحيدة وحزينة، ولم تأتِ شقيقاتي الثلاث لزيارتها حتى؛ لأن أزواجهن غيروا طوائفهم بالإجبار، وسافروا لمدينة بعيدة، يحكمها ملك آخر. وفيما بعد، قل الطعام في الجليل، ورغم ما امتلكته من ذهب لم ينفعني قط أمام الجوع الشديد، وهرب الحراس بحثًا عن الطعام في مكان آخر، وفي نفس اليوم قَبل الفجر هربت الخادمات، وبقيتُ وحدي في البيت مع بقايا قطع الخبز، وأسفلي خندق سري مليء بالذهب ولا ينفعني في محنتي. ولما استفحل الخراب، أخذت القليل من الذهب، وسيفًا وخنجرًا وسافرت من الجليل إلى المدينة الساحلية «عكا»، التي ينتعش أهلها من الخير والهدوء، ولا يتصارعون لشدة قبضة ملكها، ووضعت في داخلي إيمانًا قوي بأنني سأعود إلى الجليل في الوقت المناسب. عشتُ في عكا ثلاثة أشهر ضيق الحال بعدما بعث الذهب، وما تبقى لي من مال كان يكفيني لوجبة طعام واحدة في اليوم، تتكون من الفول والخيار وقطعة خبز كبيرة، وجارت علي الأيام، فأصبحت ملابسي قذرة مثل رائحتي، وذقني وشعري وجسدي لم يروا الماء. وزاد غضبي، واعتلاني المقت، والكُره، والرغبة في القضاء على الطوائف الدينية كلها، وكنتُ أنام ليلاً في الخرابات، وصباحًا أحاول الحصول على عمل، فكان يخشاني الناس، ويعطونني مالاً شحيحًا لأتركهم وأذهب. ولما جاءتني الأخبار بأن الجليل تحسنت وبدأت في العودة إلى سابق عهدها، سافرت إليها على حمار، أكل ظهره الجرب، وكانت عينه اليسرى خربة، وينهشها الدود، وقَبل وصولي بمسافة قليلة، مات الحمار، فثابرت وسرتُ على أقدامي، ورجعت بيتي وقلبي يخفق من القلق، ولكنه هدأ لما تأكدت أن الذهب كما هو. جلبت حرسًا جددًا، وخادمات، وعاد البيت نظيفًا جميلاً ينعم بالسكينة، ولكن قلبي لما ينعم

بها، وكانت الذكريات الأليمة تجول بعقلي، موت أحبائي، وابتعاد شقيقاتي عني، وهروب الحراس والخادمات، ووقوعي شريدًا، ضعيفًا في عكا، والجثث المتعفنة، والوباء، حتى وجدت حلاً أراح خاطري. فأنشأت تنظيمًا سريًا، جمعت فيه العلماء، والأطباء، وكبار الحكماء، وكل من يتمنى القضاء على النزاعات الطائفية، وكنا نتباحث فيما يمكن أن نفعله كل يوم في بيتي سرًا، كي ننقذ الجليل والعالم كله من الهلاك. وساعدني على التوسع بالتنظيم، ذهبي الوفير، وعودتي مرة ثانية للتجارة. وبعد ستة أشهر من الاجتماعات زارني «عوفر» أكثر حكماء الجليل حكمة، وأشار علي بضرورة السفر إلى مصر، والاستعانة بساحر من أصول عربية يدعى «منتصر القيرواني»، يعيش في الإسكندرية ، فسألته لماذا؟ قال لي إننا نحتاج لقوة السحر حتى نفرض سيطرتنا الحقيقية على الجليل والعالم، مُعتمدين على خوف البشر، فإن أرعبناهم اتبعوا طقوسنا وتعاليمنا أسرع من هواء الشتاء. رفضت الفكرة لعدم إيماني بالسحر، والكائنات الشيطانية، وقصة طردها من السماء، فأقنعني «عوفر» بأن باطن الأرض مليء بالشياطين، والكائنات الشريرة الأشد فتكًا من البشر، فوافقت على مضض. وسافرت إلى مصر مع طاقم من الحراس، والخدم، في رحلة استمرت لأيام عبر ساحل البحر، كنا نأكل فيها الفواكه المُجففة، ونتجرع القليل من المياه لتكفينا طوال الطريق، حتى وصلنا إلى الإسكندرية، كانت لها أسوار تحيط بها من الخارج، وتغلق في الليل، وتفتح في الصباح، وكانت الإسكندرية مكتظة بأعداد مهولة من الناس، والطبقات المختلفة، وكان الأغنياء قليلون، والفقراء مثل النمل. ووجدتُ في أيامي هناك الكثير من العاهرات، والمؤمنين، والحكماء، والمجاذيب، وطوائف ومعتقدات مضادة لبعضها، وألوانًا غفيرة من الناس، كأن الإسكندرية جمعت من كل بلد ومدينة رجلًا وزوجته ليعيشا أسفل سمائها. وشعرتُ بالتشتت والتفكك في أغلب أيامي، وكان للشتاء هناك رعب أراه في وجوه الناس، بالأخص الذين يعملون في الصيد، ويرتحلون عن طريق البحر. ومرضتُ أكثر من أربع مرات لأنني لم أكن معتادًا على الهواء شديد البرودة، والأمطار المستمرة بلا انقطاع، وكنتُ ألتحف ليلاً بدثارين من الصوف، ويتسلل لي البرد أيضًا مثل

اللصوص المحترفين، فيصيب أطرافي بالتجمد، ويرتجف جسدي طوال الليل، حتى تأتي الشمس الضعيفة وترسل أشعتها، وأنام. واعتدت بصعوبة على الأكل لأنه كان كثير الملح والتوابل والدهون، ولا تخلو وجبات الغذاء من التنوع في اللحوم، مثل السمك واللحم البقري والدجاج، وذلك كان مخالفًا لطبيعة طعامنا في الجليل التي تعتمد على النباتات أكثر من اللحوم. ولما عبرنا يوم وصولي بوابة الدخول قابلث هناك خدم «القيرواني»، وتبعتهم بالحرس والخدم حتى وصلنا إلى قصره المطل على البحر، وكان قبل أسبوعين من سفري، أرسل «عوفر» الكثير من ذهبي، إلى «القيرواني»، مع رسالة مكتوبة تحمل أهداف التنظيم السري الذي أسسته، ورسمة بالرصاص تحمل ملامح وجهي بدقة، كي ينتظرنا خدمه على بوابة الدخول للإسكندرية، ويعرفوا شكلي. ولما دخلنا قصره المطل على البحر، هدأ حر الصيف الجاف، وجلست على أريكة لأرتاح، وقدم لي خدمه فواكه طازجة، ونبيذًا باردًا مخففًا بالقليل من الماء، ثم قدموا لي طعامًا مكونًا من اللحم والأرز والخبز، وقدموا لحرسي وخدمي المِثل. فأكلت بنهم شديد، ثم أزال الخدم الطعام، وأدخلوني إلى حجرة واسعة بها سرير وطاولة خشبية لها عشرة كراسي، ونافذة واسعة يتدفق منها هواء البحر المُمتع، غفلت عيناي لبرهة، واستيقظت على شخص قصير يقف أمامي، ويرتدي ثوبًا أسود يغطي جسده بالكامل، وشعره طويل وناعم ويتحلى باللون الأبيض، وتجاعيد وجهه تقول أنه في عقده السادس، انتصبت احترامًا له، فأغلق باب الحجرة، ثم عاد، وقال لي بصوت رخيم لم أنسه حتى هذه اللحظة التي أكتب فيها ما مررت به:

-وافقت على مجيئك ومعاونتك ليس لذهبك الوفير، بل لرغبتي الجامحة في إخضاع الفُرقة أسفل أقدام الاتحاد، ودحض الطوائف والمعتقدات.

اندهشت أنه يحدثني باللغة العبرية، وسألته، فأخبرني بأنه يتحدث العربية والعبرية. وكانت بدايتي معه حينما علمني اللغة العربية في شهرين، وبعدها بدأ في الحديث معي عن أهمية استخدام قوة السحر في إخضاع طبيعة الكون، لأهداف تنظيمنا السري، وبعد شهر ثالث مر علي في

الإسكندرية، بدأ يعلمني طرق السحر المتعرجة، ويخبرني بتاريخ السحر في العالم، ونشأته، وكانت دروسنا تبدأ منتصف الليل، وتنتهي قبل الفجر، وكنا نجلس على شاطئ البحر، ويعلمني استخدام الطلاسم، والتعاويذ، ويقص لي قصصًا عن مشعوذين استخدموا السحر في الشر، وبشكل خاطئ، فكانت نهايتهم أليمة، وسيئة. وبعد الشهر الرابع بدأت أرى آثار السحر في الظلام تحديدًا، وأيقنت بعدما رأيت كائنات غريبة وقوية، تسكن الظلام فقط، وتختفي مع إشراقة الصباح، أن للكائنات الروحانية وجودًا قويًا، بالأخص في بيت «منتصر القيرواني». وخلال دروسنا الليلية كان يرفض أن نأكل، ونتجرع الماء فقط، وكان شديد الحذر، فيأمر رجاله بعدم الحديث معنا نهائيًا، وكانت زوجته تخدمنا لثقته بها، ودومًا كانت تنظر لي وتتأمل قامتي المتوسطة، وشعري المُرجل الناعم، وعيني الزرقاء، وبشرتي البيضاء، وتبتسم بخبث ثم ترحل، وحاولت خلال مدة إقامتي عدم النظر إليها كثيرًا لئلا أغضب «القيرواني»، حتى جاء الموعد المُحدد، وطرق بابي دون دراية، فوجب الخلاص. فبعد عامين من إقامتي معه، جاء لي في منتصف الليل بأحد الأيام الشتوية الباردة، وسحبني، وسرنا حتى وصلنا إلى البحر، ولاحظت عرجة قدمه اليمنى الدائمة، التي قال لي يومًا أنها بسبب السحر، وكانت عينه شاردة، وتجاعيد وجهه ترتعش، والاضطراب يظهر عليه، قلقت، وأحسست أنه عرف ما فعلته مع زوجته خلال اليومين الماضيين، لكنه ناولني مجموعة من الأوراق، أخذتها ونظرت فيها، كانت الأوراق مكتوبة باللغة العربية، وبخط يده، فسألته:

-ما هذا؟

-القدماء الفاجرون يا آرون.

-مَن هم؟

اقترب مني وقال بلهجة يطالعها الخوف، وكانت رائحة فمه كريهة للغاية بسبب المواد التي يتجرعها يوميًا، ويرفض الإفصاح لي عن سبب ذلك:

-سيكونون معك لتستطيع محاربة الفِرقة الطائفية، والصراعات البشرية

القذرة.

-كيف؟

-اطلع على هذه الأوراق، لا أحد يعرف السر الذي تحمله غيري أنا، وستكون أنت من بعدي، لذا احذر ولا تعطِ هذه الأوراق لأحد، سأرحل الآن لأنني مريض، وسأنتظرك في الظهر لنتحدث.

-هل زارك الطبيب؟

-أنا مريض بالهم، والقلق، فأحلامي مضطربة منذ أيام، وقلبي يروي لي تفاصيل مروعة وملغزة.

تركني وذهب، وأثارت كلماته مخاوفي، لكنني جلست على الرمال أمام البحر واستعنت بضوء القمر في القراءة، كانت الأوراق مصفوفة، ومرتبة بالأرقام العربية، كتب فيها «القيرواني» أنه توصل بعد سنين طويلة من البحث والتنقيب، إلى أرواح تعيش في باطن الأرض، في مكان يدعى الأرض الخامسة مليئًا بالحمم البركانية، والنيران، وتدعى هذه الكائنات بـ«القدماء نسل الشيطان الأول»، يسيرون على الأربع مثل الحيوانات، وأجسادهم ضخمة وحمراء، ولهم أسنان كثيرة، وفم واسع، وهم نتاج لتزاوج الشياطين مع بعضها، وهم أول مَن هبطوا إلى الأرض بعد خلق آدم وحواء، وعاشوا فيها لسنين، ثم هبطوا إلى الأرض الخامسة، لذلك يسمون «القدماء». ويحكمهم ملك اسمه «مقدونيش» الوحيد فيهم الذي يسير على قدميه، ويحمل دائمًا سيفًا من نار، ويجاوره كلب شرس مخلوق من نار. ولهذه الكائنات قدرة فائقة وقوية في السحر، واختراق العوالم، والأزمنة، والتلاعب في التاريخ، والماضي، والسيطرة على الحاضر بطرقًا ملتوية. وتواجدهم حول مُستدعيهم ثقيل بشدة، لأن أجسادهم تُخرج حرارة قوية، قد تَحرق أي شيء، إن خَرجت التحضيرات مِن حَيز الحَذر، والانتباه. لذا فالتعامل معهم شديد الصعوبة، والغموض. ولديهم قدرة على تشكيل أجسادهم بأي شكل، عدا شكل الإنسان. وأعمارهم طويلة للغاية، لأنهم لا يموتون أبدًا، بل تزداد أعدادهم، وينجبون كل مئة عام. ويعيش

القدماء في الأرض الخامسة داخل دوائر سوداء لها رائحة قذرة وتصل درجة حرارتها إلى ألف درجة، وتتكون كل دائرة من ألف كائن منهم، ويكون لهم قائد، يحركهم، ويعطيهم الأوامر، ويطعمهم من نيران الأرض الخامسة، ويتبع كل قائد الملك «مقدونيش»، ولا يقدر على عصيان أوامره. ولهذه الكائنات قدرة فتح بوابة شيطانية بين عالمنا، وعالم ثان مجهول تعيش فيه كائنات ضخمة وشرسة، قادرة على التهام عالمنا بيسر وفي وقت قليل، ولفتح هذه البوابة شروطٌ صعبة، تتمثل في قتل مئة طفل أمام البحر في مكان خالٍ من الناس، وترسم دائرة بالحجارة وتوضع فيها أجساد الأطفال، ويقرأ الساحر المُستدعي عشر صفحات مليئة بالطلاسم. بحثت عن هذه الصفحات، فوجدتها في نهاية الورق. ويقوم الساحر بقطع نصف ساعده، ويروي بدمائه الدائرة، ولابد وأن يكون ممتنعًا عن الأكل لأكثر من أربعة أيام، ويكتفي فقط بشرب الماء، وفي خلال لحظات بسيطة يظهر «مقدونيش» ملك «القدماء»، ويلبي طلبات الساحر بفتح البوابة، ولابد وأن يطلب ما يريده بسرعة حتى لا يثير غضب الملك، وإن وقع خطاء من الساحر يأخذه «مقدونيش» بغضبه العظيم، ويسحبه إلى باطن الأرض الخامسة، وينزل عليه عقاب أليم، ويعذبه حتى الموت. وإن نجح الساحر، تظل بوابة «القدماء» مفتوحة لمدة عشرة أيام تخرج فيها كائنات لا تحصى، وتلقي بنيران غضبها على الناس، وتلتهمهم. وبعد مُدة مجهولة تنفجر هذه الكائنات وتدمر ما حولها. ويمكن إغلاق البوابة عند حد معين، ولكن للإغلاق شروطًا صعبة، وجدتها في الورق أيضًا. وبعدما أنهيت قراءة المعلومات الكاملة، وجدت ملحوظة مكتوبة بخط كبير، إن بوابة «القدماء» تفتح فقط كل ثمانين عامًا، ولابد وأن يتم تجميع أحجار كريمة لامعة، وحجمها صغير، ولا يفوق عددها المئة من بركان خامد في جزيرة تسمى «شهيرد»، تقع بالقرب من فرنسا في قارة أوروبا. أنهيت قراءة الأوراق ووجدت شفق الشروق القاني ينتشر في السماء، ويضفي رونقًا رقيقًا عليها، فدلفت إلى القصر، ومن ثم إلى حجرتي، وأغلقت بابها. بدلت ملابسي سريعًا كي لا أصاب بالبرد، وتنبهت إلى شيء ينام في فراشي ويغطي جسده بدثار من الصوف، وكانت

الحجرة مظلمة، وبها القليل من نور الشفق الشحيح، فاقتربت بحذر من السرير، وسحبت الدثار، واصطدمت بزوجة «القيرواني» تغط في نوم عميق، بثوب نوم قصير وخفيف، ويرتفع إلى معدتها، ويفضح نصفها السّفلي، وكانت لها قسمات متناسقة، وساعدان مصنوعين من الزبد الناعم، ويتزينان بالذهب، وعطرها قوي ومثير، وشعرها طويل وغزير، ذكرني بشعر «أريلا» كبيرة الخدم، أيقظتها برفق، وطلبت منها الخروج بسرعة كي لا يفتضح أمرنا، لم تُجبني، وزاد خوفي واضطرابي، فاقتربت من الباب وأغلقت مزلاجه، ووضعت ثوبًا ثقيلًا عند عقب الباب كي لا يتسرب أي صوت للخارج، وعدت لها، ولثمتها بقبلة على وجنتيها، وانتبهت إلى أنها لا تتنفس، فوضعت يدي على رقبتها، كان النبض متوقفًا، فوضعت سبابتي أسفل أنفها، وخفق قلبي حينما علمت أنها لا تتنفس، ولاحظت وجود علامات كَف، على رقبتها، وخصلات من شعر أسود قصير على السرير، بقيث للحظات لا أعرف ما الحل؟ وارتديت ثوبًا ثقيلًا وأمسكت بورق «القدماء»، وفتحت المزلاج النحاسي، وخرجت من الحجرة، وسرتُ بهدوء باتجاه حجرة نوم «القيرواني»، وكان بابها مفتوحًا وصوت أنفاسه مرتفع، وانتبهت إلى رجل غامض يرتدي ثوبًا أسود، ويخفي رأسه في قلنسوة واسعة، ويقف بجانب سريره، ارتجف جسدي، وكدت أهرب فاصطدمت بـ«عوفر».

-اهدأ لا تخف.

-ماذا تفعل هنا؟ وهل رجالنا قتلوا زوجة «القيرواني»؟

-نعم، وسيقتلونه الآن، انظر.

نظرت إلى الحجرة فرأيت «القيرواني» يطعن بخنجر، ونفسه كان مكتومًا بيد قاتله، هدأ قلبي، وسألت «عوفر»:

-لماذا قتلته؟

- أخبرك بأن سر هذه الأوراق لا يعرفه سواه.

-صحيح.

-ونحن نريد خدمة مصالحنا، فلا أهمية له عندنا، فمن الأفضل دفن معرفته معه.

-كيف عرفت؟ هل كنت تراقبني؟

-كنت أراقب الهواء الذي تتنفسه يا «أرون».

تبسمت، وتفصد جسدي عرقًا كثيرًا من الفرحة، والنشوة، والقلق في نفس الوقت. وحزنت بشدة أثناء رحيلي من الإسكندرية على زوجة «القيرواني»، وشعرها الغزير، والليلتين اللتين قضيتهما معها، ومهدت لليالي قادمة لولا تدخل «عوفر».

***

في الأيام التالية بعد قتل «القيرواني» غادرت الإسكندرية، وودعت نبيذها، وفتياتها، وبحرها الفتآنق دومًا، وسافرنا إلى عكا، ومنها إلى الجليل في رحلة شاقة، مرضت خلالها فكنت أتقيأ دمًا، ولم أقدر على تناول الفواكه المُجففة التي تعيننا على مشقات الطريق، وكدت أموت، لولا أن «عوفر» انتزع من جسدي المرض، بحكمته الكبيرة في المداواة بالأعشاب. ولما وصلت إلى بيتي في الجليل، ودلفت سرًا إلى المكان السري الذي أضع فيه ذهبي، ضربت رأسي، وصدري، وصفعت خدي، لأنني نسيت مائتي قطعة ذهبية في قصر «القيرواني»، خبأتهم في حفرة، صنعتها في حجرتي أسفل سريري، ورسمت فوق الحفرة علامة دائرية كي لا أنسى مكانها، وكان اتفق «عوفر» مع «القيرواني» على إرسال ٧٠٠ قطعة ذهبية لتعليمي السحر، وقبل ذهابي من المفترض أن أسترد منتي مقطعة من هذا المبلغ، ولما شعرث خلال الوقت الذي قضيته مع «القيرواني» أنه يماطل ولا يريد إعطائي المائتي قطعة، جعلت زوجته تسرقهم وتعطيهم لي، وما ساعدني على إقناعها كرهها الشديد له، وتقصيره الدائم في حقها، ووعدي القوي لها بأنني سأحررها من سجنه أثناء عودتي إلى الجليل، وآخذها معي لنتزوج، ويا لها من غبية، صدقت وعدي. فكرتُ في العودة لأسترد القطع

الذهبية ولكنني فضلت مصلحة منظمتي السرية. بعد عامين سافرت أنا و«عوفر» إلى فرنسا، وعشنا هناك، لسنين طويلة، استطعنا فيها زيادة قوة وتأثير التنظيم، واخترنا له شعارًا رمزيًا يعبر عن أهداف منظمتنا، يدًا سوداء تمسك بأخرى بيضاء، وتظللهما الشمس وترسل أشعتها إليهما، وأسفل اليدين خمسة رجال يقفون بانكسار، وحولهم القدماء يقفون على الأربع ويعذبونهم بأسنانهم، تعبيرًا عن ما سيلقاه رؤساء الطوائف الدينية في العالم، إن عارضوا رغبتنا في توحيد يد الشرق والغرب، لتظللنا سماء الحرية. وكبرت رقعتنا في السنوات التالية من خلال اختيار المناسبين لنا، والداعمين، بالمال، والأفكار، والمحبة. وخلال هذه السنوات جلبنا من جزيرة «شهيرد» المئة حجر، وأوفينا طقوس فتح البوابة، لكن لسبب غير معلوم لم تنجح التجربة، وفشلنا في فتح البوابة، وتمخضت السماء بقوة، وكانت تمطر دماءً سوداء، فطبقت بنفسي طقوس إغلاق البوابة، وعادت السماء مليئة بالسحب وطبيعية، وبعد أيام قليلة اسودت، وسقطت منها الطيور محترقة، وعلمت وقتها أن إغلاق البوابة يتم على مرحلتين تقام فيها نفس الطقوس ولابد وأن تكون السماء صافية، فوقفتُ في مكان مجهول، ونفذتُ نفس طقوس الإغلاق... وبعد عام مات «عوفر» حزنًا، وعشتُ أنا بعد ذلك أعوامًا كثيرة بين جدران التنظيم الذي يقبع أسفل الأرض في مكان سري، بفرنسا، وهجرتُ الناس، وبقيتُ أتعلم السحر، وأطالع الكتب باللغة العربية والعبرية، وأنهل من نهر المعارف المُختلفة، وأزيد من قوة التنظيم، وأرسل بعثات سرية تختار الحكماء لضمهم إلينا، ولما شاخ جسدي، وثمل عقلي من فَرط الجهد، وغادرني ريعان الشباب، وشعرتُ أن الدود يعشش داخل بدني، وينتظر لحظة موتي لينهشني، وضعت لغة خاصة بالتنظيم، استعنت خلال وضعها بالشياطين، وأوصيت بعد وفاتي أن يختار حكماء التنظيم رجلاً بشروط محكمة ودقيقة ويسمى بـ«سيد الأكوان»، ليحل من بعدي، ويكمل ريفتنا وجهدنا في توحيد العالم من الفرقة، والغلاء، والوباء، والخلافات الطائفية. وكان غيظي رغم كبر سني يضطرم مثل النيران في القماش، ولم أنسَ أبدًا، أسرتي، و«أريلا»، وزوجتي وابني. وبعد عدة أعوام من وفاة «عوفر»، أصابني مرض غريب،

جعل أطراف جسدي تتساقط، فجلبتُ «شوان» تلميذي النجيب، الذي اعتمدت عليه طويلاً، وأمليتُ عليه ما مررت به، وشروط اختيار سيد الأكوان، ومقدمة صك بوابة القدماء التي تُقال قبل إغلاق بوابة القدماء، وطقوس انبلاج بوابة القدماء التي تستخدم لفتح البوابة، وطلبتُ منه تجميع ما قلته في كتاب بعنوان «القدماء»، ويقسمه إلى أربعة فصول كبيرة، ووليتُ بعدها «سيد الاكوان»، وعزلتُ نفسي من كل شيء لأرتاح، وأنا كلي أمل أن تُفتح البوابة وتنجح مساعينا ذات يوم، لننهي على الطوائف.

العظيم أرون.

عام ٨٣٠ م

***

أنهى الناظري قراءة فصل «أرون العظيم» ولم يكمل باقي الكتاب، وكانت عينه فغرة من الصدمة، وبعد لحظات اسودت السماء لوقت قليل، وأمطرت دماءً سوداء خفيفة، لها رائحة قذرة، ثم ظهر شفق الشروق الأحمر، ودرى أن بوابة القدماء لم تغلق بعد، ولابد من إقامة طقس ثانٍ كما قال «أرون» في الكتاب، ارتجف جسده من القلق، وماعت أوصاله، وظل يفكر في هذه الداهية، ودنا منه النهار، فطارت العصافير من الأشجار وعلا صوتها، وبدأت الحركة تدب في أرض الجزيرة، إلا أن القوات الملكية انتشرت في أرجاء الجزيرة ومنعت السكان من الخروج بأمر ملكي صارم لا يمكن معارضته. ورأى ريكة وضباط كثيرين يقتربون منه، وخلفهم المعظم يسير بسرعة وبجانبه الصياد، والإرهاق يغالبهما، ويدفعهما للوقوع تحت طائلة الوسن، فوقف متساندًا على الشجرة، وقال له المعظم:

-ما بك؟ وجهك شاحب كأنك ميت.

-بوابة القدماء لم تغلق.

-كيف عرفت؟

-قرأت ذلك الكتاب، لابد من إعادة الطقوس مرة ثانية.

وضع المعظم يده على منكب «الناظري» وقال بحزم:

-افعل ذلك، وكل سلطاتي تحت طوعك، ولا تُقصر.

هز رأسه في أسى، وقال:

-حسنًا، سأجهز كل شيء، ولكن لابد أن تكون السماء صافية، لذا سأتابع حالة الجو مع مسئول الفلك.

تبسم المعظم رغمًا عنه، وذهب، فلحقه الناظري وقال:

-نسيت إخبارك، لقد مات الحاكم الثالث، واختفى مُستشاروه، وفرضت رقابة صارمة على سكان الجزيرة.

وقف المعظم، وخفق قلبه بشدة، ثم التفت إليه، وسأله:

- مات؟

تدخل «تومكس» بصوت متهدج:

-مات أم قتل؟

لامه المعظم بنظرة ثاقبة، فلاذ بعيدًا.

-أخذ ما يستحقه، وأعتقد أن الأمور ستستقيم لأن رأس الحية دهست.

-فليرحمه الجد الأعظم، وداعًا.

انصرف الصياد مع المعظم ناحية البيت العظيم، وكانت ملابسهما مُتسخة، وعلى ملابس المعظم دماء جافة، وحملت عين الصياد ألمًا، وإرهاقًا، وبؤسًا، وخلفه كان الحراس يحملون الأسلحة التي جلبوها من الجزيرة الثانية بحذر، ويدخلونها في مبنى ضخم بالقرب من الجبل، وأصوات حركتهم تخرق قواعد صمت الجزيرة.

***

الفصل السابع عشر

اقترب فصل الشتاء من الوصول إلى ذروته في الإسكندرية، وكان البرد شديدًا، واستوثق الناس بالملابس الصوف الثقيلة، وقلت الغارات الألمانية الإيطالية على أرض الإسكندرية، ولكن ذلك لم يمنع تدفق الهجرات إلى المحافظات والقرى القريبة من عروس البحر المتوسط، مما جعل الأسعار تنخفض، بالأخص إيجارات البيوت. وتناقصت فُرص العمل ، واتجه القليل من الناس إلى حرفة الصيد، وهدأت حِدة الجريمة قليلاً عن الأيام السابقة، ولكن لم يختف تواجد الجثث غامضة الهوية في بعض الشوارع، رغم تضييق القبضة الأمنية على المجرمين واللصوص. وفي مَنزل الصياد نامت سماح على ظهرها في غرفتها بوجه شاحب، وجسد هزيل، ووضع مرعي فوقها دثارًا ثقيلًا، وانتحت بالصمت البليغ كأنها ابتلعت لسانها، وواجهت أرذال المرض بابتسامة يابسة، وكان مرعي يجلس بالقرب منها على كرسي عتيق يصدر صوتًا مزعجًا كلما تحرك، ويمسك بأصابعها الصغيرة الرقيقة، ويتأملها وهي تغلق عينيها، وتحاول النوم، والألم ينغزها بلكزات في معدتها، فتضغط بأسنانها الصفراء على شفتيها. وكان شباك الغرفة مغلقًا، ويتسلل منه لفحات هوائية فاترة، تحرق أنف مرعي لأنه مصاب بالبرد، وتضرب سماح في وجهها فترتجف، فقام ووضع بعض شذرات الورق، في ثغرات الشباك، مما ساعد على تقليل اللفحات، وعاد للكرسي. وجال في عقله ما قاله الطبيب منذ قليل، بأن والدته تحتاج معجزة، لتشفى من مرضها الغامض، ونصحه بالاعتناء بها، وتوفير جميع أدويتها، وكان قد جلب مرعي ذلك الطبيب لما لاحظ أن صحتها تدهورت، ولا تقدر على مفارقة الفراش منذ يومين، إلا للدخول إلى الحمام فقط، وتعللت له بأنها مصابة بالبرد، وتحتاج للراحة، فوبخها بنظراته، وصمم على جلب الطبيب ليطمئن عليها. وأثناء جلوسه راجع مشاهد صورتها ذاكرته الأيام الماضية، حين أصيب بالاكتئاب والقلق بعدما بدأ تُجار السمك في التقليل من شراء الأسماك يوميًا، لأن هجرة السكان أثرت على عملية العرض والطلب، فأصبح التجار يشترون السمك يومين فقط في الأسبوع، وباقي الأيام يمتنعون، وكان لمرعي عقل مُفكر مثل أبيه، فراح يبيع أسماكه في البيوت،

والمناطق المختلفة، وآمن بأنه لو باع في كل شارع سمكة واحدة، فهو المُستفيد الأول. ولما ضاق به الحال أكثر، أصبح يقايض محلات اللحوم، فكان يعطيهم ما يجنيه من البحر، ويأخذ نصيبه لحومًا بقرية، ودواجن. ولكن ذلك لم يكن حلاً كافيًا، لأن بهذه الفكرة يوفر الطعام فقط، ولا يقدر على توفير نفقات علاج والدته. وبعد تفكير عميق جاءت له فكرة، أن يقف في محطة الرمل أمام «الترام»، بعربة خشبية عليها فرن حديد يعمل من خلال إشعال الفحم، ويشوي فيه السمك ويبيعه بأسعار مُناسبة للعمال، والموظفين، والإنجليز، وأطفال المدارس، مُعتمدًا على تعاليم والده في شوي السمك بطريقة لذيذة. وتغيرت طباعه الحادة، فأصبح يبتسم مُرغمًا، للناس، ويداعبهم بعبارات كوميدية، وذاع صيته في محطة الرمل لما كان يقدمه من طعم لذيذ، وسعر مُناسب، ولم يقدر فتوة، أو شخص المساس به لأنهم عرفوا أنه من حارة حميدو الجن، وابن «تومكس». وقد واجه صعوبة في الوقت، فكان يستيقظ قَبل الفجر، ويسبح في البحر بمركبته ويصطاد، ثم يعود في الظهر ويرتاح ساعة واحدة، ويذهب إلى محطة الرمل ويبيع السمك، لم يجنِ مرعي مالاً كثير مُقارنة بما كان يحصل عليه من التجار، ولكن وفر على الأقل دواء والدته، واحتياجاتهم من الطعام والشراب... أسبل مرعي جفنيه، وشعر بدفء مفاجئ يضع سياجًا مصنوعة من الشمس حول جسده، ورفع قَلبه إلى الله، ورجاه بحنو بالغ أن يجعل والدته سالمة، وانسابت دموعه، فصرخ بداخله واستنجد بقوة الله من بلايا الحياة، وعاهده بأنه لن يبتعد عنه يومًا إن شُفيت والدته، ولما غلبه الوسن، أراح رأسه إلى الوراء، ونام على الكرسي، وعلا صوت شخيره.

***

كان حميدو يجلس في بيته الثاني، بمنتصف الليل، ومعه «شندويلي» ويحسبان الأموال الكثيرة التي حصلا عليها، بعد توزيع شحنة الأفيون على التجار في القاهرة، وكانت السعادة تغمرهما، بالأخص حميدو الذي كاد يخسر كل ما جمعه في السنين الماضية بعد تلاعب المأمور والتاجر اليهودي به، وسرقة شحنته من الميناء دون علمه. وكانا يضعان الأموال

داخل حقيبة جلد ضخمة، ويتممان على كل جنيه بدقة شديدة. وأعرض فجأة «شنديولي» عن عد المال، فسأله حميدو وهو يكركر الشيشة:

-هات ما تُخفيه.

-لدي تخوف رهيب من غضب المأمور والخواجة اليهودي.

-ها ها ها أي مأمور يا شنديولي؟ وأي خواجة؟

أشعل سيجارة، فأردف حميدو:

-المأمور وأبعدناه عن طريقنا، وسيعمل في القاهرة، من خلال الاستعانة بهشام باشا عضو مجلس الشعب، والخواجة لن يقدر على الاقتراب من بيت الصياد بعدما اشتريته من مالي الخاص، وأعلنت ذلك في الحارة.

-رأسك شيطانية في القتال، وفي التفكير، وما حدث اليوم مع التاجر اليهودي أثر بشدة على سمعته في الإسكندرية، ولكنني ما زلت متخوفًا.

- حاول ترويضي، وإدخالي لقفص حديد كي أتعفن، ونسي أنه لما كان صفيرًا يتبرز على نفسه، كنت أنا فتوة حارة اليهود. لا تخف فكل خطوة محسوبة.

-وكم أعطيت السيدة لتقوم بذلك؟

-ولا مليم.

-؟؟

-أخبرتها برغبتي في ذهابها إلى «أدين» للإيقاع به، ويتبعها زوجها من الخلف دون أن يظهر في البداية. وبالفعل تكلمت مع «أدين» ودخلا إلى دكانه لتسأله على بعض طلباتها، ثم صرخت بصوت عالٍ، وقالت أنه طلبها في الحرام وهي سيدة متزوجة، وظهر زوجها، ونادى على رجال الحارة، وضربوا «أدين» حتى كاد يفقد حياته، وكسروا دكانه، ونهبوا بضاعته، وسرق الزوج درج الأموال، فكان مكتظًا، ورفضت أن آخذ منه شيئًا، فرحل

فرحًا مع زوجته.

-قسمًا بربي أنت خالق الفتوات، والفتونة.

-حاشا لله، الخالق هو الله، المهم، أريدك مُستعدًا.

- لماذا؟

-لتكون خليفتي في الفتونة.

-مُستحيل ما دُمت حيًا يا معلمي.

-قلبي لم يعد يحتمل والأدوية لا تبدي مفعولاً طيبًا معي ما دمت أتشاجر، وأتجرع النبيذ، وأدخن، ولا أرتاح، وسئمت من إخفاء مرضي عن الناس، وتعبث من المشاجرات، والقتل، ووضع الخطط الشيطانية، وأنت أفضل مَن يسد فراغي.

صمت حزنًا، وقَبل يد حميدو، فقال الثاني:

-سأكون في ظهرك، والآن لننزل إلى قهوتنا، ونعطي مكافأة كبيرة للرجال على ما بدر منهم في الفترة الماضية.

-أوامرك يا معلم.

***

سار حميدو بجلباب شتوي أبيض، ولف على رقبته كوفية طويلة من الصوف، وكان يتبعه «شندويلي» من الخلف، ويمسك حقيبة جلد صغيرة، واستنشق حميدو نسمات الهواء الباردة، فأحرقته أنفه، ونظر لبيوت الحارة في سعادة مطموسة بالحزن، وكتب من باب القهوة، وكان بداخلها رجاله، وحاشيته، يتحدثون بأصوات عالية، وصمتوا عندما دخل القهوة، وأغلق «شندويلي» خلفه الأبواب، ونظر إلى صبي القهوة، فتبسم وأعد لحميدو الشيشة. وجلس «الجن» في منتصف القهوة ومعه رجاله، وبجانبه «شندويلي»، فأخذ منه الحقيبة، ووضعها على طاولة صغيرة، ودار بعينيه

على جميع رجاله، وقال:

-هذه الحقيبة بها ما تستحقون.

صمت لبرهة، وأردف:

-لا تستعجبون، فنظراتكم تتسأل هل جُنّ حميدو ليعطينا أجرنا الشهري بالأمس، ومكافأة اليوم؟ ولكنني لم أجن، هذا ما تستحقونه، ووالله شجاعتكم معي وما فعلتموه، لا يمكن أن تُجازيه الأموال.

زاد صمت رجال حميدو، واستعجبوا طريقته الغريبة، لأنه دائمًا يوبخهم، ويقدرهم بالمال فقط، ولاحظوا أن عينيه تحمل دموعًا حبيسة، لم يَروها من قبل.

-افتح الحقيبة يا «شندويلي»، وأعطِهم المال بالعدل، والاستقامة، ولا تنسوا أن العدل الذي أبقاني في الفتونة هذه السنين الطويلة، دونًا عن غيري من الفتوات.

وزع «شندويلي» الأموال على الرجال، كل واحد على قَدر مركزه، ودوره، وقَبل الرجال يد «الجن» بالتساوي، ثم جلسوا يكركرون الشيشة بنهم، ويتضاحكون، ويسخرون، وجاء الصبي بالشيشة إلى حميدو، فناوله جنيه وتبسم، فانصرف الصبي وعقله شارد فيما سيشتريه بالجنيه، وأخذ حميدو أنفاسًا قليلة من الشيشة. وانفتح فجأة باب القهوة ووقف «أدين» على عتبته، وكان وجهه مليئًا بالندوب، والتعب يُغالبه، ونظر إلى حميدو بعين حادة، ثم انصرف، فخرج خلفه غاضبًا، ومعه رجاله يمسكون النبابيت والخناجر، وانطلقت من ناحية اليمين أصوات تكسير وصرخات، فهرول الجميع ناحيتها، ووجدوا رجالًا غرباء وملثمين يكسرون دكاكين الحارة، فانقض عليهم رجال حميدو، وتبارز الطرفان بالنبابيت، وفجأة انقض من الناحية الثانية رجال كثيرون، ودارت معركة طاحنة بين الجميع، وقف خلالها حميدو في المنتصف وانتزع مسدسه «اللوجر» من صدره، وأطلق رصاصات طائشة ناحية الرجال الملثمين، فأصابت اثنين، ومات واحد، وفرغت طلقاته، فرمى المسدس على الأرض، وركض ناحية

بيته، فاعترض طريقه رجل ملثم ضخم الجثة، فقفز حميدو في الهواء وضربه برأسه، فمات، ولما وصل إلى بيته في نهاية الحارة ووصل إلى مدخله، وانتزع من وراء بابه نبوتًا طويلًا وأسود ومقدمته مليئة بالمسامير، والتف ليعود إلى القتال ورأى من بعيد رجاله يبسطون سيطرتهم على المعركة، واندهش لما وجد عساكر من القسم وعلى رأسهم ضابط شاب لا يعرفه، ينزلون من سياراتهم ويلقون القبض على رجاله فقط، ويتركون الرجال الغرباء، واستشاط غضبًا، وخرج من باب منزله، فضربه رجل من الخلف بقدمه، وسقط حميدو على وجهه ونزفت أنفه، لأنها اصطدمت بدبش الأرض الصلب، ووقف ورأى رجل ملثم يمسك بمسدس «لوجر» ويوجه فوهته ناحيته، ثم أطلق عليه رصاصة أصابت قدمه اليسرى، قاوم السقوط على الأرض، فأطلق الملثم رصاصة ثانية عليه، فسقط سقوطًا مدويًا، وغرقت عيناه في الدموع، ثم ساخت في سواد شديد بلا رؤية واضحة، ومع كل قطرة دماء تخرج من جسده كان ينطفئ توهج قلبه المشتعل، وتباد خلايا عقله الغجري الوكيع، وعلا في أذنه شدو كامد، تيقن من شدة بؤسه أن الموت لا يعلو عليه سيد، أو سلطان، أو قوي، ومهما هاب قوتك لسنين مديدة، سينقض على صفحات روحك في وقت مقبب بالسرية الخبيثة، ليدون عليها بقلمه الدامي، أشد سطور النهاية فوق البؤس بؤسًا، وينتزع بعدها الروح برغبة كاسحة لا تستطيع كبحها، لما لها من شدة فوق شدة جبابرة الأرض مجتمعين في قبضة يد واحدة. وهدأ فجأة الصخب بانسيابية هادئة، وشعر حميدو بالبرد يسري في عروقه، ورأى صفحات روحه مدون عليها سطور دموية بلغة لا يعرفها، وأغلق عينيه، وانتظر رحيله عن ملكه في الغابة الدنيوية.

***

الفصل الثامن عشر

بعد عودتهما من الجزيرة، أشار الصياد على المُعظَم أن يرسل حُراسه ويطوفون الجزيرة، ويخبرون السكان أن الوضع حرج، وإن لم يحموا الجزيرة بأنفسهم من خطر كائنات الظلام لن تحمل الأيام القادمة خيرًا لهم، بل شرًا سحيقًا يُجفف أمعاءهم، ويقتل أطفالهم، ويكبح انبعاث ضوء الشمس على أرض الجزيرة الطاهرة، والمطلوب منهم مشاركة القوات الملكية في التجهيزات اللازمة للمعركتين اللتين سيخوضهما المعظم، الأولى في الأرض الزراعية، لتخليصها من الكائنات التي تسيطر عليها، والعودة للزراعة بشكل متوسع، والثانية ستكون من نصيب الكائنات القاطنة في البحر وتلتهم الجزيرة، وتحاول التسلل من السور. والمشاركة إما بمعاونة القوات الملكية في تدريباتها، كتحضير طعام، وتجهيز ساحة التدريب، ومعالجة إصابات التدريب، أو بالانضمام إلى الحراس، فوافق المُعظم، ورفع سن الخدمة في الحراسة الملكية إلى أربعين عامًا بدلاً من ثلاثين بقانون ملكي. وطاف الحراس في الجزيرة وألقوا على السكان كلمات الصياد، وكانوا يختمونها بوعد من الملك، بأنه في حالة القضاء على هذا الخطر، سيسلم جلالة الملك حكم الجزيرة إلى المُعظم الصغير ليستمر في تطبيق قوانين وتعاليم الجد الأعظم، ويعدل بين الجميع، ويجدد الثروات الطبيعية، ويزيد من الإنتاج السنوي للطعام. وقابل السكان الحراس في البداية بالرفض، والخنوع للذل، ولكن كان لزيادة تكرار الطواف أثر بلغ مداه المرجو، حيث جاء الكثير من الرجال الذين بلغوا الثلاثين، والفتيات، والقليل من المسنين وطالبوا بالانضمام إلى صف القوات الملكية، فأمر المُعظم أطباء البيت بفحص المتقدمين، والتأكد من صحة أجسادهم، وقدرتهم على العمل القاسي، ومن ثم توزيعهم على الأدوار الفارغة. وفي وقت وجيز سارت الأمور مثلما يبتغيها «تومكس». ولكن طرأت مشكلة نقص الغذاء على المعظم، بسبب توقف الزراعة، وقرب انتهاء خزين القمح، وغيره من المنتجات الزراعية الأساسية، واللحوم والدواجن، فاحتار، واختلى بنفسه ليجد حلاً، وخرج وأمر الحراس بتقليل نسب توزيع القمح والمنتجات الزراعية، واللحوم والدواجن على السكان،

وقال في باله: «إن ساء الأمر أكثر من ذلك، فأكل الفاكهة والأعشاب والنباتات التي تنمو بالقرب من الأشجار خير، وصحة للأبدان إن انتهى مخزون الطعام». وأوصى الصياد بضرورة تعليم القوات الملكية استخدام الأسلحة الجديدة، والتدرب عليها بشكل دقيق، ووضع خطة هجوم، وتقسيم للأسلحة، والأعداد التي يحتاجها في المعركتين، والنتائج الإيجابية والسلبية التي من المتوقع أن تقع، وكرر وعده بأنه بعد القضاء على الكائنات، سيرجعه معززًا إلى الإسكندرية، واقترح عليه البقاء في الجزيرة ليعيش بها، ويكون مسئولاً عن الأمن، فرفض الصياد، وصمم على العودة... وواظب المُعظم على مُتابعة «الناظري»، وما وصل إليه بعدما علم منه أن بوابة القدماء لم تغلق بَعد، وينتظر الوقت المُناسب لتنفيذ الطقوس، وشرط التنفيذ أن تكون السماء صافية، وهذا أمر صعب خاصة مع دنو فصل الشتاء، ولكن لا يوجد حل سوى الانتظار.

***

ليلاً اختلت الملكة بالمُعظم الصغير في حجرتها، وكان وجهها الأبيض يابسًا، وفقد جسدها الكثير من وزنه، وعيناها بهما مسحة حمراء لأنها لا تنام، وملابسها لم تكن زاهية كعادتها، وزرع وجهها شعر خفيف أسفل فمها، وعلى وجنتيها، وتحدثت مع المعظم بصوت متهدج يُغالب الغرق في بحر لا نهاية له.

-الأمور في الجزيرة تَسير بخير، هناك بعض الاعتراضات، ولكن أغلب السكان يميلون لك أكثر من والدك.

أمسك يدها وقبلها، وقال:

-كيف علمتِ؟

- حينما تعتلي العرش ستعرف، الآن صب كل تركيزك على المعركتين.

-لا تقلقي، بداخلي تساؤل مهم.

-ما هو؟

- مات الحاكم الثالث أم قُتِل؟

وقفت الملكة ودنت من نافذة الحجرة وأغلقتها، وأشعلت غليونًا، وقالت:

-تاليا قامت بما ينبغي.

-قتلته؟

-قتل نفسه بطمعه في العرش.

اقترب من أذنها وقال:

-ماذا فعل في غيابي؟

-الوقح هددني بفضح أسرارنا، وثمن سكوته كان تنازلك عن العرش له.

صمت المعظم، فأردفت:

-لذا استحق ما فعلته تاليا به، ودفناه في المقابر الملكية سرًا، ولم يعرف ذلك سوى «الناظري»، ومسئول الأمن، وطبيب أبيك.

سعلت الملكة، وسارت في يدها رجفة قوية، فقال المعظم:

صحتك تتدهور يا أمي، ما بكِ؟

وضعت الغليون جانبًا، وأخرجت القليل من الدخان، وصمتت، وسألها:

-انشغلت عنكما، أين شقيقتي؟ لا أراها.

انتحبت الملكة، وفقدت الرؤية لثوان، وبكت بحزن لم يره المعظم من قبل، فأعاد سؤاله بخوف عظيم، فقالت له إنها مرضت وتوفت، ودفنت في نفس يوم دفن الحاكم، ذرفت عينه دموعًا غزيرة، وضرب بقدمه سرير الحجرة المصنوع من الذهب، هدأته الملكة، ودفنت رأسه في صدرها،

وقالت:

-إن ابتغيت الانتقام حقًا صب غضبك على المعركتين، لتعتلي كرسي العرش، وتضع أقدامك فوق أعناق الخطاة، والخونة، وتزرع حذاءك الملكي في أفواه الجميع بالحب والقوة.

رفعت رأسه ناحيتها، وقالت بحدة:

-دع البكاء لعيني البائسة فهي اعتادت عليه، وقم وأكمل ما بدأته أيها الملك العظيم.

-لستُ عظيمًا، أبي قُتِل، وشقيقتي لحقته، ومات الكثير أثناء الهجوم الأول، وأنا ثابت في الأرض مثل شجر الخريف، تتساقط أوراقه، فيرمقها بيأس دون تدخل.

-ليس لك ذنب في نفوس مريضة باعت انتماءها، وبحثت عن الكنوز القريبة، وانتظرت الفرصة، وطعنتنا في ظهرنا. أنت قوي، ويوم ولادتك عرفت ذلك، فكنت أصرخ من الألم، وظللت هكذا لوقت طويل، ولما خرجت مني، ظل أبوك يضحك، وقال إن ولادته كانت متعثرة مثلك، لأنك قوي مثله، وحملت صفاته، وصدقت كلامه بمرور المواقف الصعبة علينا، وبما تفعله الآن.

-أبي كان فاسدًا، وأسنانه كانت مليئة دومًا باللحم، وفي الجهة المقابلة سكان الجزيرة يأكلون لحوم الأبقار مرتين فقط في الأسبوع.

-أبوك فسد في آخر عهده، لأنه اعتمد عليك في إدارة كل شيء، وكان يحاول الاستمتاع بما تبقى من عمره، لكن صدقني، كان أفضل من أبيه، ومن الجد الأعظم.

-قلبي مليء بالآلام الخبيثة.

-قم، واثبت لي أنك أفضل منهم أيها الملك العظيم.

-أمرك يا أمي، أمرك.

هز رأسه، وخرج من الحجرة، قاصدًا العودة إلى مكان تدريب القوات الملكية، ومسح عينيه من الدموع، وتأجج عقله بنار الانتقام.

***

أمام البيت العظيم، كانت التدريبات مستمرة بدقة، تحت رقابة الصياد، وكان ينام على الأرض مئة ضابط، ويرتدون ملابس خفيفة للاعتياد على البرد، ويمسك كل واحد منهم بندقية ويثبتها بيديه، ويغلق عينًا، ويفتح الثانية، وعندما يصيح الصياد يطلقون الرصاص على أجوله، على مسافة بعيدة، ومَن يفشل في التصويب بشكل صحيح يوبخه الصياد، ويمنع عنه وجبة طعام من الثلاث الوجبات اليومية، ويهدده بالطرد من القوات الملكية. وخلف هذه المجموعة، كان يقف مسئول الأمن وأمامه مئة حارس مقسمون إلى عشرين مجموعة، يتبارزون بالسيوف والخناجر ضد بعضهم، ومَن يتهاون، أو يتكاسل يحرم من وجبتين، ولا ينام لمدة يومين، وكان صوت مسئول الأمن عاليًا ويحمسهم على التدريب. وعلى حافة الجبل كان يقف عشرة من البنائين المحترفين، ويقومون بقياس المساحات، ويدونون الأرقام على ورق البردي، ويتشاورون بصوت خفيض فيما سيفعلونه. وعند سفح الجبل كان هناك الكثير من الضباط والحراس يقف أمامهم ضابط في الخمسينيات من عمره، طويل القامة، ويمتلك منكبين عريضين، ويتحدث بصوت جهير، وغليظ، عن المعركتين القادمتين، ويؤكد بنبرته الشديدة أن التراخي، والتكاسل، والخيانة سيكون ثمنهم الموت، وكانت العيون منتبهة، وتتابع كلماته بخوف. وفي كل برج خشبي كان يقف خمسة حراس يمسكون بالبنادق في وضع استعداد، ويطلقون الرصاص على أجوله أسفلهم، ويراجعون في بالهم التعليمات التي قالها الصياد أثناء التدريبات، ويبذلون ما عندهم لتقليل الأخطاء. وفي مجرى البوابة الرئيسية للسور وقفت مجموعة من الضباط تتابع بعيون فغرة حركة الكائنات الضخمة في البحر، ويدونون الملاحظات على ورق البردي، ويرسلون تقارير كاملة في نهاية كل يوم إلى البيت العظيم، فتقوم الملكة بإرسال تلك التقارير إلى أعضاء منظمتها السرية لمراجعتها، واتخاذ

الإجراءات اللازمة. وكانت تاليا تتابع ما يقوله سكان الجزيرة يوميًا، وترسله في ورقة واحدة إلى الملكة كل ليلة، ومن يتطاول على البيت العظيم تتخذ معه ما يلزم، وسعت جاهدة لتنفيذ جميع أوامر الملكة بدقة، وسرعة.

***

مَر أسبوعان منذ بداية التدريبات على استخدام الأسلحة الجديدة في الجزيرة، بذل فيهما «تومكس» ما في استطاعته، وقدم له ابن الملك ما قَدر عليه. وشعر السكان بخطورة الموقف فانحازوا ناحية المُعظم، وأيدوا البيت العظيم، وانتهت الخلافات، وتمخضت سماء الجزيرة بالسلام، والسكينة، لكن قلب الملكة لم يهدأ، واستشعر خطرًا خبيثًا غير واضح يدنو منهم بتباطؤ، وسينقض عليهم ويضع أنيابه السامة في أوصالهم. وتساءل السكان عن سر اختفاء الملك، فبَرر المعظم ذلك بحجة مرض شديد أصابه، وطالبهم أن يسألوا الجد الأعظم، ليشفيه ويَقدر على المشاركة في المعركتين، وتعزيز روح القوات الملكية بشقيها الضباط والحراس، والرجال والشباب الذين انضموا مؤخرًا دفاعًا وحبًا في الجزيرة. وكانت الاستعدادات تتم في آدق صورة ممكنة، وأمر المُعظم البنائين، ببناء سور ضخم من الصخور في مُنتصف الجزيرة، ليعزل النصف الأول الموجودة فيه بوابة السور الرئيسية، وستقام به المعركتان، عن النصف الثاني الذي يحمل الجبل والبيت العظيم وبعض المنشآت، وحفر ممرًا منحدرًا في الأرض أسفل ذلك السور ينتهي بباب حديد ضخم. وقد خُصص ذلك الممر لعبور القوات الملكية من خلاله في الوقت المُحدد. وأمر جميع خادمات البيت العظيم بالنزول إلى مخبأ الجزيرة المركزي المطموس أسفل الأرض بعد مسافة قليلة من الجبل، وإعداده وتنظيفه وتخزين الزيوت المخصصة للأوعية، وملء غرفة الطعام بما يكفي ليومين من الفواكه المُجففة، والنباتات والأعشاب الصالحة للطعام، وزرع أرضيته بسجاد ملكي لتمهيد السير عليه، وتهدئة البرد الناتج من انخفاض درجات الحرارة، وأكد عليهن بألا ينسوا تنظيف مخارج التنفس، والأوعية كي لا

يختنق السكان، بالإضافة إلى إعادة كل هذه التعليمات في المخبأ الملكي الموجود أسفل البيت العظيم... ولما انتهى كل شيء، اجتمع المعظم مع الصياد بحجرة سرية في الطابق الثاني من البيت العظيم، وجلسا على طاولة خشبية، وقال المعظم بحزم:

-الجزيرة تنتظر خلاصها، هل أنت مستعد؟

-الجزء المخصص من الضباط والحراس أتقنوا استخدام الأسلحة بشكل جيد، ولا ينقصنا سوى البدء.

-ألا تحتاج لأي شيء؟

-أحتاج عرض الخطة النهائية عليك لمعرفة رأيك.

-حسنًا ولكن قل لي لماذا حلقت شعر رأسك وذقنك بهذا الشكل؟ هل أصابك القمل؟ أو صحتك ليست بخير؟

سعل الصياد، ورد بصوت متهدج:

-حلقت شعري كي لا يزعجني في التدريبات، صحتي مقبولة، أنا فقط متعب.

-هل تحتاج لتأجيل المعركتين ليوم إضافي؟

مسح الصياد حبات عرق نبتت على وجهه رغم أن الجو بارد، وقال:

-لا وقت لدينا، أنت تحتاج كرسي العرش، وأنا أحتاج رؤية أسرتي كما وعدتني، ولا تنسى أنني أحتاج بوصلة وخريطة في رحلة عودتي.

-عينك حمراء، وصوتك متقطع، وجسدك نحف قليلاً لأنك لا تأكل، كيف ستقدر على المعركتين؟

ضرب الصياد بيده على الطاولة، وكظم غيظه، فأردف الثاني:

-واضح أنك تشتاق لرؤية أسرتك مهما كلفك الأمر من مخاطرة قد تنجو

منها أو لا، المهم ما هي خطتك؟

-الهجوم في الأولى، والمهادنة في الثانية.

-ماذا تقصد؟

-سأشرح لك.

استقطع «تومكس» وقتًا ليشرح الخطة الكاملة للمعركتين، ولما انتهى من حديثه زادت علامات الإرهاق عليه، وأغمض عينيه ليستريح، فصمت المُعظم للحظات تأمل فيها حالته السيئة، وغازلت باب الحجرة طرقات خفيفة، ثم فُتح ودلف «الناظري»، فرفع الصياد رأسه، ونظر له بقلق، وبادره المعظم:

-ما الأخبار؟

-نعم، غدًا مناسب لإغلاق البوابة بشكل قطعي، والاستعدادات انتهت.

قطب المُعظم حاجبيه، ونظر الصياد للناظري بحيرة، فسألهما:

-هل قلت ما لا يصح؟

-لا، ولكن المعركتين سيكونان غدًا.

كان ذلك المعظم، فتابعه الصياد:

-والأمر معقد بشدة.

دنا منهما، وقال بأدب:

-أقسم بحياتي أنني سأغلقها غدًا، ولو وصل بي الأمر للتضحية بنفسي، كي تعيش أسرتي في سلام.

انتبه الناظري لكلماته، فأسرع:

-وجزيرة الجد الأعظم بالطبع، ولكن عدني أيها المُعظم بأن تحفظ أسرتي إن وقع لي مكروه؟

-أعدك إن ظلت الجزيرة كما هي، ولم تنهشها الوحوش الضارية التي تعيش في البحر.

***

حلَّ الصباح، وانبلجت الشمس، وانقبضت قلوب سكان الجزيرة، واغتمت الأمهات والزوجات اللواتي يشارك رجالهم في المعركتين، وانتحبت الملكة، وتمزعت عيونها ألف مرة لما تخيلت ابنها يُمزق بأيادي خفية. وقد أمرت خادمات القصر، وتاليا، وأعضاء منظمة «اليد المطهرة» بالاختباء في المخبأ السري الموجود أسفل البيت، والاستعداد لأي خطر قد يحدق بهم، وكان فؤادها رثًا، وهزيلًا. وانتشر الحراس فوق أحصنتهم في الجزيرة وأخبروا السكان أن الميعاد اليوم، وعليهم الجلوس في المخبأ المركزي ذي المساحة الشاسعة، فخرجوا من بيوتهم، وحملوا أطفالهم وعبروا النصف الثاني للجزيرة من الممر المنحدر، وكان الحراس يقفون حولهم، ويشجعونهم على السير بسرعة، ويعاونون كبار السن والأطفال الذين يتعثرون، ويوجهونهم إلى طريق المخبأ، وكانت الوجوه صامتة، وحزينة، والجميع مُتدثر برداء الألم والخوف. وكانوا ينزلون إلى المخبأ من بابه الضخم في الأرض القريب من جبل «الفراديس». ولما انتهى ترحال السكان، أغلق عليهم الحراس باب حديد ضخم، ووضعوا فوقه طينة الأرض، وأعشاب، فاختفى الباب كأنه لم يكن، وسار الصياد بحصانه ومعه المُعظم، ولاحظ في النصف الأول من الجزيرة مباني خشب صغيرة يحاوطها الحديد، فسأل المُعظم، ودرى أن هذه الأبنية تحمل بداخلها، سيوفًا، وخناجر، وسكاكين، ودروعًا، وأقواسًا وأسهمًا، لاستخدامهم وقت الطوارئ. وعبر الحراس والضباط من الممر المنحدر، ثم أغلقوا بابه الضخم، وسد الحراس بداية الممر، بصخور كبيرة، أخذوها من جبل «الفراديس». ثم تحركوا ناحية الأرض الزراعية، وكان الضباط عددهم أقل، فحملوا المسدسات، والسيوف والخناجر، وارتد كل ضابط سروال قماش قصيرًا وخفيفًا يساعدهم على الحركة، وقميصًا أسود ثقيلًا، وشريطًا أحمر ملفوفًا على الساعد، وأحذية جلد سميكة، وارتدى الحراس

نفس الملابس، فيما عدا القميص فكان أبيض، وكانوا مقسمين لأكثر من فريق، الأول حمل البنادق والسيوف وهم الأكثر خبرة، وقوة وعددًا، وأثبتوا كفاءة في التدريبات، والثاني حمل البنادق والخناجر، والثالث المسدسات والسيوف والأقواس والأسهم، والرابع كان مخصصًا فقط لإلقاء القنابل اليدوية ومعهم خناجر وسيوف. ووقف «تومكس» وخلفه ابن الملك أمام الأرض الزراعية ذات المساحة الرحبة، وخلفهما القوات الملكية على مسافة، ونظر الصياد خلفه، وأمر خمسة حراس بجلب صناديق حديد ثقيلة، فحملوها وساروا بها ببطء وحذر، ووضعوها أمامه وفتحوها، فأشار لهم ليبتعدوا، ونظر على ما تحتويه الصناديق من ألغام أرضية، كانت مستديرة الشكل وسميكة، وبكل واحدة لمبة حمراء صغيرة جدًا، وفي منتصفها حلقة صغيرة من الحديد. ووزع الصياد بحذر هذه الألغام حول الأرض الزراعية، ولما أراد المُعظم معاونته رفض، ونبهه من لمس الألغام. وانتهى من توزيع اللغم بعد وقت كبير، تفصد فيه عرقًا غزيرًا، وكانت ضربات قلبه مُتسارعة، وجلس على الأرض يلتقط أنفاسه، ثم وقف وأمر الفرق التي تحمل البنادق بالوقوف في وضع استعداد ومعهم الفرقة الرابعة التي تحمل القنابل اليدوية، وطلب من باقي الفرق الابتعاد، والاشتباك في حالة ظهور الكائنات، وتراجع للوراء، ورفع ساعده الأيمن، وأنزله، فأزال الحراس فتيل القنابل اليدوية وألقوها داخل الأرض الزراعية، فانغمست القنابل في الطين المتشقق، وبعد ثواني قليلة انفجرت وأحدثت ضجة عالية، وتطاير الطين على الجميع، واصطدمت بأجساد الحراس والضباط دماء سوداء، وأجزاء من لحم غير بشري وثقيل، فأيقن الصياد أنه قتل العديد من الكائنات، ودوى صوت صراخ عالٍ من الأرض الزراعية، تبعه خروج خمسة كائنات ضخمة يسيرون على الأربع وأجسامهم سوداء، ولهم عيون كثيرة، ورؤوس مستديرة وضخمة، وذيول طويلة تنتهي بمثلث أحمر، فرفع الصياد ساعده وأنزله، وألقى الحراس بقنابل يدوية جديدة، فانفجرت فيهم، وأشار لحاملي البنادق، فاندفعوا بوابل شديد من الرصاص، فسقطت الكائنات في مكان مجيئها، واندفعت من الأرض أربعة كائنات تشبه السابقة لكنها أضخم، وتراجع الصياد،

وانفجرت فيهم الألغام الأرضية، وصرخوا بصوت عالٍ لا مثيل له، كاد يمزق آذان الجميع، واستطاع كائن منهم الهروب من ضربة الصياد القاضية، وهاجم عدد من القوات، وقتل بأرجله الطويلة المليئة بالشعر ضابطين، وثلاثة حراس، وأصاب البعض، وركض مذعوزا باتجاه البوابة الرئيسية للسور، فسحب الصياد بندقية آلي، وأمر عشرة حراس بالركض وراءه، وركض خلف الكائن، وصاح في المعظم:

-تأكد أن الأرض الزراعية خالية من الخطر.

استمر الكائن في الركض، ووراءه الصياد والحراس، ولما وصل إلى السور، رفع أرجله الأربعة عليه وصعد، فأطلقوا عليه الرصاص، فسقط وصرخ، ونزف دماءً سوداء كثيرة، وعاد للخلف بجسده الضخم، وسار بتؤدة ناحية الصياد والحراس، فالتقط الصياد قنبلة يدوية، سحب فتيلها وألقاها بالقرب منه، وانفجرت وأصابت أقدامه، فتدلى، وسقط على ظهره المليء بالشعر، ورفع أرجله الأربعة إلى فوق وأغلق عيونه، وانتظر الصياد لبرهة، ثم اقترب، وتأمل شكله، وتأكد من موته، وفتح الكائن فمه فكان مستديرًا، وبه أسنان طويلة وحادة، ولونه الداخلي وردي، وانبعثت منه رائحة كريهة أصابتهم بالتقزز. واهتزت الأرض أسفل أقدام الصياد ورأى المُعظم يدنو، وخلفه القوات الملكية، وقال له:

-الأرض الزراعية خالية، ووضعت عليها رقابة من بعض الضباط.

هز الصياد رأسه، واصطدم بهزة أرضية قوية، فالتفت ونظر وراءه ووجد أن بوابة السور الرئيسية انهدمت، ويخرج منها تراب كثيف غمر الهواء، وارتفع صوت أمواج البحر، وزادت رائحة اليود في الهواء، وكانت الكائنات تخرج من البحر وتدخل أرض الجزيرة من البوابة المهدمة، وكانوا مثل الجيش، مرتبين ويسيرون بحركة ثابتة، وأحجامهم مُتباينة، وأشكالهم مختلفة، بعضهم من نفس الفصيلة التي قاتلوها في الأرض الزراعية، وجزء منهم كان ضخم الحجم، يصل طوله لثلاثة أمتار، وأجسادهم مليئة باللحم المتدلي، وعيونهم مغطاة بالجلد، ونصفهم السفلي مدجج بشعر

أسود كثيف، وخالي من الأعضاء التناسلية، ونصفهم العلوي خالي من الشعر، وبه أثداء ضخمة ومكورة، ولكل واحد منهم ساعدان يصلان إلى الأرض، ورجلان تنتهي بأقدام مستديرة وبها ما يشبه المسامير السوداء. وكانت تجري خلفهم فصيلة مختلفة، يسيرون على الأربع، ولهم عيون كبيرة، وجسد مغطى بالشعر، نصفه أبيض، والنصف الآخر أسود، ولهم مناقير طويلة جدًا تهتز وتتحرك في اتجاهات عديدة، وحركتهم سريعة. ووسط هذه الفصائل الثلاثة، انغمست بالقرب من أقدامهم فصيلة رابعة شكلت الأغلبية من هذا الجيش، كانوا أشبه بالثعابين، وطولهم يتعدى السبعة أمتار تقريبًا، ولونهم أصفر قاتم، ولكل واحد عين مستديرة واحدة، ورأس مثلثة يغلفها الشعر الأصفر من فوق، وكانت ألسنتهم طويلة للغاية، وأفواههم خالية من الأسنان، ويسير الواحد منهم على معدته بسهولة شديدة، وكانت تجري حولهم كائنات صغيرة وخبيثة لم تكن واضحة من بعيد. وكان الغبار كثيفًا، وصوت حركتهم عال للغاية، ويخرجون أصواتًا غير متناغمة، أزعجت الجميع، وزادت من خوفهم الداخلي، ووقف المعظم خائفًا وصاح في الصياد:

-ماذا تنتظر، فلنطلق عليها الرصاص والقنابل.

كان الصياد يرتجف قليلاً، وصاح:

-ننتظر رد الألغام أولاً.

اقترب جيش الكائنات أكثر، وفجأة انفجرت الأرض من الألغام الأرضية التي زرعها الصياد، وماتت منهم الكثير من الكائنات، واستطاع جزء ضخم الهرب في اتجاهات مختلفة، فصاح الصياد:

-الآن، تفرقوا.

ركضت القوات في مراكزها المحددة، وسحب الصياد المعظم من يديه وركضا للوراء، وبدأت المعركة النهائية مباغتة للجميع. ولما انتهى انفجار الألغام، انتشرت دماء الكائنات على الأرض، وزاد غبار الهواء، بقسوة، فلبد الرؤية، وانخرط في أرض المعركة يحارب الجيشين، وكان صوت إطلاق

الرصاص والقنابل اليدوية لا يتوقف، والأسهم تطير في السماء لتسقط على الكائنات وتصيبهم، والقليل منهم يتأثر بها ويموت، وبعد فترة كبيرة من المطاردات المتفرقة، اجتمع جيش الكائنات مرة ثانية، وساروا لداخل الجزيرة، فصاح الصياد بجنون، وطلب من القوات الملكية العودة للنظام، والالتفاف حول الكائنات لتطويقهم، فجاءت القوات سريعًا، وطوقت الكائنات بحزام من الأجساد البشرية، وكانوا يطلقون الرصاص، ويلقون بالقنابل، وهجمت الكائنات على الكثير من الحراس والضباط، وقتلت، وأصابت الكثير، لكنهم أظهروا بسالة ومثابرة قوية، ومن كانت تنتهي ذخيرته يمسك بسيفه وينقض على الكائنات الشبيهة بالثعابين ويقطعون أجسادها، وألسنتها الطويلة، أما الفصيلة الضخمة التي لها أثداء كبيرة، تولت أمرها فرقة القنابل اليدوية، وكانوا يركضون بجوارهم ويلقون عليهم القنابل، فكانت تلتصق بهم وتنفجر، لأن أجسادهم تخرج منها مادة بيضاء لزجة مثل الغراء، فيسقطون على الأرض ويصرخون، ويجدون القوات الملكية تطلق على رؤوسهم الرصاص، ويموتون. وأمام هذه البسالة القوية، مات الكثير أسفل أقدام هذه الكائنات، دهسًا، وبلعًا، وقتلاً من فصائل صغيرة تجري بسرعة، وتقفز على الرأس فتفصلها عن الجسد، ولما دقق الصياد فيهم تذكرهم، لأنه شاهدهم حينما وقع الهجوم الأول. وفي منطقة منزوية عن المعركة، انفرد كائن ضخم بجسده المليء بالشعر، والأثداء الضخمة، بالصياد والمعظم، وكاد يقتلهما لولا أن حارس ركض عليهما، وألقى ناحيته بقنبلة يدوية، التصقت بمعدته، وانفجرت فسقط على الأرض، وأحدث هزة قوية، وتطايرت دماءه السوداء على الثلاثة. وركضوا بعدها واقتربوا من المعركة، فلاحظ الصياد أن أعداد القوات الملكية تتناقص بالقتل وبالإصابة، فنظر سريعًا إلى المعظم وسأله بصوت عال:

-الزيت؟

لم يسمعه لشدة ارتفاع صوت المعركة، فأعاد كلمته، فهز رأسه بحزم وقال:

-نعم، لا وقت.

فركض «تومكس» باتجاه القوات الملكية، وصاح فيهم:

-تجمعوا وانتظموا فوق تلة «الجراكو».

ركضت القوات وصعدت على التلة، وجذبت فرقة مكونة من خمسين ضابطًا الكائنات إلى دائرة محاطة بالأخشاب ناحية اليسار، كان يعتليها خمسة أبراج خشبية عالية، متصلة ببعضها عن طريق ثلاثة كباري من الخشب، ويقف عليها الكثير من الحراس. وتحركت الكائنات خلف فرقة الضباط، ودخلوا إلى الدائرة، فكان حولها أخشاب كبيرة وضخمة، وأرضها مليئة بزيت نباتي له رائحة نفاذة، ولما تأكد الصياد من تمام خطته، زعق في حراس يقفون في الأبراج:

-ألقوا بالنيران.

ألقوا أخشاب ضخمة مشتعلة بالنار، لامست الأرض، فاشتعلت بقوة، وتراجع الخمسون ضابطًا، وانفجرت هذه المنطقة بالكائنات، ومات منهم الكثير، وزعق المعظم:

-ضعوا ما تبقى من الذخيرة في أسلحتكم، واستعدوا.

ظلت النار مشتعلة، وخرجت الكائنات من هذه الدائرة وأجسادها مشتعلة، وركضت في اتجاهات مختلفة، وكان لهيب النيران مرتفعًا، فاشتعل الشجر، والخشب، ومات بعض الحراس لما التصقت بهم الكائنات، وفرت القوات الباقية كي لا تلحقها النار، وانتشر الدخان في الجزيرة، وغمر الرؤية، وانتشرت رائحة اللحم المشوي في الهواء، ووصلت إلى أنف القوات الملكية، فتقززت، وأفرغ المعظم ما حملته معدته. وكان الصياد وهو يتابعان ما يحدث من فوق التلة. ولما هدأت النار، أمر «تومكس» القوات الملكية بإطلاق الرصاص، والأسهم، والقنابل اليدوية المتبقية على الكائنات، ليموتوا سريعًا، وكانت جميع الكائنات تحاول الفرار، لكنها تجد في وجهها الرصاص والقنابل، مثل عدوّ بالمرصاد. وانتبه فجأة الصياد إلى

كائنين من الفصيلة الضخمة يجريان ناحية الممر المنحدر الذي يعبرون منه إلى نصف الجزيرة الثاني، فركض وسحب خلفه فرقة كبيرة من حاملي البنادق، ولحقهم المعظم، واختلت الفرقة بالكائنين، فأطلقا عليهما جيشًا من الرصاص، لم يؤثر فيهما بقوة، وراح الاثنان يزيلان صخور السور الضخم الذي بناه المعظم ليفصل بين أرض الجزيرة، وفرغت الذخيرة من القوات، وظل الكائنان يزيلان الصخور ويحاولان الصعود على السور والعبور للناحية الثانية، ودنت من القوات فرقة تحمل الأسهم والأقواس، فوجههم الصياد لإطلاق الأسهم على رؤوس الكائنين، ولما أطلقوها مات واحد منهما، ولكن الثاني باغت، وأسرع من حركته، حتى استطاع إزالة أجزاء من السور وعبر للناحية الثانية، فخفق قلب المعظم، وزاد تفصد الصياد للعرق، وركضت القوات خلفه، وتقدمهم المعظم، وأطلقوا عليه الأسهم، لكنها لم تصبه، وظل يركض بسرعة لا تناسب حجمه الضخم، ولحمه الزائد، وسقط في نهر «الجلامش» فتطايرت مياهه إلى أرض الجزيرة، ثم انتصب وأكمل ركضه، ووصل إلى جبل «الفراديس»، وتسلقه، وكاد يصل إلى قمته، وكان يصرخ ودماؤه تتساقط، وتعثر أكثر من مرة في الصخور، وسقطت صخور كان يضع قدميه عليها وهشمت سطح الأرض، وتعثر، ثم سقط على الأرض من مسافة مرتفعة، وتهمشت جمجمته، ومات، وتدلى لسانه من فمه. التقطت القوات الملكية أنفاسها، وعادوا للركض لما وجدوا الصياد والمعظم يركضان ناحية المعركة الدائرة عند التلة. وقد ماتت الكثير من القوات، وأصيب عدد لا بأس به، وبعضهم فقد طاقته ولم يقدر على مواصلة القتال، فجلسوا على الأرض بانسحاق شديد، وتبقى القليل من الكائنات التي تحتاج لمداومة القتال والقضاء عليها، وكانت الأدخنة كثيفة، والنيران تلتهم كل شيء، فصعد الصياد وهو يعرج على قدميه، وجسده مليء بالدماء، والإرهاق يُغالبه، وسقط على ركبتيه أمام كهف «الجراكو» وصرخ:

-اخرجوا.

فظهرت قوات جديدة من الحراس، كانوا ينتظرون إشارته، وركضوا من

التلة إلى ساحة المعركة، وهم يحملون الأقواس والأسهم والسيوف والرماح، وبعضهم معه قنابل يدوية، وأظهروا بسالة في المعركة، وقاتلوا باقي الكائنات، فأرهبوها، وأصابوها، وساعدهم على ذلك أن أجساد أغلب الكائنات احترقت من النار، وقوتهم استنزفت، وكانت هذه الفرقة القوات عوام السكان، الذين انضموا إلى القوات الملكية بعدما انتشر حراس المعظم في الجزيرة قبل الحرب، وطالبوا السكان بالانضمام إليهم، وكان قد أشار الصياد على المعظم، بإشراكهم في اللحظات الأخيرة من المعركة نظرًا لقلة خبرتهم، وعدم إظهارهم كفاءة في التدريبات. وبعد ساعة من المعركة ماتت الكائنات كلها، وجلست القوات على الأرض تلتقط أنفاسها. وبعد ساعتين أخذهم المعظم وخرجوا من بوابة السور المهدمة، وغاصوا في البحر وبحثوا عن كائنات ثانية، فلم يجدوا، ولاحظ المعظم اختفاء الأسماك الملونة الصغيرة، والشعب المرجانية من قاع البحر. ولما عاد إلى الجزيرة أمر الكثير من القوات بالتأكد من خلو الأرض الزراعية من الكائنات، واطمأن قلبه لما تأكد من سلامة الجزيرة. وأمر ضابطًا خمسينيًا بجلب البنائين حالاً لإعادة ترميم البوابة الرئيسية للسور وغلقها، لتعود الجزيرة سالمة يحتضنها السور. وطلب من ضابط ثان إزالة سور الصخور الذي يفصل الجزيرة عن بعضها فوزًا، وعدم إخراج السكان من المخبأ المركزي. ولما حان موعد غروب الشمس، وكان شفق السماء الأحمر رقيقًا، وتتدلى منه خيوط النور الضعيفة، عاين ابن الملك بعينيه خراب الجزيرة، ودمار بيوت السكان في النصف الذي دارت به المعركة، وهلاك الكثير من الأشجار، والطيور، والحراس والضباط، فأمر مساعدًا له بتجميع الجثث في مكان واحد لدفنها، وإحصاء عددهم، وإخراج أطباء الجزيرة من المخبأ المركزي لعلاج المصابين.

***

جلس المعظم في حجرة ضيقة بالطابق الثالث من البيت العظيم على كرسي واسع، وأمامه الصياد منهمك، وعيناه تُغالب الوسن، وكانا مُتسخين بالدماء والأتربة، وأجزاء من ملابسهما متقطعة، وتنبعث منهما رائحة عرق

قوية، وأغمض «تومكس» عينيه، وحاول آن ينام، لكنه انتبه إلى أن المعظم غير مرتاح، فسأله بصوت خرج بصعوبة:

-ما بك؟

-أنتظر إغلاق البوابة، «الناظري» الآن يقوم بالطقوس.

استند المعظم على حائط الحجرة وسار ناحية النافذة، وفتحها، فضربته لفحات الهواء الباردة وأنعشت جسده، وجددت طاقته المنتهية، ومرَّر نظره على البحر، وهدأ قلبه لأنه كان خاليًا من الكائنات، ورفع عينيه إلى السماء، فكانت سوداء وأسقطت أمطارًا كثيفة، واهتزت الأرض، وخفق قلبه، وأغلق النافذة، ودرى أن الطقوس بدأت، وسمع صوت شخير الصياد، فانزعج وخرج من الحجرة، ودلف إلى حجرة ثانية أغلق بابها عليه، وجلس فوق سريره مُتلهفًا لمعرفة ما يقع، وتُضايقه الأسئلة، وتُضيق عليه الحجرة، وشعر بخوف عظيم لأنه تخيل عودة الكائنات لأرض الجزيرة من جديد، ودون أن شعر رجع بجسده للوراء، وتدثر بغطاء ثقيل ليحمي بدنه من البرد، ونام، وصارع صوت شخيره، صوت شخير الصياد في الحجرة الثانية، وعزفا لحنًا قبيحًا.

***

في الصباح استيقظ المعظم من صوت طرقات على باب الحجرة، فوثب وفتح الباب، وكان «الناظري» واقفًا أمامه ومبللًا بالمياه، وعينه حمراء، وقال له بنبرة هادئة:

-أغلقت البوابة.

-ومالك حزين هكذا؟

-الفتيات العذارى ماتت

-كيف؟

-أقسم أنني لا أعرف، لقد أغلقت البوابة، وعاد النور من جديد، وأنفك

الظلام، ورأيت الفتيات محترقات على الأرض.

لاذ ناحية الأرض، فهدأه المعظم قائلًا:

-لا عليك، المهم أن الجزيرة ستكون بخير ولن تعاودنا المهالك.

-لن يعود شيء.

وضع المعظم كفه على رقبته، وقال بحنو:

-اذهب وارتح، لأنني سأحتاجك الفترة القادمة.

-حسنًا.

انصرف مهمومًا، وقلبه يغترف نيران الحزن والألم، وراودته أفكار خبيثة، جعلته يشعر أنه ضعيف، ولا يملك القدرة على التعامل مع السحر بشكلٍ دقيق....أما المُعظم فدلف إلى الصياد وأيقظه:

-لدينا يوم طويل، استيقظ إن أردت العودة للإسكندرية.

تبسم للمرة الأولى من قلبه، وطرد بقايا النوم من جسده، وسار معه إلى الخارج.

***

في اليوم التالي، جمعت القوات الملكية، جثث الحراس والضباط ووضعوهم في صناديق فاخرة من الخشب لونها أبيض، وصلوا للجد الأعظم كي يرحمهم، وتقدمهم المُعظم، ثم دفنوا الصناديق في قبر خصص لهم بالقرب من البوابة الرئيسية للسور، وأحاط هذا القبر سور من الخشب، غُلقت في مقدمته لوحة فوق عمود مرتفع، دون عليها كلمة «الأطهار»، وزين السكان القبر بالورود الحمراء، وألقوا على تربته الطينية ماء الورد، وغالبهم الحزن، وبكوا لفترة طويلة، ثم رحلوا، يمجدون ابن الملك بألسنتهم، ويلعنونه بقلوبهم. وأمر المُعظم قواته الملكية في الأيام التالية بفرض السيطرة، وهيكلة الجزيرة، وشكر البنائين لأنهم بذلوا جهدًا في إعادة بناء البوابة الرئيسية، ثم شدد عليهم ببناء البيوت التي دمرتها

المعركتان، في أسرع وقت. واستعان بخبرة المزارعين القدامى في معالجة الأرض الزراعية ذات المساحة الشاسعة وتهيئتها للزراعة، ولما فرغت أغلب المخازن من المحاصيل الأساسية خلت الفاكهة مصدرًا أساسيًا هي، والأسماك، خاصة بعد زيادة عدد الحراس الذين يعملون في الصيد بأمر ملكي. وعرف السكان أنواعًا جديدة من الأسماك مثل المياس، والقروش الصغيرة، والجمبري. وسأل الصياد، المعظم كيف يسمح للحراس بالخروج من الجزيرة للصيد؟ فأخبره أن الجد الأعظم وضع شروطًا لذلك، كان أهمها أن لا يصدر الحراس صوتًا مرتفعًا، ويخرجون طيلة النهار فقط بإذن من الملك، ومسموح أن يكثر خروجهم في شهور الشتاء.

وبعد أيام، حمل الحراس فوق أحصنتهم رسالة من البيت العظيم إلى السكان، مفادها أن ملك الجزيرة مات هو وابنته في الأحداث الأخيرة، وخلال أيام ستتم طقوس تولية المعظم، فصاح السكان فرحًا، وانهالت الدعوات له بالعمر المديد، والصحة الأبدية. وأقيمت جنازة ضخمة ودع فيها السكان ملك الجزيرة وابنته بالورود والشموع، وطالبوا الجد الأعظم بحمايتهما ووضعهما في مكانة يستحقانها. وبعد عدة أيام عادت الجزيرة لمكانتها المرموقة، وتزينت استعدادًا لزيجتها الجديدة من المعظم الصغير، ودهنوا البيت العظيم، وجددوا أساسه الداخلي، ووضعوا عليه ورودًا حمراء امتدت للبيوت القريبة من الجبل، وأعدت حياكة البيت العظيم ثوبًا ملكيًا من اللون القرمزي، وصنع مسئول منظمة الصناعة تاجًا جديدًا من الذهب الخالص، للمعظم. وكانت الملكة تشرف بنفسها على التجهيزات بصرامة وقوة، رغم أنها أصبحت هزيلة، ولا تقدر على الحركة مثل سابق عهدها، لكنها ثابرت، واختارت للمعظم زوجته الجديدة وهي «روزالين» ابنة شقيقتها، فتاة بيضاء، وشعرها ناعم، وعينها سوداء هادئة، وجسدها متناسق القسمات، وصوتها عذب لا يسمع إلا عن قُرب، وتتسم طباعها بالسكينة، والاحترام، ولم تكن هناك علاقة بينها وبين المعظم من قَبل، وكان يراها فقط في المناسبات العامة، والأعياد، ولم يرفض أمر والدته حينما أخبرته بضرورة زيجته منها أثناء توليته على العرش. وفي نفس اليوم أخبرته ليلاً بأمر تنظيمها السري «اليد المطهرة»، وما قام به خلال

السنوات السابقة، وأمرته بإعلان إنشاء ذلك التنظيم بعد توليته، حتى يستطيعوا العمل أسفل ضوء الشمس، فرحب بالفكرة، ووافق. وفيما بعد أمرت الملكة الحراس بأن يطوفوا الجزيرة، ويأمروا السكان بالقدوم غدًا لحضور جلوس المعظم على عرش الجزيرة.

***

ليلاً أسفل ضوء القمر، والهواء الطلق البارد يدوي في الأجواء، وقف المعظم يدخن غليونًا في نافذة بهو الطابق الثاني من البيت العظيم، وبجانبه الصياد حزينًا، ووجهه يختلط بعلامات مختلفة.

-ألست سعيدًا بعودتك غدًا إلى الإسكندرية؟

ناوله الغليون، فأخذه الصياد وشد أنفاسًا، وقال:

-مذاقه مثل الشيكولاتة.

-ما هي الشيكولاتة؟ ما علينا، هذا المذاق نتيجة خلط تبغ الغليون ببذور الكاكاو.

-أشعر دومًا أنك تعيش في القرون الوسطى، وفي نفس اللحظة تعرف ما لا يعرفه السكان عن العالم الخارجي.

-لا تهرب مني، لماذا وجهك يحمل علامات متناقضة.

-أنا سعيد بعودتي لبيتي ، لكني متخوف من مصير أسرتي.

صمت المعظم، وسحب غليونًا ثانيًا من فوق الطاولة، ووضع فيه التبغ وقال:

-أنا متخوف من مصير جميع سكان الجزيرة.

-لمَ؟

-يعملون في السوق الكبير، وتربية الدواجن والحيوانات، والصناعات اليدوية المهمة، والأرض الزراعية، والصيد بالبحر، والقوات الملكية، والبناء

والتخطيط، والقليل منهم في الطب.

-وأين عُقدة المنشار؟

-توقف الزراعة نتج عنه شلل في السوق الذي يبيع المنتجات الزراعية، ومشكلة في الصناعات اليدوية، وذلك يُدخل الجزيرة في منحدر سيئ، ونظام توزيع الثروات الطبيعية على السكان سينهار، ونتحول من منتجين إلى مستهلكين، وقد نأكل بعضنا إن بقي الانهيار مُستمرًا.

ترك الصياد غليونه، وقال:

-تعيشون في نظام اقتصادي رغم بساطته إلا أنه معقد ومترابط ببعضه، ولكن لا تقلق خبراء المزارعين سيعالجون الأرض الزراعية.

ظهرت الدموع الحبيسة في عين المعظم وهو يقول:

-أخبروني صباحًا أن الأمر معقد، وهناك الكثير من المشاكل التي يصعب حلها، ولكنهم يحاولون.

-صلي لجدك الأعظم فربما ينقذكم.

-لا صلاة لميت يا صديقي العزيز، لا صلاة.

-ميت؟

-قطعنا وقتًا لا بأس به سويًا، استعد لأنك ترحل غدًا على متن مركبة، وسيكون معك على متنها عشرة حراس، يوصلونك إلى أقرب نقطة من الإسكندرية ويتركونك.

-اتفقنا، ولكن تذكر أنك قد تحتاجني يومًا، ووقتها لن أخدمك إلا بعد إجابتك لأسئلتي الكثيرة.

-اتفقنا، ها ها ها.

صمت الصياد بعد ضحكات المعظم العالية، ورفض إلحاح عقله في زيادة الأسئلة عن مُجريات الأمور في الجزيرة، واكتفى بالضحك، ثم انصرف

لينام في حجرته من الإرهاق.

***

الفصل التاسع عشر

صباح يوم تولية المُعظم كانت تاليا تشرف على خدم البيت العظيم وهم يتحركون في خفة أسفل الجبل، ويبسطون سجادة سوداء عريضة تمتد لأكثر من خمسين مترًا، ويضعون الورود الحمراء على طرفيها، وكانت السجادة تنتهي بخمسة درجات خشبية عالية تلتصق بمنصة من الخشب طولها عشرة أمتار، وعرضها خمسة، وفي وسطها كرسي ضخم من الذهب يلمع جراء ملامسة ضوء الشمس، ومنحوت عليه «عرش الجد الأعظم»، وعلى مقعده وسادة حمراء وثيرة، ويتدلى من مسنديه خيوط حمراء رفيعة. وعلى يساره انغمس كرسي من الفضة أصغر حجمًا، وأقل بهاءً، ومنحوت عليه «عرش الملكة». وبعد انتهاء الخدم من ترتيب المنصة، جاء ضابط ضخم يحمل طاولة مستديرة من الذهب ولها خمسة أرجل وثبتها يمين الكرسي الذهبي، وأمر عشرين ضابطًا بالالتفاف حول المنصة لحمايتها، ثم جلب تاج الملك الجديد، وأسكنه على الطاولة بخشوع واكتهاء. وخلف المنصة وضعت الخادمات على مساحة رحبة من أرض الجزيرة، أكثر من ألف طاولة كبيرة بجانب بعضهم، ورتبوا عليهم أواني فخار ضخمة. وعلى مقربة كان يجلب الحراس قطعًا مربعة من الخشب، ولها حواف صغيرة ويرتبونها على الأرض. وبعد ساعة أمرت تاليا طباخي البيت العظيم بالبدء في تجهيز طعام حفل تولية المعظم، وحذرتهم من الأخطاء الصغيرة قَبل الجسيمة. وعلى مستوى آخر تابع الصياد تأمينات الحفل بطلب من المُعظم، وامتطى حصانًا أبيض له عيون هادئة، وشعر غزير، ودار حول الأبراج الخشبية وتمم على وجود عشرة حراس في كل برج، وكان يصعد بنفسه ليتأكد من جودة الأقواس والأسهم التي
يحملونها. وفيما بعد قسم القوات الملكية إلى فرق، أفضلهم يسيرون حول المعظم ويحمونه أثناء وقوفه على المنصة، والباقي يكونون فوق الجبل لحماية البيت العظيم من الداخل والخارج، ودحض أي محاولة لاقتحامه.

وأرسل مئة حارس ليخبروا السكان أن طقوس تولية الملك ستبدأ الآن، وعليهم الحضور بأفضل ما لديهم من ملابس.

***

في البيت العظيم جلست الملكة بحجرة التجميل، ومعها «روزالين» ترتدي ملابس قصيرة وتجلس على كرسي، ومعها سبعة خادمات، الأولى تهندم شعرها، والثانية تمسح قدمها بحجر أسود لتزيد من نعومتها، وتقلل طول الأظافر بسكينة ضئيلة الحجم، والثالثة تزيل شعر جسدها الرقيق، وباقي الخادمات يجهزن لها ثوبًا ملكيًا أبيض، تنتهي حوافه بقطع من الذهب، وله ذيل عريض وطويل، وفيه قطع صغيرة من أحجار كريمة بألوان متنوعة بين الأبيض، والأخضر، والأزرق، والأحمر. وكانت الملكة تتابع بعينين إحداهما حزينة لأن ابنتها ليست معها، والثانية فَرحة لنجاح ابنها في الوصول إلى العرش، أما عقلها فكان خامدًا ولا يُضنيه التوجس، وتذكرت يومًا كهذا أصبحت فيه ملكة، وتزوجت من رجل غريب، يُقدرها ولا يمتنع عن تلبية ما يُرضيها من طلبات، ويخون ميثاق الزواج الملكي ليلاً مع خادمات القصر.

-يا جلالة الملكة أما زلتِ تحملين الهم؟

-لا ملكة بعدك اليوم يا ابنة شقيقتي، استعدي لأنك ستحملين هذا اليوم حملاً لن يُضاهيه شيء.

ارتعدت «روزالين»، وعاينت القلق في الملكة للمرة الأولى، وصمتت صمتًا بليغًا، وانطمست بداخلها مخاوفها من الزواج برجل غريب لا تعرف عنه سوى لقبه. وانتصبت الملكة وانصرفت لحجرتها، لترتدي ثوبها الملكي الأنيق، وكانت تسحب أقدامها من الأرض بإرهاق شديد.

***

في بهو الطابق الثالث استعدت عضوات تنظيم «اليد المطهرة» بأثواب ملكية صفراء وثقيلة، ولففن على الخصر أحزمة من الجلد بها غمد ناحية

اليسار، وضعت كل واحدة فيه سيفها، وارتدين أحذية من الجلد، وكانت السعادة الهادئة ترتسم على وجوههن النقية، ولما سمعن صوت أقدام تاليا الثقيلة تقترب، صمتن جميعًا ووقفن بثبات، حتى ظهرت تاليا وأمرتهن بالنزول معها للأسفل، والخروج أمام سكان الجزيرة في الوقت المناسب.

***

اجتمع السكان أمام جبل «الفراديس» بأثواب بيضاء جديدة، لتناسب طقوس تولية الملك الجديد، وتصد لفحات الهواء الباردة، ومجدوا الجد الأعظم بصوت عال، وطالبوه بمعاونة المعظم في حكمه، وكان حولهم الحراس والضباط يتابعون بعين الحذر حركتهم، ويتقدمهم مسئول منظمة الأمن بوجه يابس، وغضب شديد، لأن المعظم أخبره بأنه سيريحه من مهامه، ويكون مسئولاً بنفسه عن منظمة الأمن. وكان البحر قويًا، وأمواجه تصرخ وترتفع وتهبط، وتثير رائحة اليود في الأجواء، والسور على يسار السكان شاهق الطول، ويلمع على غير العادة، وخلفهم نهر «الجلامش» الطويل على مسافة قريبة، ومليء بالورود وسطحه براق. وكان الأطفال يعبثون بالأحجار والأخشاب، ويقفزون ويضحكون بسعادة. وخلف المنصة كان الخدم الرجال، والطباخون يضعون ألوانًا متنوعة من المأكولات البحرية المشوية مثل الجمبري، والكابوريا، وأسماك القرش الصغيرة، وكميات ضخمة من الموز، والبرتقال، والفراولة، والجوافة، والرمان، والبطاطا المشوية. وقبل غروب الشمس بساعة خرج المعظم من البيت العظيم، بثوب أسود ثقيل، وبارز عند الصدر برسمة من الذهب لرأس والده، وذراعيه ينتهيان بأساور من الذهب، ويرتدي خاتم ذهب له رأس أفعى في إصبعه الأوسط بيده اليمنى، وحذاء طويلًا من الجلد وعليه نقشة محفورة لسيف يخرج منه ضوء قوي، وكان يلتف حول خصره حزام به سيف برأس مثلثة. وكانت تسير خلفه الملكة برداء أبيض لامع له ذيل طويل، يلامس الأرض، ودنا المعظم من حافة الجبل، ورفع سيفه إلى فوق، فصاح السكان، ورفعت القوات الملكية سواعدها إلى فوق، ثم مجد الجميع الجد الأعظم، وتمنوا من المعظم النزول إليهم ليكون على كرسي

العرش خلفًا لوالده، فأحنى جسده قليلاً إليهم، ثم أمسك بيد الملكة ونزلا على الممر، ووطئت أقدامهم أرض الجزيرة، وسارا برياء إلى المنصة، وعاون المعظم، الملكة أثناء صعودها، وكانت الأصوات تزداد وترتفع لتحيتهما، ووقف المعظم في مقدمة المنصة، وقال بصوت جهير:

-بعد إتمام كل شيء، بقيت الخطوة الأخيرة قبل توليتي، وهي طلاء بوابة السور الجديدة بزيت «النقاء المقدس»، الذي أوصانا الجد الأعظم باستخدامه دومًا، ووضعه على بوابة السور الرئيسية في نهاية كل عام، كي يحفظنا من شر كائنات الظلام.

صاح السكان فرحًا، ونزل المعظم من المنصة، وركب عربة خشبية لها حصانان، وأمر فرقة صغيرة من الضباط بجلب زيت «النقاء المقدس» والذهاب خلفه، فوضعوا الزيت في عربة مماثلة، وركضوا جميعًا إلى بوابة السور، وخلفهم الأصوات تزداد صراخًا بتمجيد الجد الأعظم. ولما وصل المعظم إلى بوابة السور الرئيسية نزل من العربة، وأخذ وعاء فخار كبير من الضباط، أزال غطاءه وسجد على الأرض ثلاث مرات، ثم مَدَّ يده اليمنى في الوعاء، فغاصت في الزيت، وأخرجها ودنا من البوابة، ورسم بالزيت عشرة دوائر متفرقة، واستنشق رائحة الزيت العطرة، ومسح يده في قطعة من القطن، ناولها له ضابط شاب، وركب العربة وعاد إلى السكان، وصعد ببطء على المنصة، وقَبَّل رأس الملكة، وأحنى ظهره لها بأدب، فابتعدت عنه، وجلبت التاج من فوق الطاولة، ورفعت رأسها إلى السماء، وتمتمت بكلمات لم يسمعها سواها، ثم وضعت التاج على رأسه، فَقَبَّل يدها، ودنا من حافة المنصة، ونظر برياء إلى السكان الذين بدورهم سجدوا له حتى لامست رؤوسهم الأرض، ولم يقدروا على رفع رؤوسهم إليه، وبعد لحظات تأمل فيها رؤوس وأجساد السكان وهم يقفون مصفوفين بنظام بجانب وخلف بعضهم بملابسهم الأنيقة، وأعمارهم المختلفة، بين الرضع، والأطفال، والشباب والبنات الذين يمثلون الأغلبية العددية، وكبار السن الأقل عددًا، واشتمت أنفه روائح العرق المختلطة، وقال:

-قفوا.

انتصبوا، وألقوا بالورود عليه، حتى اكتظت المنصة، واكتست بلون الورد الأحمر، وقال لهم:

-الآن حملت قداسة الجد الأعظم بعد رحيل والدي الملك العظيم، وحان وقت زواجي من الملكة الجديدة.

تصايح السكان، وزاد دعاؤهم له، ونزلت الملكة من على المنصة لتجلب «روزالين»، وعادت بها إلى المنصة، وقبلت «روزالين» يد الملكة، وخلعت الملكة تاجها المصنوع من الفضة ووضعته على رأسها، وخلعت من يدها اليمنى خاتمًا له رأس سوداء، وألبسته للملكة الجديدة، ونزلت من المنصة، ودنا الملك الجديد من «روزالين» وجذبها برفق، ووقفا معًا على حافة المنصة، وحياهما السكان بالصياح، والمباركات الطيبة، حتى أوقفهم، وقال:

-فليبدأ الاحتفال الآن، ويوزع الخدم الأسماك والفواكه، وغير مسموح لكم بالذهاب قبل أن تمتلئ بطونكم، وهذا أمر ملكي لا يُخالف، وفي نهاية الاحتفال سأنصب فرقة أسميتها «اليد المُطهرة» ولاء حماية الجزيرة في المرتبة الثانية، بعد القوات الملكية.

ابتسم بخبث، وحياه السكان، وبدأ الخدم في وضع الأسماك والفواكه على القطع الخشبية المربعة التي تنتهي بالحواف، ويناولونها بأدب للسكان مُتمنيًا رضاءهم عن جودة الطعام، وكانت الأصوات عالية بشدة، والسعادة تغمر السكان حبًا في الطعام فقط، وكانت تاليا تراقب من بعيد تمام كل شيء، وجلس الملك الجديد على كرسي عرشه، وبجانبه زوجته على الكرسي الفضي، تشعر بالخوف، والحرج من عيون السكان التي تنظر لها، وتحاول المحافظة على ابتسامتها الكاذبة.

***

وكان الصياد يقف على سطح مركبة كبيرة في البحر، ويتابع بعين الرضا

جلوس المعظم على كرسي العرش، وانتزعه من فرحته قائد المركب قائلاً بأدب:

- نتحرك يا سيدي؟

نظر له الصياد، ثم هز رأسه، فنزل القائد إلى باطن المركبة، وأمر الحراس بالتجديف القوي، وكان يحمل في يده خريطة للعالم، وبوصلة قديمة، وأبحرت السفينة وابتعدت عن الجزيرة، حتى اختفت رؤيتها.

***

انتهى السكان من الأكل، وظهر الإرهاق الشديد على الخدم والقوات الملكية، وانتبه الملك الجديد لذلك، فوقف وأمر السكان بالوقوف والصمت، وأمر تاليا بالصعود إليه، ووقفت بجانبه، فرفع ساعده، وقبل أن يتكلم، وجد أسهمًا كثيرة تطلق على الأبراج الخشبية، وتقتل الحراس الذين يقفون فيها، وأسهمًا أخرى ارتكزت على الضباط الكبار في السن والرتب، وقتلتهم، وصرخ السكان وأخذوا أطفالهم للهرب، لكن اصطدموا بفرقة من الحراس هددوهم بالقتل، وأمروهم بالجلوس على الأرض في صمت، وسحب المعظم سيفه، وركض لينزل من المنصة، فوجد حراسه يُقتلون بالسيوف من عضوات تنظيم «اليد المُظهرة»، واصطدم الملك بسهم يصيب قدمه اليسرى، فنزف وسقط على المنصة، فركضت الملكة ناحيته بخوف، وقَبل صعودها وجدت فتيات من التنظيم يمنعانها بالسيوف، ورفعت تاليا سيفها وسحبت الملك للوراء، وهددته بأنه إن تحرك ستقطع رأسه، ورأى الملك الجديد قدمًا تصعد على الدرجات الخشبية العالية، وكان صاحبها الحاكم الثالث، يرتدي ثوبًا أسود ويمسك بسيف طويل، ودنا منه وأخذ تاجه، ووضعه على رأسه، وسحب تاليا ووقف على حافة المنصة، وقال بصوت غليظ:

-الآن يكون التاج فوق رأس مَن يستحق، قفوا أيها السكان ومجدوا ملككم الجديد.

وقف السكان، ورفضوا تحيته، فضحك بسخرية وقال:

-صدقوني لن أحبسكم بداخل الجزيرة، وسترون في عهدي البحر، ولن أضع أمامكم قيودًا وضيعة تمنعكم من الحرية المُستحقة.

لم يعلق السكان، وحملت وجوههم شرًا كبيرًا له، وتمنوا قتله، وأردف بكبرياء:

-لم تغركم عروضي صحيح؟ فما رأيكم إذا عرفتم أن أخي جلالة الملك السابق، كان السبب في وقوع هجوم الكائنات علينا؟ وتسبب في قُتل أولادنا الشباب، وإنقاص غذائنا، والتقليل من قداسة الجد الأعظم، تتساءلون الآن كيف حدث ذلك صحيح؟

-اخرس يا كاذب، مَن سمح لك بالكلام.

كانت هذه الملكة، فأمر فتاة بجلبها له، وجذبها من شعرها، وقال:

-كنتِ تعلمين بأن زوجك سمح لمجموعة من الحاقدين بتجربة سحرهم المُظلم علينا، وإيقاع الجزيرة في مشكلة الكائنات اللعينة، ولم تتفوهي بكلمة، أو تعتذري للسكان عن ما حدث بسببكم، بل تظاهرتِ بالبراءة وعدم علمك بشيء، أنتِ وزوجك قتلتما الكثير من سكان الجزيرة الأبرياء.

تجهم وجهها، ولم تقدر على مُجادلته، ولاذت بنظراتها إلى الأرض، فأمسك السكان بأحجار صغيرة من الأرض، وقذفوها ناحيتها، فأوقفهم الحراس، واستندت بجذعها ووقفت، وقالت للحاكم الثالث بجرأة:

-كفاك كذبًا، لم أكن أدري بشيء، وزوجي بريء من تدليسك.

-تدليسي هاهاها، أيتها القذرة اللعوب سأريكِ تدليسي.

ناولت تاليا، الحاكم الثالث، أوراقًا من البردي مدونًا عليها كلام كثير ينتهي بـ «أوافق على شروط منظمة «أرون» من أجل نشر الخوف بين سكان الجزيرة، كي يهابوا الخروج منها». وإمضاء الملك بخطه المعروف أسفل ذلك الكلام.

قرأ الحاكم الثالث هذه الجملة للسكان، وأعادها أكثر من مرة، ورفع الأوراق ليراها الجميع، فاغتاظوا وطالبوه بقتل المعظم، وقتل أمه، والجلوس على كرسي العرش، فقاطعهم قائلاً:

-الملك الدنيء اتفق مع مخابيل يلعبون بالسحر، وتوجهم كائنات الظلام، ليفتحوا علينا بوابة تسمح لكائنات الظلام بالعبور إلينا، والعيش خارج الأسوار، حتى تشعروا أنتم بالخوف، وتتراجعوا عن أفكاركم الحرة، ورغبتكم في الخروج واستكشاف البحر، وصدقهم الملك الغبي، فتلاعبوا به، وأصابوا جزيرتنا بالعقم، وقتلوا أولادنا، وحرمونا من حريتنا وأفكارنا، ولما أردت فضحهم، أرسلوا إلي تاليا الحرة، والصادقة، لقتلي، فأطلعتها على هذه الأوراق وصدقتني، وعاونتني على التريث وإظهار الحق، والقضاء على حكم ابن القاتل الدنيء الخبيث، بمعاونة تنظيم «اليد المُطهرة»، الذي أنشأته الملكة سرًا للتجسس عليكم، وقتل المُعارضين لآراء البيت العظيم، لكنهم بمجرد معرفتهم للحقيقة انضموا لي، ومعهم الكثير من كبار ضباط الحماية الملكية، ومسئول منظمة الأمن، والجميع تعاون كي تحصلوا على الحرية، والأمانة، والصدق، وتعاينوا العدل الحقيقي.

صرخ فيه المُعظم حتى كادت حنجرته تنفجر:

-أنت كاذب، وهذه الأوراق ليست حقيقية، أنت صنعتها لتثير البلبلة، وتجلجل الجزيرة بشرك القذر.

ونظر لوالدته، وأمرها بالرد عليه وإثبات كذبه للسكان، فلم تقدر على الرد، ودرى المُعظم أن كل ما قاله الحاكم الثالث كان صادقًا بحق. ولما زاد غضب السكان، ومطالبتهم بقتل المُعظم، ووالدته، وزوجته، طلب الحاكم الثالث من فتيات «اليد المُطهرة» وضع خشبة الإعدام، فحملوها وثبتوها على المنصة، وكانت طويلة وفي منتصفها نصف دائرة، وضع فيها الحاكم الثالث رأس الملكة، وقال للسكان:

-لن أقتلها، قبل أن تعاوني باقي القوات الملكية، ويعلنوا أنهم طوع أمري من هذه اللحظة.

صرخ السكان في القوات الملكية، وأمام هذه القوة الهائلة والعدد الضخم، سجدت القوات مُرغمة إلى الحاكم الثالث، وتقدمهم مسئول مُنظمة الأمن، وقَبل يد وقدم الحاكم الثالث، فصاح السكان فرحًا. ورفع الحاكم سيفه بقامته القصيرة ومعدته الكبيرة، وأنزله على عنق الملكة، فقطعه، وماتت، وغرقت المنصة في دمائها، وأزالت تاليا جثتها وألقتها بعيدًا، وصرخ المُعظم استنجادًا بالسكان، وبكى، وجلبت تاليا «روزالين» ووضعت رقبتها في الخشبة، وقطع الحاكم الثالث رأسها بالسيف، وامتلأت ملابسه بالدماء، وصاح السكان في صوت واحد:

-اقتل ابن القاتل، اقتل ابن القاتل، اقتل ابن القاتل.

أوقف صياحهم بيده، وجذبت تاليا ومعها ثلاثة فتيات المُعظم، وأوقفوه رغمًا عنه، وتراجعوا، فأشار الحاكم الثالث لشخص مبهم يقف فوق الجبل، فأطلق الشخص سهمًا مُحترقًا على صدر المعظم، فأصابه ووقع المُعظم من فوق المنصة، فصاح السكان فرحًا، وضحك الحاكم الثالث، وكانت تاليا ملامحها ثابتة لا تتغير أبدًا.

ووقف الحاكم على حافة المنصة، وقال:

-من هذه اللحظة أنتم أحرار فيما ترغبون، وفي الغد سأجهز لكم السفن وتستكشفون البحر، وبعد موتي، كرسي عرش الجزيرة سيكون منكم أنتم، وتختارون بأنفسكم مَن يتولى أموركم بالعدل، والصدق، والآن يا تاليا احملي المُعظم وضعي رأسه هنا لقطعها.

سجدت تاليا أسفل قدم الحاكم الثالث، وذهبت للمعظم، وقلدها السكان، وكان قلبه يخفق من الفرح، إلا أنه لم يستمر طويلاً في ذلك، لأنه اصطدم بقصف قوي لسور الجزيرة، فانهار جزء كبير منه وتطاير على السكان، وظهر شاطئ الجزيرة والبحر، وكان البحر مليئًا بسفن ضخمة تحمل أعلام ألمانيا النازية، وعلى هذه السفن جنود أشداء يحملون البنادق والمسدسات، وينزلون من السفن إلى مراكب صغيرة في البحر ويجدفون، حتى وصلوا إلى شاطئ الجزيرة، وأطلقوا الرصاص على السكان بغضب

شديد، وقتلوا نسبة كبيرة من القوات الملكية، وكل مَن وجدوه يحمل سيفًا أو سلاحًا، وسيطر الهلع على الجزيرة، وهرب السكان في كافة الاتجاهات وهم يأخذون أطفالهم معهم، وجَرت تاليا واختفت، وحاول الحاكم الثالث الهرب إلا أن رصاصة أصابت قدمه، فسقط على الأرض وزحف بأصابعه، فاقتلعت أظافره ونزف دماءً كثيرة، ووجد جنودًا يسحبونه من الخلف ويصرخون فيه بلغة غريبة لم يفهمها. وفي وقت قليل فرض الجنود سيطرتهم على كافة أنحاء الجزيرة، واختبأ مَن تبقى من السكان، لأنهم استطاعوا الهرب إلى بيوتهم. ولم يتوقف صوت إطلاق الرصاص إلا بعد مدة كبيرة، ودرى أحد الضباط الذين سافروا مع المُعظم في رحلته إلى الجزيرة الثانية التي جلبوا منها الأسلحة، أن هؤلاء الجنود يرتدون نفس ملابس الجنود الذين قتلوهم هناك، ويحملون نفس الأعلام.

***

الفصل العشرون

ترقبت سماء الإسكندرية غروب الشمس، وتلوينها بالشفق الأحمر، وأمطرت بقوة، فتوحلت الأزقة والشوارع غير المُمهدة، وكان الهواء شديدًا وباردًا، جعل الأجسام الهشة مثل الأوراق، والأخشاب، والقمامة، تتطاير، وتصطدم بالناس وهم يهرولون ليختبئوا في أحواش البيوت، ويغلقون خلفهم أبوابها. ولما أظلمت السماء، وانبلج فيها القمر تشوب رؤيته السحب الكثيفة، أصبحت الشوارع شبه خالية إلا من الحيوانات الضالة، وبعض سيارات الأجرة التي ينتظر بداخلها السائقون، الركاب الهاربين من الطقس السيئ. ومشردين يفترشون الأرض تزداد ضحكاتهم كلما سقطت الأمطار عليهم، ونظفت أجسادهم المتسخة، وانتثر أطفالهم في كل ناحية، ينظرون إلى السماء، ويفتحون أفواههم لتسقط فيها الأمطار، ويتهامسون ويتضاحكون، ويسقطون على الأرض باستمتاع زهيد، لم يدفعوا فيه شيئًا. وفي بيت منمق ونظيف، دلف إليه رجل ملثم بكوفية صفراء، ويرتدي جلبابًا ثقيلًا، وقفازات صوف، وصعد على أدراج البيت الصخرية، وتوقف عند طابق محدد به شقتان، دنا من شقة منهما ووضع أذنيه على

بابها الخشبي، ثم صعد على ثلاث درجات ودس يده في جلبابه وأخرج خنجرًا، ووقف ثابتًا، وبعد مدة طويلة، فُتِحَ باب الشقة، ودلف منه مأمور القسم ببذلة بيضاء، وكان يمسك بعصا قصيرة، وثمل، ويضحك، ووضع نظارة طبية على عينيه، وحياه التاجر اليهودي «أدين» من داخل الشقة وأغلق بابها، وتراقص المأمور أثناء نزوله إلى الأسفل، وتفوه بكلمات متقطعة لأغنية أجنبية، ولما استدار ووضع قدمه اليمنى على أول درجة سلم، انقض عليه الملثم من الخلف، وكتم أنفاسه، فضربه المأمور برأسه، ودافع عن حياته، فوضع الملثم الخنجر في قلبه، وتحسس بأصابعه دماء المأمور الساخنة، واستنشق رائحة عطره الفرنسي، وشدد قبضته على أنفاسه، وأورده قتيلاً، وجذبه من بذلته إلى زاوية في الطابق تطل على الحديقة الخلفية للبيت، وطرق على باب شقة التاجر، ولما فتح «أدين» ضربه الملثم بظهر الخنجر، فتراجع ونزفت أنفه، وركض ناحيته وضربه بقدمه، وسقط «أدين» على أريكة الصالة الكبيرة، وفقد الوعي، وخرج الملثم وسحب جثة المأمور، والتاجر اليهودي، ووضعهما في منتصف الصالة، ووضع الخنجر في يد «أدين»، وبحث عن قماشة في البيت، ولما وجدها خرج ومسح دماء المأمور، وتأكد من نظافة أرض الطابق، والباب من الدماء، وأغلق باب الشقة، وركض للأسفل.

***

بعد يوم، كان البحر مضطربًا مثل عادته في مثل هذا التوقيت، من كل عام، وخاليًا من المراكب والصيادين الصغار، وبه بعض السفن الضخمة القادرة على الصيد في ظروف الطقس السيئة، والأمواج ترتفع وتهبط بمرونة سريعة، وعلى مسافة قريبة من شاطئ البحر، ظهرت مركبة صغيرة لها مجدافان يحركهما الصياد بقوة، في المياه لتسير ناحية الشاطئ، وكانت حواف المركبة مليئة بأوعية مشتعلة لتضيء ظلام البحر القاتم. ولما وصل الصياد إلى الشاطئ ربط المركبة بحبل سميك في سور حديد صدئ، وصعد على إطارات سيارة قديمة، ووطئت قدمه أرض الإسكندرية، بعدما استغرق قدومه من الجزيرة يومًا كاملاً في المركبة

الكبيرة التابعة لجزيرة الجد الأعظم، والتي حينما علم قائدها أنه اقترب من شاطئ الإسكندرية، أنزل هذه المركبة، وأخبر الصياد أنه من العسير إيصاله لمنطقة أقرب من ذلك، ففهم وودعه، وجلس على المركبة وجدف حتى وصل في النهاية... وركض الصياد مرتديًا ثوبًا ملكيًا قرمزيًا وثقيلًا، وحذاء جلد ووصل إلى حارة اليهود بعد ساعة، ولم يشعر بصدمات الهواء القوية في جسده، وهدأ من سرعته، والتقط أنفاسه، ومَر من أمام القهوة التي كان يجلس عليها حميدو الجن، فوجدها مغلقة وأنوارها مختفية، وتنبعث منها الكآبة، وكانت الحارة خالية من الناس وتنغمس في صمت بائس غريب، ولاحظ الصياد أن هناك العديد من البيوت التي سقطت من قصف الطائرات، ولم يزل السكان آثارها، بل اكتفوا بوضع الطوب والصخور على الجوانب الواسعة، ليتمكن الناس من العبور في الحارة، فلعن الحرب في باله. ودخل من بوابة بيته، وصعد على درجاته الصخرية، وطرق باب شقته بشوق لم يُغالبه شوق مماثل مِن قَبل، فلم تفتح لهُ سماح، أو مرعي، فظل يطرق بجنون، واستمع إلى صوت فحيح أقدام يقترب، التفت وأخرج خنجرًا من ملابسه، ورأى «شندويلي» يدنو منه مشدوهًا، وعينه فغرة، فأمسكه من تلابيبه، وقال بغضب:

-سماح ومرعي؟

خرجت كلماته متلعثمة:

-أنت حي؟ كيف؟

-لا وقت للثرثرة، أين أسرتي؟

-تعالَ.

أزال «شندويلي» يد الصياد، وجذبه للخارج، وركضا معًا إلى بيت حميدو الثاني الذي تقطنه زوجته الصغيرة نادية، وصعدا إلى شقتها، وطرق «شندويلي» الباب، وفتحت نادية، ودخلا، وسأله الصياد بضيق:

-أين أسرتي؟

أشارت نادية بيديها ناحية غرفة كانت وراءها، فركض الصياد، وفتح بابها، ورأى سماح تنام على سرير كبير، وبجانبها مرعي عيناه مفتوحة ومليئة بالدموع، ولما رأى والده لم يصدق، وصرخ ثم ركض باتجاهه، واحتضنه وبكى، وقبل رأسه حليقة الشعر، ويده، وسجد على الأرض وقبل قدمه، فانتزعه الصياد ورفعه ليحتضنه، واستيقظت سماح، ورأت الصياد، فقامت واحتضنته، وظلت هكذا لوقت طويل، وسألته برقة:

-ماذا حدث لك؟ أين كنت؟ ولِمَ خلفت وعدك ببقائك معنا؟ لِمَ؟

-لم يكن بيدي، سأحكي لكِ كل شيء، أنتِ بخير؟

تدخل مرعي وقال بفرح:

-نعم يا أبي، صحة أمي تحسنت منذ ثلاثة أيام تقريبًا، والعلاج له مفعول بطيء، لكنه مؤثر.

-لماذا تركتما البيت؟

اقترب منهم «شندويلي»، وقال بحزن:

-الأمور تغيرت كثيرًا بعد اختفائك.

-ماذا تغير؟

-اتفق علينا مأمور القسم والتاجر اليهودي، وزرعا رجالاً أغرابًا في حارتنا، تشاجروا معنا منذ عدة أيام، وقبل أن نقضي عليهم جاءت قوات من قسم البوليس وقبضت على أغلب رجالنا، واستطعت أنا وبعض الرجال الهرب بصعوبة بالغة.

-وأين حميدو؟

صمت «شندويلي» كثيرًا، ثم قال بأسى:

-قُتِل.

- كنت أعتقد أنه لا يُقتل أبدًا.

-هذا ما حدث، واضطررت لنقل أسرتك إلى هنا لأن التاجر كان ينوي على الغَدر.

طلب الصياد من سماح الجلوس على السرير للراحة، وأمر مرعي بالانتظار معها، وأخذ «شندويلي» وانفرد به، وسأله:

-مَن التاجر؟

-أدين.

-ابن الضالة، لم ينس ما فعلناه.

كور «شندويلي» يده وضرب بها الحائط، وقال بغضب:

-لم ينس قط أننا قتلنا مُعلمه الحاج نعيم العطار، الذي ورث منه محلات العطارة لأنه كان بلا أولاد ولا زوجة، وألقينا بجثته في بحر محطة الرمل، ولم يتوصل البوليس لسر الحادثة، ولم يتكلم «أدين» خوفًا من بطش حميدو.

-يستحق قتله ألف مرة يا «شندويلي»، كان يريد أن يصبح فتوة بدلاً من حميدو، وجعل أتباعه في الحارة يوزعون شرهم على الجميع، ودفعه غروره إلى محاربتنا أنا وأنت في تجارة السلاح.

-لعنه الله، وأذله في الآخرة مع المأمور البغيض.

-صحيح، أين المأمور؟

-نفيته إلى أرض بعيدة، لن يعود منها.

-ماذا فعلت؟

عرف الصياد من «شندويلي» أنه قتل المأمور وأدخله لشقة «أدين» ثم أبلغ القسم القريب من بيت التاجر، وتتم الآن التحقيقات معه، وفي الأغلب سيكون ضحية لحبل المشنقة، لأنه المتهم الأول بقتل المأمور.

وأخبره بأنه سيكون فتوة الحارة القادم خلفًا لحميدو، ولكنه ينتظر فقط أن تهدأ الأوضاع في الحارة، ويعاونه على ذلك بدرية وهشام باشا عضو مجلس الشعب. أصيب «تومكس» بالدهشة، واستعجب أن بدرية تعاونه عن طريق علاقتها الجيدة بهشام باشا، رغم خلافاتها مع حميدو، فعرف منه أن حميدو لما أحس بخطورة موقفه قبل مقتله بفترة بسيطة، حسن علاقته ببدرية، واعتذر لها عن ما بدر منه تجاهها، وقدم لها مبلغًا جسيمًا، ثم طلب معاونتها له، واستطاع نقل مأمور القسم إلى القاهرة، لكنه كان شيطانًا، وله أياد في كل منطقة، وقتل حميدو، وسجن الكثير من أتباعه.... ولما انتهى حديثهم الطويل، أخذ «تومكس» سماح، ومرعي وعادوا إلى بيتهم، وأمر «شندويلي» رجلين بحراستهم، تحسبًا لأي خطر.

***

في بيت الصياد، وضع مرعي فوق طاولة خشبية مستديرة، بيضًا وجبنًا وعيشًا وخيارًا وطماطم، وبصلًا وفلفلًا، وثلاثة أكواب من اللبن، وأكلوا جميعهم حتى شبعوا، واستأذن مرعي ودخل إلى غرفته بعد أن جلس مع أبيه لوقت طويل، وانفرد الصياد بسماح في غرفتهما، ونام فوق السرير بظهره، ووضعت هي رأسها على قلبه، وسألته كيف عدت؟ وأين اختفيت؟ وألقت عليه أسئلة طويلة تحتاج لإجابات أطول، ووقت كبير، ثم قالت له بصوت رقيق:

-أفتقدك، وافتقدت مع فَقدك حبي للإسكندرية، وشوارعها، وهوائها.

-سامحيني، فللقدر أحكام لا نقدر على مخالفتها، وصدقيني قلبي لم يهدأ يومًا، أعترف لكِ بأنني بحثت عنكِ في امرأة وحيدة فقط أثناء غيابي، وجددت روحي من خلال الوقت القليل الذي قضيته معها، واستنشقت فيها عطرك، ورقتك، وهدوءك، وخوفك الدائم من المستقبل.

-وماذا فعلت معها؟

-لم ألمسها، وساعدتها في أمر يطول شرحه، وظل قلبي يشتاق لكِ

ولمرعي.

وضعت أناملها على فمه، وأغمضت عينيها، وقالت:

-دع ما مر للماضي، ولنستمتع بوقتنا في الأيام القادمة، عدني بأنك لن تختفي ثانية.

-أعدك.

-فلننم إذًا، وفي الصباح تنفرج الأحاديث.

-تنفرج.

***

في الأيام اللاحقة لعودته إلى الإسكندرية، قص الصياد ما وقع له في جزيرة الجد الأعظم، لأسرته وشدد عليهم بعدم الحديث لأحد عن هذه القصة، كي لا يتهمه الناس بالجنون، وقال إنه سيبرر اختفاءه بحادثة وقعت له. ولما اكتشف سكان الحارة أنه ما زال على قيد الحياة، احتفلوا به، ووزعوا «الأزوزة» على الأطفال، وسكان الحارات المجاورة، وهنأت النساء سماح بعودته، وعرف السكان من الصياد أنه تعرض لحادث سير، وفقد وعيه وظل في أحد المستشفيات، حتى استعاد صحته، واستطاع العودة لبيته مرة ثانية، لم يصدقه الكثير، ورفضوا الخوض في الماضي خوفًا من غضبه، وانتشرت قصته في مناطق كثيرة بالإسكندرية، وعرف بأنه «أول من مات، وعاد إلى الحياة مرة ثانية»، ووصل الأمر إلى أن بعض الصحف كتبت عن تلك الحادثة، وفشلوا في حل لغز اختفائه، وعودته. وأصيب الصياد بالغضب، وكاد يحطم رأسه في الحائط، لأن هناك صحفًا نشرت عنوان بيته، وقصته تداولتها الألسنة. وبعد مرور أسابيع عديدة هدأت الحياة، وعاد الصياد للعيش في الخفاء مع أسرته. وقرر العودة لعمله في الصيد، وطلب من مرعي البقاء في البيت والاهتمام بتعليمه، فاغتم وعاند، ورضخ لرغبة والده في النهاية، وعاد لمدرسته التي انقطع عنها منذ ثلاثة أشهر. وانخرط الصياد في حياته سعيدًا ببعض

الأوقات، ومنهمكًا في عمله بالبحر أغلب الأوقات. وتحسنت صحة سماح، وعادت مرة ثانية لعملها في حياكة الفساتين التي انقطعت عنها منذ عام، في محاولة منها لتعزيز الدخل المادي، للبيت. وبعد شهر تحسنت الأحوال في الحارة خاصة بعد هدوء الغارات الألمانية الإيطالية. وقد خرج الكثير من أعوان حميدو الجن من الحبس. ولما تأكد «شندويلي» من سلامة كرسي الفتونة من الخبث والدسائس، اعتلاه، وأيده سكان حارة اليهود، واجتمع حوله رجال حميدو الجن وأتباعه من كل ناحية، وانهالت عليه الدعوات بالعمر المديد، والصحة الطويلة، وتذكروا حميدو الجن بالخير، ومسحوا من عقولهم تاريخه المليء بالدماء، مع أول عجل ذبحه «شندويلي»، ووزع لحمه عليهم بنفسه، وحاول السكان اليهود تحسين علاقتهم بالفتوة الجديد، لأنه كرههم، وضيق عليهم الحال انتقامًا من أفعال «أدين»، وبعد فترة رضي عنهم، لما تأكد من حبهم واحترامهم ورضوخهم له، بلا اعتراض أو رفض. ووضعت الجهات المختصة «أدين» في السجن بتهمة قتل المأمور، لمدة خمسة عشر عامًا، وسيطر «شندويلي» على دكاكينه، وثروته بالقوة، وبمعاونة بدرية وهشام باشا. وعاد رجال حميدو للعمل في الأفيون وتجارة السلاح، ومحلات الأسماك التابعة لأسرته. وامتلأت خزينة «شندويلي» بالكثير من الأموال، وحَسّن علاقته ببدرية التبع، فرمم بيتها في حارة اليهود الذي دمرته الغارات، ووضع ثلاثة من رجاله لتأمينه. وصنع فاصلاً بين العدل والظلم مثل حميدو، فلم يظلم أحدًا، لكن المتهاونين في دفع إتاوته وهم قادرون تعرضوا لغضبه الأليم.

***

الفصل الواحد والعشرون

بعد عامين.

كان الصياد يسير على رصيف الميناء الشرقي ليلاً، وينظر إلى البحر، ومغموزًا بالحزن من الحالة المادية السيئة التي وصل إليها، بسبب غلاء

الأسعار، وقلت شراء الأسماك من التجار الكبار، وعدم عودة المهاجرين من الإسكندرية، وقلة سُبل الرزق في المجالات الأخرى، وراوده شعور داخلي أن الحياة تدفعه ليعمل في معسكرات الإنجليز، أو يتاجر في الأفيون مع «شندويلي»، خاصة وأن علاقته به جيدة جدًا، لكنه خشي عودة المرض لزوجته مرة ثانية. وجلس على صخرة كبيرة كانت في نهاية الرصيف، وينتشر حولها قواقع صغيرة الحجم لونها أبيض، وكانت الأمواج قوية، ورائحة يود البحر تجرف هواء الشتاء البارد، وترتطم بجسده. وأعطى ظهره للبحر في إعلانًا صريح، بأنه لم يعد يحبه، واستشعر فجأة حركة خلفه، ووجد شخصًا يجلس بجانبه، كان يرتدي ثوبًا طويلًا وثقيلًا، وله قلنسوة تغطي رأسه، وحذاء من الجلد في قدمه، وقال:

-نحتاجك في عمل عظيم.

-مَن أنتم؟

-ألا تتذكرنا؟ نحن أبناء الجد الأعظم.

صمت الصياد، ودب فيه القلق، فأردف الثاني:

-الأمور تغيرت كثيرًا بعد رحيلك.

أزال القلنسوة، فكان «الناظري ابن بيقاع»، وسأله الصياد بقلق وهو يتلفت حوله:

-ماذا حدث وكيف جئت إلي؟

-بعد رحيلك، خرج الحاكم الثالث من جحره، وقتل والدة وزوجة المُعظم، أثناء توليته على عرش الجزيرة، ونصب نفسه ملكًا، وأثناء ذلك، جاءت قوات ألمانية إلينا، وقتلوا الكثير من القوات الملكية، والسكان، وفرضوا حالة من التشديد علينا، وظلوا يبحثون عن الثروات المعدنية في الجزيرة، مثل الذهب، والفضة، والحديد، والماس، واكتشفوا منجمًا داخل جبل «الفراديس» مليئًا بالماس، فاستعبدوا السكان، وأمروهم بزراعة الأرض الزراعية، بعدما عالجها المزارعون القدامى، ولما عثروا على أسلحتهم

المسروقة لدينا، عرفوا ما وقع في الجزيرة الثانية، فزاد غضبهم وكرههم إلى السكان، وحتى هذه اللحظة يستخرجون كل يوم الكثير من الماس ويرحلونه على بلادهم، ولا ينهون استعبادهم للسكان.

-وأين الحاكم الثالث، والمعظم الصغير، والقوات الملكية؟ وكيف جئت إلى هنا؟

-الحاكم الثالث قُتل، والقوات الملكية تبعثرت، أما المعظم فهو طار مع الطيور.

-لا تتكلم بألغاز مستفزة، أين هو الآن؟

-مختفٍ في مكان آمن بالجزيرة، وأرسلني إليك لتعود وتعاوننا، وقد حاول الحاكم قتله بسهم من مسافة بعيدة، لكنه كان يرتدي سترة من الحديد والخشب في صدره، ويخفيها تحت ردائه.

اندهش الصياد، وقال بغضب:

-أعاونكم أمام هذه القوات الغاشمة؟ وما الذي يرغمني على العودة للجزيرة من الأساس؟

-الذهب مقدمًا، والماس مؤخرًا.

-ماذا؟

اقترب بفمه من أذن الصياد، وقال:

-ستأخذ الآن ذهبًا يكفيك للعيش برخاء، وحينما نتخلص من القوات الألمانية، تحصل على ما تريده من الماس الموجود في الجبل.

-وحتى إذا وافقت، كيف نتخلص من القوات الألمانية؟

تبسم «الناظري»، وقال بخبث:

-الحرب العالمية تنزوي الآن ناحية الاندثار يومًا بعد الثاني، بالأخص بعد معركة «ستالنجراد» التي خسرت فيها ألمانيا كل شيء أمام الاتحاد

السوفييتي، وقد غادرت نصف القوات الموجودة في الجزيرة إلى ألمانيا، وتبقى النص الثاني، وأنا أعرف المخزن الذي يضعون فيه أسلحتهم.

صمت الصياد لفترة، ونظر للبحر وهو يفكر بغضب، ثم قال:

-كيف تعرف ألمانيا، والحرب العالمية، ومعركة «ستالنجراد»، وكل هذه المعلومات، وأنتم تعيشون منعزلين عن العالم؟

-وما دافعي لإجابة أسئلتك الخبيثة؟

وقف الصياد، وأشعل سيجارة «ماتوسيان»، ونفث دخانها، وقال:

-عودتي للجزيرة.

-موافق. ألنت مستعد للسماع؟

-مثل استعدادك لعودتي معك.

-عام ١٨٣٦ كان هناك حاكم في حالة توهج شديدة أثناء حكمه لأحد البلاد، وضم تحت رايته مناطق عديدة ومهمة، وكان يحمل في رأسه عقلاً حربيًا واقتصاديًا عظيمًا، دفعه لاستكشاف البحر المتوسط، وأثناء هذه الرحلات الاستكشافية عثر قائد أسطوله على جزيرة منعزلة، ومليئة بالثروات الطبيعية، فقرر الحاكم تزويج ألفي جندي من ألفي فتاة، ونقلهم إلى تلك الجزيرة، وكان معهم الكثير من الأطباء والمهندسين والمزارعين، نقلوا بأسرهم إلى الجزيرة، بالإضافة للكثير من الطيور والحيوانات، وكان الدافع وراء هذه التجربة هو البحث الدؤوب عن الثروات الطبيعية، بالأخص الحديد من أجل صناعة الأسلحة، وتكوين قاعدة من سكان وجيش، للسيطرة على العديد من المناطق الخطيرة في البحر المتوسط، وصد ضربات القراصنة الغاشمة، وصنع ملاذ يعيش فيه ملوك الدول الأوروبية الهاربون من بلادهم ويرغبون في الاحتماء بقوة هذا الحاكم، في مقابل إعطائه نقودًا طائلة لا مثيل لها. وبعد عدة سنوات أنجب الجنود من نسائهم وزاد عدد سكان الجزيرة، وخصص قائد الأسطول جزءًا من أرض الجزيرة للزراعة، ووضع نظامًا اقتصاديًا كاملًا يرتبط بالزراعة،

وصنع عدة قوانين مهمة للعيش على الجزيرة، وخصص مكانًا لتدريبات الجيش، ومكانًا للسوق، وصنع عملة من القطن تسمى «اليونارس»، يحصل عليها المزارعون، والعاملين بالسوق الكبير، والقوات الملكية، والصناعات اليدوية، كل نهاية شهر، ويشترون بها احتياجاتهم المختلفة. وأصبحت الجزيرة مكانًا مناسبًا للعيش عليه بعد عدة سنوات. ولما أصبح كل شيء جاهزًا تقريبًا، حدث اضطراب في عرش الحاكم، وانشغل بالكثير من الصراعات العنيفة، التي أدت إلى بداية زوال حكمه، فاستغل قائد الأسطول ذلك، وانفرد بالجزيرة، وحاوطها بسور ضخم من الصخور، وصنع به ثلاث بوابات، أكبرها هي البوابة الرئيسية، ووضع قوانين قاسية منعت سكان الجزيرة من الخروج، كان أهم هذه القوانين هو قطع رقبة من يرغب في الخروج من الجزيرة هو وأسرته. وعين قائد الأسطول نفسه ملكًا على الجزيرة باسم «الجد العظيم»، وبنى بيته فوق الجبل، ومنع استقبال المساجين من الدول الأوروبية، وأوقف إرسال الثروات الطبيعية إلى بلد الحاكم، واستغل ضعفه في هذه الفترة، وأن أولاده لا يعلمون شيئًا عن هذه التجربة. وفيما بعد فرض على السكان دينًا جديدًا كان فيه الخالق للجزيرة، وجعل السكان يسجدون له كل يوم في الليل، ويطلبون رحمته، وعونه، ومن تخلف عن ذلك قطعت رأسه وعلقت على البوابة الرئيسية، ليكون عبرة لمن يعتبر. وكان لقائد الأسطول زوجة، وابن، وبعض من أقاربه الذين جلبهم معهم، فصنع بهم أسرة أسماها «الأسرة الملكية للجد الأعظم»، وأخبر سكان الجزيرة، أنه بعد صعوده إلى السماء، ليعيش فيها، سيحل مكانه ابنه، وتكون شؤون الجزيرة كاملة لأسرته الملكية بلا جدال أو نقاش. وخلال أعوامه التالية في الحكم كان مهتمًا بالجيش والجنود، وغير اسمهم إلى القوات الملكية بشقيها، الضباط وهم المرتبة الأعلى، ولا يتغيرون أبدًا ويعملون حتى يموتون، وهم الأقل عددًا، والمرتبة الثانية للحراس وهم الفئة الأكثر عددًا، ويعملون في القوات الملكية، بنظام محدد من السنين، ويتغير على حسب احتياجات القوات الملكية، وبعدها يغيرونهم بحراس شباب جدد، ويعمل المتخرجون من القوات الملكية في الزراعة، والصناعات اليدوية، والسوق، أو في خدمة

الأسرة الملكية. ولما زاد عدد السكان جدًا، وجد قائد الأسطول أن الجزيرة تحتاج لنظام أكثر دقة، فأنشأ خمس منظمات لتعينه على الإدارة، يرأسهم خمسة مسئولين هم، مسئول الأمن، ومسئول بيت المال، ومسئول الصناعة، ومسئول الزراعة، ومسئول الهيئة التنفيذية، ويرأسها الحاكم الثالث، ويكون من الأسرة الملكية، أما باقي مسئولي المنظمات يتم اختيارهم بناءً على الخبرة والسمعة الطيبة. وبعد إنشاء هذه المنظمات انصلحت الأحوال، وأصبحت الجزيرة أكثر نظامًا وترتيبًا. وبطبيعة الحال لم ينسَ إنشاء مدرسة ضخمة لتعليم الأطفال أساسيات العمل مثل الحساب، والزراعة، والصناعة، والتدريبات الأمنية، وكان يختار أذكى الأطفال ليكونوا أطباء وبنائين ماهرين في المستقبل. وشدد قائد الأسطول على الجنود والفتيات أن لا يحكوا لأبنائهم عَن حقيقة الجزيرة، ويثبتوا في عقولهم أن للجزيرة ملكًا حكيمًا يدعى الجد الأعظم نزل من السماء، وخلق الجزيرة، ثم خلقهم ليعيشوا فيها. وشدد على المدرسة الضخمة بتعليم ذلك للأطفال في وقت مخصص كل يوم، يقصون عليهم قصة خلق الجزيرة على يد الجد الأعظم. ولما كبر الأبناء وأصبحوا رجالاً وتزوجوا من الفتيات، جمع قائد الأسطول المسنين الذين جاءوا معه إلى شاطئ هذه الجزيرة منذ سنوات كثيرة، وقتلهم، كي يخفي معهم تاريخه القديم، وأمر أولادهم وبناتهم بالعمل الدؤوب والإخلاص، لأنهم عندما سيموتون سيصعدون إليه في السماء ويعيشون في راحة أبدية. وعندما وصل عمره إلى التسعين عامًا، واستشعر أن أيامه الأخيرة اقتربت، وضع عشرة قوانين مقدسة لا يمكن مخالفتها قط. وهي:

«لا تقتل. ولا تخن رباطك المقدس بزوجتك. ولا تقِم علاقة خارج إطار الرباط المقدس. ولا تأخذ حقًا ليس لك. ولا تهرب من خدمة القوات الملكية، فالجد الأعظم يسحق رأس الهاربين من المسئولية. ولا تكذب، ولا تخدع، وإذا وعدت لا بد وأن توفي. ولا تُهمل التعليم. ولا تبغض مشقات الجزيرة، ومجد الجد الأعظم كلما ضاقت بك الطرق. ولا تتكاسل في عملك ومجده. ولا تفكر في الخروج بعيدًا عن أسوار الجزيرة التي خلقها الجد الأعظم، فخلف هذه الأسوار تقبع كائنات الظلام الخبيثة. ولا تنظر لغيرك.

ولا تهمل القواعد العشر وتعيش معذب مع كائنات الظلام في نهاية المطاف».

وقبل وفاته وضع ابنه على العرش، وأسماه «ابن الجد الأعظم»، ولما مات دفنت جثته سرًا، وقيل في الجزيرة أنه صعد إلى السماء في هالة مقدسة. وسار ابنه على نفس نمطه في الحكم، لكنه لم ينصب نفسه إلهًا، بل جعل السكان يصلون دومًا للجد الأعظم، وزاد عدد السكان، وارتفع تمجيدهم الدائم للجد الأعظم، وصنع موته معروفًا قويًا جعل السكان يحبونه أكثر، ويشعرون بقوته، وعظمته. ولما مات «ابن الجد الأعظم» جاء بعده ابنه، ولقب بـ«حفيد الجد الأعظم» وعاش عمرًا مديدًا، بسط فيه سيطرته على الجزيرة والسكان. وقبل زواله بعشرة أعوام جاءت قوات استعمارية من فرنسا إلى الجزيرة لاستكشافها، ووجدوا عليها سكانًا وحيوانات وطيور، وحاربوا القوات الملكية بالرصاص فمات منهم الكثير، حتى تدخل الملك، وانفرد بقائد القوات الفرنسية في بيته فوق الجبل، ولحسن حظه، كان يوجد مترجم مع القائد الفرنسي يتحدث العربية، ووصل الطرفان إلى تعاقد مهم، أن تعتق القوات الفرنسية الجزيرة، في مقابل أن يرسل الملك إليهم كل عام كميات ضخمة من الماس الذي اكتشفه داخل منجم في الجبل، ووافق القائد الفرنسي، واتفق مع الملك على مده بالعلوم الحديثة، وخرائط للعالم والبحور، وبوصلات لاستخدامها في عمليات الإبحار والصيد، وتعليم كبار ضباط القوات الملكية طريقة استخدام البوصلات والخرائط في البحر. وظل هذا الاتفاق ساريًا، حتى سئم ملك الجزيرة التعامل مع الفرنسيين، لأنهم تخلفوا عن مده بالعلوم الحديثة، وما يحتاجه من معرفة لزيادة رحلات إبحاره في البحر، من أجل عمليات الصيد واكتشاف الجزر القريبة. وظل حائرًا يبحث عن حل ليقطع مد الفرنسيين بالماس، حتى زارته منظمة سرية هبطت بطائرة خاصة على الجبل والتقت به، وتشاوروا معًا، ووصلوا إلى اتفاق، أن يحصلوا هم على كميات ضخمة من الماس، في مقابل فتح بوابة بين الجزيرة وبين عالم غامض به كائنات ضارية، ستحمي الجزيرة من اقتراب السفن الفرنسية لمدة طويلة، ولن تمس هذه الكائنات الجزيرة نهائيًا. صدقهم الملك،

وحصلت المنظمة على كميات ضخمة من الماس، وعاشت في الجزيرة لسنتين، استطاعت خلالهما فتح البوابة، والهرب من الجزيرة، لكن قُبض على قائدهم وكان يدعى «سيد الأكوان» ووضع في السجن. وعرف الملك أن هذه المنظمة خدعته، وتريد شرًا سحيقًا للجزيرة، وليس مساعدته. وبعد قراءتي لكتاب القدماء عرفت ما هذا الشر ورغبتهم الدنيئة.

ظل الصياد يستمع لما يقوله «الناظري»، ولما توقف، سأله:

-وكيف تعلمت أمور السحر؟ وعرفت هذه القصة؟

-أسئلتك كثيرة وتزعجني، وسأعتبر هذا آخر سؤال، تعلمته من كتب جلبها الجد الأعظم أو قائد الأسطول كما تحب أن تسميه، وتركها في بيته لسنين طويلة، وأثناء صداقتي بالمُعظم الصغير توصلت إلى هذه الكتب وقرأتها وتعلمت أمورًا خطيرة.

-لن أسألك، ولكن لماذا أنا تحديدًا استعنت به، ليساعدكم مرة ثانية؟

-لخبرتك في الأسلحة الحديثة، ولأن المُعظم يثق فيك قائدًا لقواته الملكية أكثر من أي شخص.

أشعل الصياد سيجارة عاشرة، وكان مُتحيزًا، فقال له:

-صدقني ما ستحصل عليه من ذهب يضمن لك حياة كريمة أنت وأسرتك، ويرحمك من القصة الشهيرة، وكلام الصحف السخيف.

-صحيح، صحيح، والآن عرفت كيف وصلت إلي رغم أن الإسكندرية واسعة.

-راقبتك منذ يوم، وانتظرت الفرصة المناسبة يا صديقي.

كانت يد الصياد ترتجف، وعيناه تذرف دموعًا صامتة، وظل مُتحيزًا، وحبيسًا لأفكار مُتناقضة، أفكارًا جذبته لأكثر من اتجاه، وجعلته محاصرًا، ومتخوفًا، وقلقًا. ولما لاحظ «الناظري» شروده، قال بصوت خفيض:

-معك يوم تفكر فيه، وفي اليوم الثاني سأرحل، وتخسر الجزيرة حريتها،

وتخسر أنت الذهب الوفير.

أمسكه الصياد من ساعده، وقال:

-أين الذهب؟

-تعالَ معي.

***

تدثر الاثنان برداء الليل والصمت، وركبا سيارة أجرة إلى قلعة «قايتباي» على البحر، وجذب «الناظري» الصياد من يده، واقتربا من باب خشبي مفتوح، مستغلين ظلام الليل في تغطيتهما، ثم سارا في ممر ضيق وطويل مفروش بالدبش الأبيض، ويظلله سقف خشبي، وجدرانه صفراء داكنة، وينتهي بباب خشبي أثري وضخم، يعود للعصر العباسي، توقف «الناظري» وأخرج من ملابسه حديدة طويلة، ودسها في الباب، وتراجع للوراء، وضرب الحديدة بقدمه، فانفتح الباب ودلفا منه، وأغلقه خلفهما، وركضا معًا داخل بيت أثري قديم، مكون من طابقين، ويقع مباشرة على البحر، وله بهو واسع به خمس حجرات كبيرة، في كل حجرة سرير، وأثاث قديم يعود للعصر العباسي، وكان سقف البيت أبيض ومليئًا بالزخارف، وتتوزع على حوافه السوداء الداكنة مصابيح كهربائية، معلقة في مشاجب نحاس، وكان للبهو شرفة واسعة تطل على البحر، ويدخل منها ضوء القمر الشحيح، ويداعب البيت، فينير جزءًا صغيرًا منه، ولا يقدر على إنارة الباقي. وفي ناحية اليسار تراصت أربعة كراسي خشبية بجانب بعضها، وناحية اليمين سيوف ورماح ودروع معلقة على الحائط، وفي منتصف البهو كان هناك سلم خشب ثعباني، يصعد إلى الطابق الثاني، ومليء بالأتربة.

وسأل الصياد، باندهاش:

-ما علاقة بيت «القيراوني» الأثري، بالذهب؟

لم يجبه، ودخل إلى الحجرات كلها، وكان يجثو على الأرض ويبحث

بيديه عن شيء معين، حتى توقف في حجرة وبحث في أرضها بيديه بتركيز، وعثر على رقعة في الأرض مرسوم عليها علامة دائرية، فأخرج مطرقة من ملابسه، وكسر الرقعة، ووجد أسفلها قطعًا ذهبية كثيرة موضوعة داخل صرة قماش، انتزعها من الأرض، ثم ركض ومعه الصياد، وخرجا من البيت، ووصلا إلى منطقة بعيدة. وأعطى الذهب للصياد، وقال بحزم:

-أعطِه لأسرتك، وسأنتظرك خلف السفن المُتهالكة الراسية في مدخل الميناء الشرقي، لا تتأخر فهناك سفينة تنتظرنا لنرجع إلى الجزيرة.

أخذ منه المال على مضض، وركب حنطوزا وعاد به إلى حارة اليهود، ولما وصل شقته، دخل إلى غرفة سماح، كانت نائمة، قبلها من رأسها بحنو، وترك صرة الذهب على الطاولة الخشبية، وأسفلها ورقة كتب فيها «أن تعطي الذهب لـ«شندويلي»، ليبيعه، ويعطيها ثمنه، وتعيش منه هي ومرعي، حتى يعود من رحلته إلى الجزيرة، وأكد عليها أن ذلك الذهب جاء عن طريق الخير، وليس من الطرق المحرمة التي كان يسير فيها قديمًا». ثم انصرف، وقبل رأس مرعي وكان يغط في نوم عميق، وانصرف بهدوء من البيت، وكان الوقت يقترب من منتصف الليل، ركب الحنطور إلى الميناء الشرقي، والتقى هناك عند السفن المُتهالكة بـ«الناظري»، وركبا مركبة خشبية، وأبحروا بها حتى وصلا إلى سفينة كبيرة تنتظرهما، ولما صعد عليها الصياد، وجد المُعظم في باطن السفينة يجلس على أريكة، وينتظره بشغف، جلس الصياد بجانبه، وتحدثا طويلاً عن خطة معقدة لتجاوز سبل بقايا الجيش الألماني الموجود في الجزيرة، وبعد ساعتين سمع الصياد أصوات أبواق كثيرة وعالية، فوضع يده على أذنه من شدتها، وصعد على درجات خشبية، وحينما وصل ووقف فوق سطح السفينة، نظر حوله، وأصيب بالصدمة، لأنه رأى سفنًا ضخمة بالقرب من سفينته، ويقف عليها أعداد غفيرة من جنود يظهر عليهم الغضب والرغبة في القتال، وكان ماء البحر ملوثًا من كثرة السفن، ورائحة اليود أنعشت أنف الصياد، وثوان وتوقفت الأبواق، وبعد نصف ساعة اقتربت سفينة المعظم

والصياد من الجزيرة، وحدها، وباقي السفن كانت في الخلف ينتظرون الإشارة.

وقفز من السفينة عشرة جنود، والمعظم، والصياد إلى الماء، وغاصوا، وعندما وصلوا للشاطئ تلفحوا بسواد الليل البهيم، حتى اقتربوا من مخزن البنادق والمتفجرات، وكان يقف لحراسته خمسة رجال أشداء ومتفرقون في أكثر من ناحية، أشار المعظم لخمسة جنود من جيشه، فأخرجوا من ملابسهم أقواسا صغيرة الحجم، ووضعوا بها أسهما، وأطلقوها في الهواء، فطارت، ودبت في أجساد الحراس، وسقطوا غارقين في دمائهم، ثم اقتربوا بحذر من المخزن، وبحث الصياد في ملابس الحراس عن مفتاح الباب، ولما وجده اقترب من الباب وفتحه، ودخل الجميع.

وخلال وقت سريع أخرجوا أكبر قدر من البنادق والمتفجرات والذخيرة، ونقلوها للسفن عن طريق مراكب خشبية صغيرة جدًا، كي لا تغرق الأسلحة في الماء. وبعدما انتهوا حمل الجنود، الخمسة حراس ووضعوهم داخل المخزن وأغلقوا بابه جيدا.

ولما صعد الصياد للسفينة وزع الأسلحة النارية على الفرق التي شاركته المعركة مع الكائنات الضخمة، لأنهم يمتلكون خبرة في استخدامها، وجهز فرقة رماة أسهم مكونة من ستة جندي، ومقسمين بأعداد ثابتة في مقدمة السفن الأمامية.

ووقت الفجر وقبل انشقاق ستار الليل وقف الصياد وتأمل الأجواء الملتهبة من حوله، والتقط نفسا طويلاً ونظر للمعظم وهز رأسه، فاقتربت جميع السفن من شاطئ الجزيرة، وأشار المعظم لفرقة كبيرة من الجنود كانت على يمينه، فنزلت إلى الماء ووصلت للجزيرة وهي تحمل البنادق فوق مراكب صغيرة، ثم انتزعت الفرقة البنادق واختبأت خلف الأشجار، وأشار الصياد لرماة الأسهم، فأمسك كل واحد فيهم بسهم ووضعه في قوسه، وسحبه للخلف وجلس فى وضعية استعداد.

وبعد وقت بسيط جاء صوت بوق قوي من خمسة أبراج خشبية في المعسكر الذي يجلس به محتلين الجزيرة، فنظر الصياد للمعظم ورأى ابتسامته على ضوء المشاعل التي يحملها الجميع، وأيقن أن أولاد الجد الأعظم سيطروا على الأبراج بنجاح، ورفع الصياد يده لفوق، وأنزلها سريعًا، فألقى الجنود الموجودون بالأبراج الخشبية، الكثير من القنابل اليدوية على معسكر الأوروبيين، فسقطت القنابل وفجرت أجزاء مهمة من المعسكر، وأحدثت أصوات ضجيج عالية، شقت صمت السماء والأرض، وخرج الجنود الألمان من معسكرهم بعضهم بملابس النوم، وغيرهم بعيون يغلبها النوم، أما الباقي ركضوا وبحثوا عن أسلحتهم وكانوا كالخطاة، مشتتين، ومهزوزين، وأثناء ذلك، بوق الصياد، فأطلقت فرقة الرماة أسهمها، فطارت ثم ارتطمت بأجساد الأعداء، ورفع المعظم يده وأنزلها، فخرجت الفرقة الضخمة من وراء الأشجار وكانوا يحملون البنادق، وأطلقوا وابلا شديدا من الرصاص على الألمان، ودارت معركة عنيفة بين أولاد الجد الأعظم، والجنود المحتلين، وكان التفوق ظاهرا لأصحاب الأرض.

وبعد أسبوعين من اقتحام بيت «القيرواني»، حلقت الطائرات الألمانية فوقه، ودمرته بالقذائف، وانتهت مع تدميره معالم «القيرواني» من الإسكندرية إلى الابد، بعد أن كان متحفا أثريًا يُفتح أبوابه في الصباح ليزوره الناس، ويروي روعة المعمار في هذه الفترة الزمنية للزوار.

***

تمت

إهداء عزيز على قلبي جدًا

إلى أقدم صياد في الإسكندرية الحاج محمود محمد عثمان (تومكس)

أشكرك على ما حكيته، وجعلني أعيش مع بطل الرواية، وأنزل معه إلى البحر، وأتموج فوق مركبته، وأسير بجانبه في الشوارع، لنستنشق رائحة اليود، ونتناول الذرة واللب، وأغتاظ حين تعامله شخصية من الرواية بسوء، وأحزن حين يمرض، وأفرح حين يصطاد أسماكًا، يساعده ثمنها على الاستمرار في الحياة الضيقة. أشكرك على محبتك، وإخلاصك للصيد والبحر، فمشاعرك الصادقة توغلت في أوصالي، واضطرمت بقلبي مثل النيران، وجعلتني حزينًا بعدما أنهيتُ آخر كلمات الرواية، وفارقتُ شخصياتها.